أوراق Awraq

مجلّة فصليّة تصدر عن رابطة الكتّاب الأردنيّين
ص.ب 9509 عمّان 11191 الأردن
عدد **(48)** خاص عن فلسطين
آذار 2021م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(د/٥٤٢٧/٢٠١٨)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الهيئة الاستشارية

- د. أحمد الحريشي
- أ. د. أحمد ماضي
- أ. هاشم غرايبة
- أ. هشام عودة
- د. زياد أبو لبن
- أ. محمود الضمور
- أ. د. مصلح النجار
- أ. د. سلطان المعاني
- أ. د. عبد الحميد المعيني
- أ. د. علاء عبد الهادي
- أ. علي البتيري
- أ. د. غسان عبد الخالق

رئيس التحرير
أكرم الزعبي

مدير التحرير
محمد خضير

هيئة التحرير
حليمة الدرباشي
د. حسن المجالي
مجدولين أبو الرُّب
محمد العامري
د. مخلد بركات

مدقّق لغوي
نزار عوني اللّبدي

*** الآراء الواردة في المجلّة لا تعبّر بالضرورة عن رأي رابطة الكتّاب الأردنيين، والمواد المنشورة تعبّر عن آراء كتّابها.**

*** لا تنشر المجلة ما سبق نشره في أيّ مطبوعة أخرى.**

*** المواد المترجمَة يُشار إلى المصدر الذي أُخذت منه.**

*** المواد التي لا يتم نشرها، لا تعاد إلى أصحابها.**

*** تُرسل المواد إلى البريد الإلكتروني:**

alkuttab.alorduneen@gmail.com

أو تُقدم على قرص مدمج بصيغة (Microsoft Word) إلى المدير الإداري في الرابطة، ولا تُقبل المواد التي تُرسل بخط اليد، ويشترط أن لا تزيد المادة عن (1500) كلمة.

◆ **كلمة أولى:** فلسطين ..... 3 — **رئيس التحرير / أكرم الزعبي**

◆ **دراسات فكريّة:**

- قراءة قانونية للانتداب البريطاني على فلسطين ..... 5 — **د. أنيس فوزي قاسم**
- المخطط الصهيوني الأمريكي لضم أراضٍ فلسطينية محتلة وآثاره على الأردن ..... 10 — **د. لبيب قمحاوي**
- "إسرائيل": دولة إلى زوال ..... 13 — **د. علي محافظة**
- القضية الفلسطينية بين القطرية والقومية ..... 18 — **أ. د. محمد علي الفـرا**
- ما بين بلفـور وترامـب وعدٌ مشؤوم وصفقة سافرة ..... 21 — **د. ربحي حلّوم**
- فلسطين وطننا... "إسرائيل" ليست دولتَنا ..... 28 — **رجا أغبارية**
- قراءة أولية في أخطار وأبعاد وتحديات صفقة القرن الصهيو أمريكية ..... 34 — **عليان عليان**
- مشاريع تسوية القضية الفلسطينية.. سراب يتبدد ..... 41 — **أسعد العزوني**
- نضال المرأة الفلسطينية ضد الاحتلال خلال القرن التاسع عشر ..... 47 — **د. سعيد سلمان الخواجة**
- الواقعيون: إقليميون، وطائفيون، و.. مستتبعون ..... 53 — **رشاد أبو شاور**
- القدس بين الاحتلال والتحرير: أحداث في أرقام ..... 57 — **أ. عزمي أبو عليّان**

◆ **أعـلام:**

- صبحي غوشة... رحلة في الذاكرة ..... 65 — **د. زياد أبو لبن**
- غالب هلسا وفلسطين ..... 67 — **نزيه أبو نضال**
- تجليّات الذّات في (رحلة جبليّة رحلة صعبة) لفدوى طوقان ..... 71 — **د. سناء الشعلان**

◆ **سياحة في مدينة:**

- في رحاب خليل الرحمن ..... 76 — **زياد الجيوسي**

◆ **فنون فلسطينيّة:**

- الفن التشكيلي الفلسطيني: ريشة بلون الدم ..... 82 — **محمد العامري**
- الملصق الفلسطيني: لُغَةُ مُقَاوَمَةٍ أُخْرَى ..... 84 — **إبراهيم الحَيْسن**
- التشكيل في خدمة القضية الفلسطينية ..... 100 — **شفيق الزكاري**
- هاني زعرب وبشار الحروب: وجهان تشكيليّان لقضيّة الإنسان الفلسطيني ..... 104 — **نجاة الذهبي**
- الـطّوابع الفـلسطينية: جبهة من جبهات الصراع ..... 109 — **غـازي انعـيم**
- جداريات فلسطينية تحاور باللون الأسود ..... 114 — **عبدالغني محمود عبدالهادي**
- فلسطين في الموسيقي العالمية ..... 117 — **محمد محمود فايد**

◆ **دراسات أدبيّة:**

- الكتابة والسجن ..... 122 — **كميل أبو حنيش**
- اتجاهات الرواية الفلسطينية خلال العقدين الماضيين ..... 125 — **تحسين يقين**
- روائيون أسرى في سجون الاحتلال الصهيوني ..... 133 — **محمد عارف مشّة**
- (روايات كنفاني) بين إدانة القيادات وجلد الذات والنضال لتحرير الأرض ..... 137 — **ذكريات حرب**

◆ **إبـداع:**

- القصيدة المقدسيّة- شعر ..... 144 — **حميد سعيد**
- قصيدتان- شعر ..... 146 — **أديب ناصر**
- على أبواب حزيران- شعر ..... 148 — **محمد سمحان**
- قرن من الشهداء- شعر ..... 150 — **هشام عودة**
- سكّن تَسْلَم... وخيمة- شعر ..... 152 — **خالد أبو حمديّة**
- حرائر- شعر ..... 154 — **عيسى حمّاد**
- الصياد-قصة ..... 156 — **دينا بدر علاء الدين**

◆ **كلمة أخيرة:** قُدسنا ..... 160 — **مدير التحرير / محمد خضير**

◆ **الغلاف الأمامي والرسومات الداخليّة:** رائد القطناني / الأردن

48

كلمة أولى

فلسطين

هذه الكلمة التي ترفُّ لها القلوب، وتنتفض الأجساد قشعريرةً كلّما ذُكِرت، الصامدة المرابطة، القابضة على جمر الأمل ببزوغ فجر التحرير، فلسطين، الجناح الغربي للنهر المقدّس الذي يكتمل ويتكامل بجناحه الشرقي (الأردن) الذي يحمل اسمه.

ولأنّها فلسطين، يأتي هذا العدد الخاص من مجلة رابطة الكتّاب الأردنيين "أوراق" ليكون خاصًا بها وعنها ولها، يحمل بين ثناياه أوراقًا توثّق لبعض فلسطين بأرضها وشعبها ولغتها وثقافتها ورجالها وتاريخها وفنّها، فهو عددٌ فكري، توثيقي، تاريخي، شارك به نخبةٌ من الكتّاب الذين لهم تاريخٌ حافلٌ في الكتابة عنها والدفاع عن أحقية ومشروعية قضيتها وقضية أبنائها التي ما زالت تشكّل وصمةً موجعةً في جبين الإنسانية التي تدّعي الثقافة والتمدّن والتحضّر، وتغضُّ النظر في ذات الوقت عمّا يجري بها من فظائع وجرائم.

ولأنّ الحق كلمة، كان لا بدّ من كلمة حق، ولأنّ الكلمة رصاصة، كان لا بدّ من رصاصة الكلمة، تقول للظالم والغاصب لا، وإن كانت الكلمة وحدها لا تكفي، إلّا أنّ الصمت في معرض الحاجة إليه جبنٌ وتخاذل، ومن هنا نقولها، ونعيدها بلسان كل عربي حر "فلسطين عربية من البحر إلى النهر".

إننا في رابطة الكتّاب الأردنيين، ونحن نصدر هذا العدد لنؤكد على الحق المشروع للشعب الفلسطيني في تحديد مصيره على كامل التراب الفلسطيني، ونؤكّد على أنّ قضية فلسطين هي قضية عربية إسلامية، قبل أن تكون قضية فلسطينية، مدعومين بالتاريخ والحقائق والجغرافيا، وبالدم العربي الطاهر الشريف الذي سال وروّى ترابها، وبما أكدته وحدة الضفتين ذات مرّة، وبالوصاية الهاشمية على المقدّسات الإسلامية في القدس الشريف، والرعاية الدائمة للمقدسات المسيحية هناك.

ربما تأخرنا قليلًا في إصدار هذا العدد، لظروفٍ ليس من أبرزها جائحة كورونا وما رافقها من تحدياتٍ صحية فرضت على العالم اتخاذ تدابيرٍ جديدة لم تعرفها البشرية من قبل، لكن أن تصل متأخرًا خير من أن لا تصل، وأن تبدأ بالحديث خيرٌ من أن تظلّ صامتًا، لأنّ من لا يستطيع التغيير بيده، فليغيّر ما استطاع بلسانه، وها لسان حالنا يقول إنّه جهد المقل، ولكنها القدرة والاستطاعة، ولا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نوجه شكرنا واعتزازنا وتقديرنا لأصحاب الفكرة، لجنة فلسطين في رابطة الكتّاب الأردنيين، التي بادرت بطرح الفكرة، ورافقتها إلى أن صارت واقعًا بين أيديكم.

إنّنا في رابطة الكتّاب الأردنيين نعدكم بأن نظلّ مؤسسة ثقافية أردنيةً تعمل بيديها على تعزيز المشهد الثقافي الأردني وترتقي به، وعينها عن فلسطين لا تغيب ■

أكرم الزعبي

رئيس التحرير

دراسات فكرية

- د. أنيس فوزي قاسم
- د. لبيب قمحاوي
- د. علي محافظة
- د. محمد علي الفرا
- د. ربحي حلوم
- رجا أغبارية
- عليان عليان
- أسعد العزوني
- د. سعيد سلمان الخواجا
- رشاد أبو شاور
- عزمي أبو عليان

قراءة قانونية للانتداب البريطاني على فلسطين

د. أنيس فوزي قاسم(*)

في أواخر العام 1918 وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وتمّت هزيمة الإمبراطوريات الثلاث وهي العثمانية والروسية والألمانية، وانشغلت الدول المنتصرة في كيفية توزيع الغنائم. وانعقد "مؤتمر السلم" في باريس في العام 1919 لتنظيم عملية النهب الاستعماري وصياغة الطريقة التي تتم فيها عملية النهب والسلب. وبحضور الرئيس الأميركي، ودور ويلسون، ذلك المؤتمر، طرأت على جلساته نكهة استعمارية جديدة أقلّ فظاظة في اللغة الرسمية التي كانت سائدة قبل المؤتمر، إذ قدم الرئيس الأميركي برنامجًا مكونًا من أربع عشرة نقطة وقد سبق له وأن حصل على موافقة الكونغرس الأميركي على برنامجه. وقد بشر الرئيس في نقاطه بأن عصر الغزو والتوسع الإقليمي يجب أن يتوقف، وعصر الديبلوماسية السرية يجب أن ينقضي، وطالب بضرورة أخذ مصالح الشعوب التي انسلخت عن الإمبراطوريات المهزومة بعين الاعتبار، وكان الرئيس الأميركي، الذي لم تشارك بلاده في تلك الحرب، يفتح الطريق أمام الرأسمالية الأميركية والاستعمار الأميركي الجديد.

وصدف أن كان حاضرًا في مؤتمر باريس، الجنرال يون سمت، وهو عسكري وسياسي إنكليزي كان وزيرًا في وزارة الحرب البريطانية، وهو الذي وضع كراسًا صغيرًا تحت عنوان "عصبة الأمم – اقتراح عملي"، وضع فيه أفكاره وتصوراته لمرحلة ما بعد الحرب، ومن ضمن تصوراته تأسيس عصبة الأمم، وطرح لأول مرة فكرة الانتداب لإدارة الأقاليم التي تم سلخها من الإمبراطوريات المهزومة. وحين سئل الجنرال سمت ماذا تعني بـ "الانتداب" كان جوابه غامضًا، ذلك أن فكرة الانتداب – وكانت فكرة جديدة- لم تكن قد تبلورت بعد في المفاهيم القانونية والسياسية. وقد رحب الرئيس الأميركي بالفكرة على الرُّغم من عدم وضوحها.

ومع أن الصفة الغالبة لمفهوم الانتداب والترتيبات المقترحة هي صياغة استعمارية طرحت لكي تتناسب مع المرحلة الجديدة، إلَّا أننا سوف نتعامل معها على أنها صيغة قانونية جديدة أدخلت على القانون الدولي في المرحلة الجديدة.

يشكل نظام الانتداب عنوانًا للشرعية الدولية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى. إنه النظام الدولي الجديد الذي قسّم الأقاليم التي سُلخت عن الإمبراطوريات المهزومة إلى ثلاث درجات وذلك حسب درجة تطورها – كما يراها سادة الإمبريالية الجدد- فالأقاليم الأكثر تطورًا أصبحت في فئة "أ"، والأقل تطورًا أصبحت في فئة "ب"، والمناطق التي

(*) خبير قانون دوليّ/ فلسطين

كانت بلا كثافة سكانية من فئة "ج". جاءت المادة (22) من ميثاق عصبة الأمم لتشكل الأساس القانوني لنظام الانتداب، وبصرف النظر عن فئة الانتداب، حيث نصت الفقرة (1) على أن شعوب هذه الأقاليم "المحررة" لم تبلغ مرحلة من النضج تمكنها من الوقوف معها على استقلال ودون دعم، وبالتالي يصبحون "وديعة مقدسة في عنق الحضارة"، ثم جاءت الفقرة الثانية تشرح التطبيق العملي لتلك الوديعة بحيث تتولى دولة من الدول التي قطعت شوطًا في التقدم والحضارة، وبالنيابة عن عصبة الأمم، مهمة القيام بدولة الانتداب لتقديم النصح والمشورة والمعونة لها. وجاءت الفقرة (4) تختص بالأقاليم التي تحررت من الهيمنة العثمانية، والتي "وصلت إلى مرحلة من التطور بحيث يكون وجودها كشعوب مستقلة يمكن الاعتراف بها مرحليًا مع تقديم المشورة الإدارية والمساعدة من قبل دولة الانتداب حتى يصلوا إلى درجة يمكن معها الوقوف لوحدها. وسوف تكون أماني هذه الدول لها الاعتبار الأسمى عند اختيار دولة الانتداب".

وعلى سند من هذه الأسس تمّ إنشاء نظام الانتداب على فلسطين، وقد صُنّف من فئة (أ)، ويخضع هذا الانتداب لمبدأ "العهدة المقدسة في عنق الحضارة"، وذلك مع الإقرار بأن الانتداب على فلسطين جاء مثقلًا بشروط ما يسمى "تصريح بلفور". وبدون الدخول في مشروعية هذا التصريح، إلَّا أننا سوف نعالج هذا التصريح في سياق صك الانتداب واعتباره جزءًا من النظام الدولي الجديد.

من الثابت أن صك الانتداب على فلسطين، شأنه شأن الانتدابات الأخرى على العراق وسورية والأقاليم الأخرى، جاء لمصلحة شعوب تلك الأقاليم ومساعدتها إلى أن تستطيع أن تقف على قدميها، أو هكذا جاء الإعلان الرسمي تبريرًا لهذا النظام الاستعماري الجديد. فهذا هو المبدأ السائد في كل صك من صكوك الانتداب، ولم يرد أي استثناء في صك الانتداب على العراق وسورية، بل ورد الاستثناء الوحيد في الصك الفلسطيني. وباعتباره

استثناء يجب تفسيره وتطبيقه ضمن هذا المنظور، ذلك أن الاستثناء – وهي قاعدة قانونية- يجب أن يفسر في أضيق المعاني وبدون توسع.

لقد نص الصك الفلسطيني على أنه يستند إلى نص المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم وهي التي وضعت مبدأ "الوديعة المقدسة في عنق الحضارة"، ونص في المادة (5) منه على التزام سلطة الانتداب بالمحافظة على الوحدة الإقليمية لفلسطين، فلا يجوز لها أن تجزئ أو تؤجر أي قسم من فلسطين أو تضعه تحت سيطرة دولة أجنبية، ونص في المادة (6) على التزام سلطة الانتداب بتسهيل منح الجنسية الفلسطينية لليهود الذين يقيمون إقامة دائمة في فلسطين. وبالمقابل، جاء في نص المادة (2) التزام بريطانيا، كدولة الانتداب، بتهيئة فلسطين سياسيًا وإداريًا واقتصاديًا لتأمين إنشاء الوطن القومي اليهودي. ونصت المادة (4) على الاعتراف بوكالة يهودية لتقديم النصح والتعاون لسلطة الانتداب في المسائل التي تتعلق بإنشاء الوطن القومي.

من الثابت أن الصك الفلسطيني انطوى على الاستثناء الذي أناطه تصريح بلفور، ويجب التعرض لنص هذا التصريح حتى نكتشف مدى انسجامه أو تعارضه مع "الوديعة المقدسة". بصرف النظر عن التاريخ التشريعي لهذا التصريح، فهو ينطوي على أن الدول المتحالفة تنظر بعين العطف لإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين بشرط عدم تضار الحقوق المدنية والدينية للجالية غير اليهودية (يعني الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين) في فلسطين، ولا تضار الحقوق والوضع السياسي لليهود من مواطني الدول الأخرى. ومن الثابت أنه لم يرد في محاضر عصبة الأمم ولا في المراسلات الديبلوماسية ولا في محاضر مجلس الوزراء البريطاني تعريف لما هو الوطن القومي اليهودي، وظل هذا التعبير غامضًا. ونص التصريح على أن يقام الوطن القومي "في" فلسطين، مما يعني أن لا يتم تحويل "كل" فلسطين إلى وطن قومي. وكان هذا النص مخالفًا لما اقترحته المنظمة الصهيونية ابتداءً في مشروعها والذي طالب بتحويل كل فلسطين إلى وطن قومي. إلا أنه من المهم التأكيد على أن إقامة الوطن القومي "في" فلسطين يجب أن تنسجم مع نص المادة (5) من صك الانتداب، ذلك أن إقامة هذا الوطن القومي مشروطة بالإبقاء على الوحدة الإقليمية لفلسطين. من الواضح، أن إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين هو الاستثناء الذي ورد في صك الانتداب بينما الأصل هو صيانة حق تقرير المصير للفلسطينيين. ويمكن تفسير ذلك الاستثناء على أن الوطن القومي قد يكون حارة أو حيًا أو مقاطعة ضمن الإقليم الفلسطيني الذي يجب أن يظل موحدًا لكي يمارس الفلسطينيون حق تقرير مصيرهم، كما أن هذا الوطن القومي يجب أن لا يؤثر سلبًا على الحقوق المدنية والدينية للسكان الفلسطينيين من مسلمين ومسيحيين والتي لها الأولوية في الاحترام والصيانة والتي جاء الانتداب ليعلن أنها "وديعة مقدسة".

إن هذا التفسير يتفق والترجمة القانونية لمبدأ "الوديعة المقدسة في عنق الحضارة" التي أقيم الانتداب على أساسها والذي وضع لشعب ذلك الإقليم وليس للمستوطنين، ذلك أنه لم يكن هناك أي مجتمع استيطاني يهودي بعد في فلسطين لكي يشمله مبدأ الوديعة المقدسة. وفي أربع قضايا تعرضت محكمة العدل الدولية لتفسير الوديعة المقدسة، وكانت منسجمة في النتائج التي توصلت

إليها، وهي أنها تعني الوصول بالشعب الواقع تحت الانتداب إلى ممارسة حق تقرير مصيره وذلك بإقامة دولته المستقلة ضمن الوحدة الإقليمية التي يعيش عليها. ففي القضية الخاصة بانتداب اتحاد جنوب أفريقيا على إقليم ناميبيا، رأت المحكمة الدولية في فتواها القانونية الصادرة في 5 /8 /1970 أن مفهوم "الوديعة المقدسة" يعني الوصول إلى حق تقرير المصير والاستقلال للشعوب ذات العلاقة. وتأييد هذا المبدأ في قضية الصحراء، على الرُّغم من أنَّها لم تكن ضمن نظام الانتداب بل كانت إقليمًا يخضع للاستعمار الإسباني، وفي قضية تيمور الشرقية تأييد ذات المبدأ على الرُّغم من أنها لم تكن جزءًا من نظام الانتداب كذلك. وجاء القول الفصل في الرأي الاستشاري للمحكمة الدولية في فتواها الصادرة في العام 2004 وذلك حين قررت أن إقامة جدار الفصل العنصري في الأراضي الفلسطينية المحتلة مخالف للقانون الدولي مما يوجب على "إسرائيل" إزالته وتعويض المتضررين عن الأضرار التي لحقت بهم جراء بناء الجدار. في تلك الفتوى، قالت المحكمة إن إقامة الجدار "ستعيق بشدّة ممارسة الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره، ومن ثمّ فإنه يعد خرقًا لالتزام "إسرائيل" باحترام هذا الحق". وهكذا وضعت المحكمة الدولية حق تقرير المصير بالنسبة للشعب الفلسطيني في سياق السوابق القضائية التي أرست قواعدها، أي أن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، شأنه شأن الشعوب الأخرى التي وقعت تحت الانتداب أو تحت الاستعمار المباشر أو لم تتمتع بالحكم الذاتي أو تحت الاحتلال العسكري، أصبح حقًا معترفًا به بموجب القانون الدولي والذي بهذه الصفة، يصبح حقًا ملزمًا للمجتمع الدولي ولا يجوز الانتقاص منه أو المساس به. إنه قانون دولي ملزم (Erga omnes).

وعلى الرُّغم من أنَّ صك الانتداب الفلسطيني، شأنه شأن الانتدابات على العراق وسورية (مع أن هناك اختلافات بين هذه الانتدابات) جاء صريحًا وواضحًا حول التزام سلطة الانتداب بالمحافظة على الوحدة الإقليمية لفلسطين، إلَّا أنه عند التطبيق العملي تخلّت سلطة الانتداب عن هذا الالتزام وكشفت من نواياها. وحين قامت الثورة الفلسطينية ضد الانتداب والهجرة الصهيونية إلى فلسطين، أرسلت بريطانيا بعثة برئاسة القاضي بيل في العام 1936 لدراسة الوضع والأسباب التي أدت إلى الثورة. وأرسلت اللجنة بعد القيام بالتحقيقات اللازمة توصياتها إلى حكومة الانتداب وهي توصيات لا تنسجم مع الأوضاع والظروف التي أدت للثورة؛ حيث أوصت بتقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق، دولة يهودية، ودولة عربية، وانتزاع الأماكن المقدسة من كلتيهما ووضعها تحت نظام خاص، أي أن التوصيات التي وضعت وشكلت أساسًا للتقرير المسمى "فلسطين – لجنة التقسيم" هي تجزئة فلسطين وذلك بالمخالفة الصريحة لما ورد في صك الانتداب. وللعلم، شكلت هذه التوصيات الأساس الذي بنيت عليه توصية هيئة الأمم في العام 1947 بتقسيم فلسطين إلى ثلاثة أجزاء كما ورد – تقريبًا – في توصيات لجنة بيل الملكية. ومارست سلطة الانتداب الرياء حين لم تلتزم بعدم الإضرار بالحقوق المدنية للفلسطينيين، ذلك أنها اتخذت كل الخطوات التشريعية لتعديل القوانين الفلسطينية، ولا سيما قوانين الأراضي، لتسهيل امتلاكها من قبل المستوطنين الأوروبيين. كما أنها سهلت الهجرة اليهودية إلى فلسطين دون مراعاة لإمكانية استيعاب الإقليم الفلسطيني وقدرته على النهوض بمهمة الهجرة ودون النظر إلى قدرة الاقتصاد الفلسطيني الذي كان ما يزال يئن من سيطرة الدولة العثمانية والضرائب الباهظة التي كانت تُجبى من الفلاحين. كما سهلت للمستوطنين الأوروبيين حق اكتساب الجنسية الفلسطينية. وجميع هذه التصرفات تؤكد أن دولة الانتداب كانت تحابي الاستثناء، وهو قيام الوطن القومي اليهودي، على حساب الأصل الذي هو "العهدة المقدسة في عنق الحضارة."

وقبل ذلك كله، كان اللورد آرثر جيمس بلفور عنوانًا للرياء والخداع، حيث أقرّ في رسالة رسمية موجهة لحكومته بأنه في فلسطين لم يذهب حتى لاستشارة أو تلمس رغبة السكان الأصليين. وصرح في تلك الرسالة بأن الدول الكبرى لها اهتمام وحرص على المطالب الصهيونية أكثر من اهتمامها برغبات ومظالم 700,000 عربي من أهل البلاد الأصليين، بينما كان يؤكد في تصريحه الذي حمل اسمه أن حقوق السكان الأصليين المدنية والدينية يجب أن تُصان أثناء بناء الوطن القومي اليهودي. وهكذا يتضح أن الدول الإمبريالية لا تستطيع إلَّا أن تمارس الرياء والنفاق، وآخر صور هذا الرياء والنفاق "صفقة القرن" التي لم تترك مبدأ من مبادئ القانون الدولي إلا وانتهكته بفظاظة. وعلى الشعوب المستضعفة أن تتعلم الدرس وهو أن لا تثق إلَّا بنفسها وقدراتها وانتزاع مصالحها. وعلى القيادة الفلسطينية، على نحو خاص، أن تعي هذا الدرس جيدًا، ذلك أن لا المؤتمر الدولي ولا الرباعية الدولية سوف يأتيان لها بحقوق شعبها، فهي ليست إلا أوكارًا للخديعة والغش والرياء، ومن أراد أن يتأكد عليه مراجعة مذكرات واقتراحات وتوصيات توني بلير، رئيس الرباعية الدولية زعيم النفاق الدولي ■

المخطط الصهيوني الأمريكي لضم أراضٍ فلسطينية محتلّة وآثاره على الأردن

د. لبيب قمحاوي(*)

يعيش العالم العربي الآن حقبة السقوط العربي في أحضان وبراثن المخطط "الإسرائيلي" الهادف إلى فرض السلام والتطبيع المجاني على العرب تمهيدًا لإغلاق ملف القضية الفلسطينية بشكل كامل ونهائي دون أن يعني ذلك حلًا للقضية. ويترافق هذا المسار والمسعى مع مشاريع ومخططات متوالية تهدف إلى دعم إغلاق ملف القضية الفلسطينية ومنها مقترحات ضمِّ أراضٍ فلسطينية محتلة إلى السيادة الاسرائيلة.

هنالك في العادة خلط ولُبس وعواطف عفوية وتلقائية في تعاملنا مع أي موضوع يمس فلسطين أو يتعلق بالعدو الاسرائيلي. وغالبًا ما تطغى هذه العواطف على العقل، مع أنَّ معظم ما يتعلق بفلسطين والقضية الفلسطينية هو أقرب ما يكون في أصوله وشرعيته إلى ما يستوعبه العقل قبل أن تستجيب له العاطفة، في حين أنَّ المنطق يرفض الاحتلال الذي يتعارض مع القانون والشرعية الدولية. فمخططات استعمار فلسطين بأشكالها المختلفة ومنها الاحتلال ثم الاستيطان ثم الضم هي أمور تتنافى والعقل والمنطق والقانون الدولي والشرعية الدولية.

يُعتبر قرار 242 الذي وافق عليه المجتمع الدولي بما في ذلك أمريكا والعالم العربي انعكاسًا لمبادئ القانون الدولي في تعامله مع مبدأ احتلال أراضي الغير بالقوة المسلحة، إذ ينص قرار مجلس الأمن رقم 242 في ديباجته على "عدم جواز الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة". ومن هنا سوف ننطلق في حديثنا عن نوايا "إسرائيل" المدعومة من إدارة الرئيس الأمريكي ترمب لضم أراضٍ واسعة من المناطق العربية المحتلة عام 1967 وتحويلها إلى أراضٍ خاضعة للسيادة "الإسرائيلية" وجزءٍ من دولة الكيان الصهيوني الاسرائيلي.

لقد نَصَّت مبادرة الرئيس الأمريكي ريجان للسلام في الشرق الأوسط والتي أُرسلت إلى الأردن في 22/8/1982 في أحد بنودها على أن: "سيادة اسرائيل على الضفة لا تحل المشكلة الفلسطينية، وبالتالي فإنَّ أمريكا لن تؤيد سيادة اسرائيل على غزة والضفة". هذه هي خلفية الموقف السياسي التقليدي للإدارات الأمريكية المختلفة. فمع أنَّ الأراضي المحتلة مضمومة فعلًا على أرض الواقع من خلال الاستيطان والسياسات "الإسرائيلية" التي تهدف إلى تغيير معالم الأرض، وأيضًا من خلال شبكة مواصلات استراتيجية حديثة تربط الأراضي المحتلة بالعمق الاسرائيلي، وليس ببعضها بعضًا، إلَّا أنَّها تبقى على الرُّغم من كلِّ ذلك أراضيَ محتلةً. الضمُّ إذًا لن يغير شيئًا من الواقع الاحتلالي بقدر ما يهدف إلى شرعنة ذلك الواقع

(*) مفكر ومحلّل سياسي - الأردن

من خلال نقل صفة تلك الأراضي من كونها أراضيَ فلسطينيةً محتلةً إلى أراضٍ إسرائيلية خاضعة حكمًا للسيادة الاسرائيلية.

من المعروف أنَّ السياسة "الإسرائيلية" تتبنى نهج التسلل الهادئ لبناء الأمر الواقع من خلال الاستيطان بأشكاله ووسائله المختلفة، ثم تنتقل إلى مرحلة الضم والشرعنة. ومن المهم التأكيد المستمر على أنَّ إغلاق ملف القضية الفلسطينية بشكل نهائي وليس حلها هو الهدف الحقيقي من وراء سياسة إدارة الرئيس ترمب تجاه الفلسطينيين والقضية الفلسطينية، ودعوتها إلى ضم أراضٍ فلسطينية محتلة إلى الكيان "الإسرائيلي" ووضعها تحت سيادة ذلك الكيان.

هنالك فرق كبير بين حل القضية الفلسطينية وإغلاق ملف القضية الفلسطينية. فالحل يعني التوصل إلى تسوية فيها تنازلات متبادلة ومكاسب وخسائر متبادلة لكلا الطرفين، في حين أنَّ الإغلاق يتمثل في إعلانٍ يستند إلى منطق القوة وبأنَّ القضية لم تعد قائمة، دون التوصل إلى حل أو تسوية للقضايا التي تشكل في مجموعها القضية الفلسطينية. والحديث عن الضمِّ يأتي كذلك في سياق إغلاق ملف القضية الفلسطينية. فالضمُّ يهدف إلى تغيير صفة الاحتلال عن الأرض، كونه يعني في أصوله ونتائجه أنَّه لا يوجد هنالك احتلال اسرائيلي أو أراضٍ فلسطينية محتلة. وضمُّ الأراضي الفلسطينية المحتلة إلى "إسرائيل" يعني عمليًا إخضاعها للسيادة "الإسرائيلية" وقانونيًا إلغاء صفتها كأراضٍ عربية فلسطينية محتلة.

الضم ليس موضوعًا فلسطينيًا – إسرائيليًا فقط، بل له أيضًا أبعاده الإقليمية والدولية والتي قد تدفع الأمور باتجاه مزيد من التأزيم من خلال

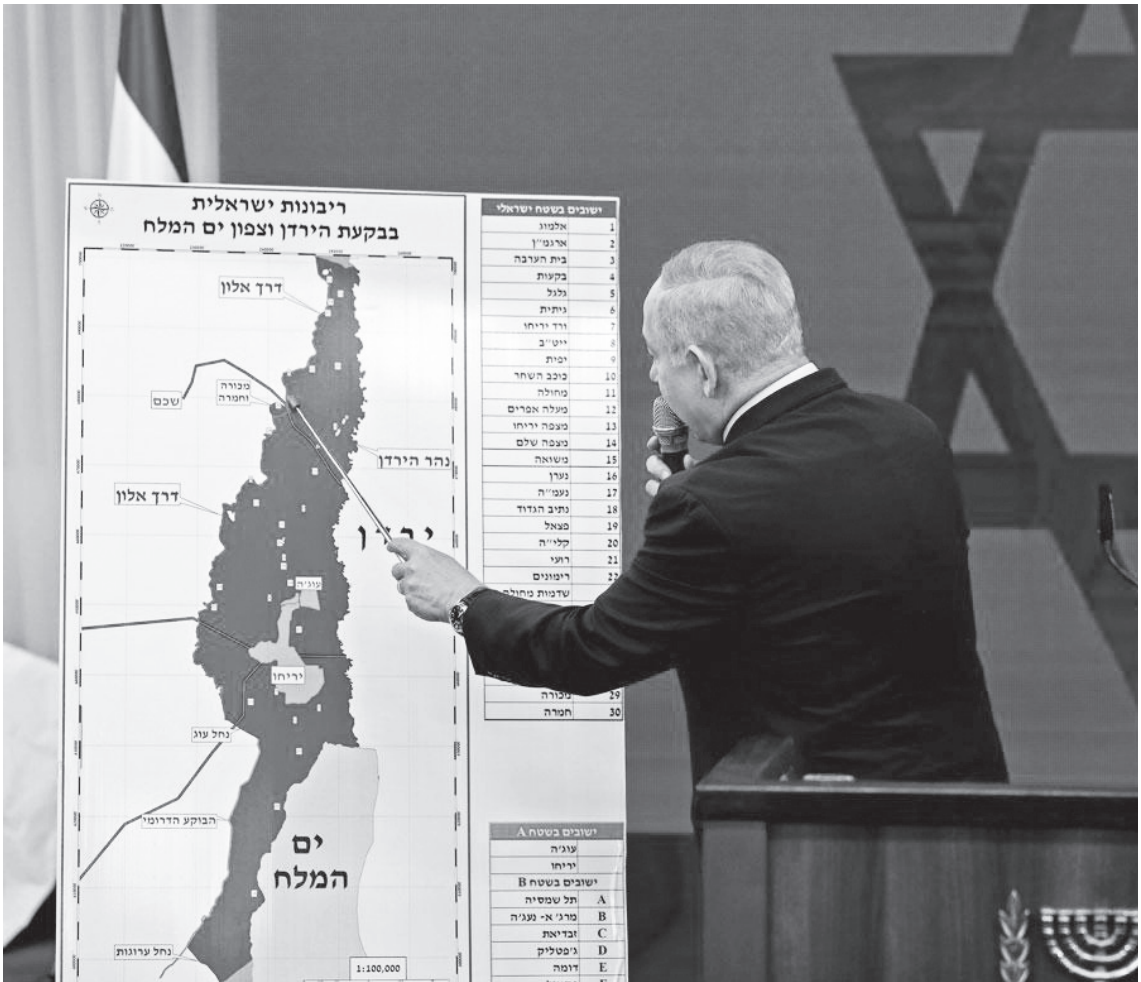

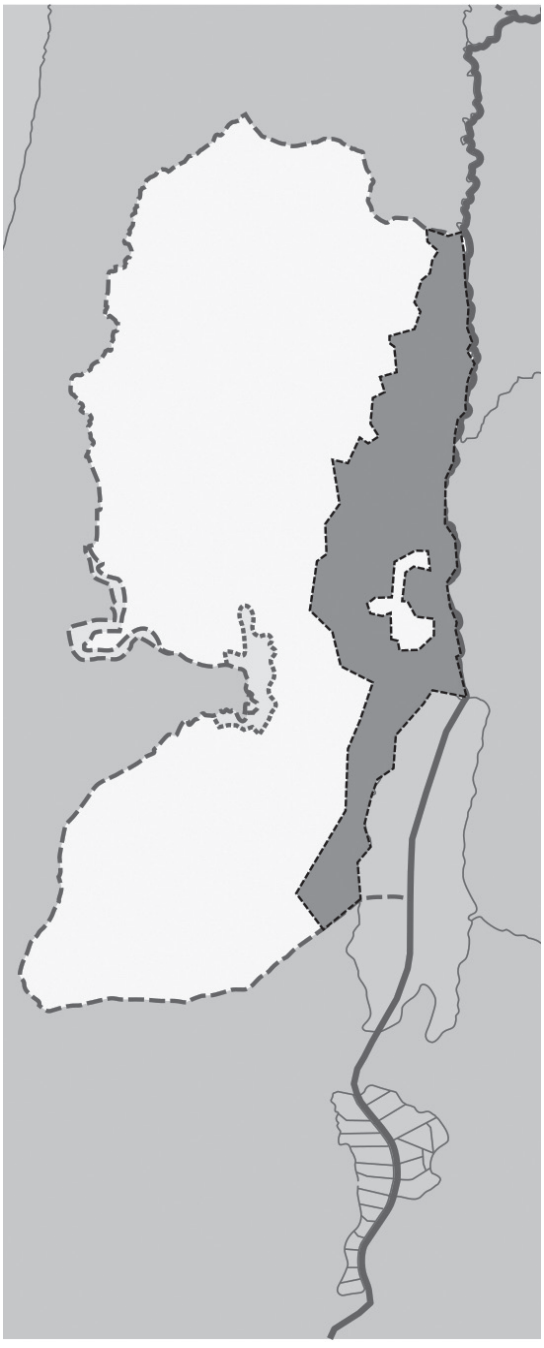

الإخلال بضوابط القانون الدولي في قضية معقدة ومتفجرة كالقضية الفلسطينية، ويدفع بالعلاقات بين "إسرائيل" والأردن إلى مستوى خطر من الاشتباك السياسي وتعارض المصالح.

الضم سيؤدي أيضًا فيما لو أخذ مداه القانوني والدولي إلى تغيير الحدود الدولية لما يُعرف بدولة اسرائيل، وفي هذا تهديد مباشر للمصالح والأمن الأردني، لأنَّ حدود الأردن الغربية سوف تصبح حدودًا أردنية - إسرائيلية وليس حدودًا أردنية - فلسطينية كما هو الحال طبقًا للقانون الدولي. وهذا يعني أنَّه لا يوجد منطقه عازلة بالنسبة للأردن بين الأردن والمطامع التوسعية الاسرائيلية.

إنَّ هذا الضم يعني أيضًا إخراج تلك الأراضي من أي عملية تفاوض باعتبارها قد أصبحت أرضًا اسرائيلية. وهذا يعني أيضًا وبالإضافة إخراج تلك الأراضي من أي مشروع لإنشاء دولة فلسطينية، باعتبار أنَّ تلك الأراضي إسرائيلية وليست فلسطينية محتلة، وهي بالتالي خارج إطار التفاوض، وهنا مربط الفرس بالنسبة للأردن، حيث إن إنشاء دولة فلسطينية على أراضي الضفة الغربية وغزة يعتبر عامل استقرار للمنطقة وللشعب الفلسطيني، وسدًا مانعًا أمام فكرة الوطن البديل أو الشعب البديل أو أي بديل على حساب الأردن. كما أنَّ قيام دولة فلسطينية يعني وجود جسم سياسي معترف به دوليًا يمثل الهوية الفلسطينية بمعزل عن الهوية الأردنية، مما يزيل أي أخطار محتملة على الأردن من خلال دمج الهويتين كحل لمشاكل اسرائيل في رغبتها بقضم الأرض دون البشر المقيمين عليها. وهكذا فإنَّ موضوع ضمِّ الأرض الفلسطينية دون إعطاء الفلسطينيين المقيمين عليها حقوق المواطنة كاملة، أو السماح بقيام دولة فلسطينية هو أمر يشكل بالنتيجة خطرًا على أمن الأردن ومصالحه. وهذا الخطر قادم من "إسرائيل" وسياساتها في الاستيطان وضم الأراضي المحتلة وليس من الفلسطينيين ■

«إسرائيل»: دولة إلى زوال

د. علي محافظة(*)

زال الاستعمار الاستيطاني في العالم القديم (آسيا وأفريقيا وأوروبا) ولم يبق منه إلَّا "إسرائيل" في فلسطين. ولذلك أسباب ودوافع معروفة، أهمها دعم العالم الغربي ومساندته لها، منذ البدايات حتى اليوم. فقد كان المسيحيون البروتستانت بعامة والإنجيليون منهم بخاصة، أصحاب فكرة قيام كيان سياسي يهودي في الأراضي المقدسة منذ القرن السادس عشر الميلادي، إيمانًا منهم أنَّ قيام هذا الكيان سوف يساعد في تحقيق نبوءة عودة المسيح إلى الأرض، واعتناق أمم العالم كافة الدين المسيحي. ولم تستجب الأقليات اليهودية في أوروبا للدعوة البروتستانتية والإنجيلية حتى القرن التاسع عشر الذي شهد اضطهاد اليهود وانتشار اللاسامية في أوروبا الوسطى والشرقية، مثلما شهد نمو الفكر القومي وقيام الدول القومية (إيطاليا وألمانيا وبلجيكا وهولندا، وإسبانيا والبرتغال)، ونشوء الدول القومية في العالم الجديد بعد أن استقلت مستعمرات الأمم الأوروبية فيه. وكانت الحركة الصهيونية التي تبنت الديانة- القومية في استعمار فلسطين، قد ظهرت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

قامت دولة "إسرائيل" على مجموعة من الخرافات والأساطير والأكاذيب. أول هذه الأكاذيب أنَّ فلسطين بلاد خالية من السكان. وثانيها أنَّ اليهود شعب بلا وطن. وقد فنّد هاتين الكذبتين المؤرخ اليهودي شلومو ساند Shlomo Sand بكتابه "اختلاق الشعب اليهودي The Creation of the Jewish Peopld" الصادر سنة 2010 عن دار Verso في لندن. وثالث هذه الأساطير هي أنَّ الصهيونية هي اليهودية. والواقع أنَّ الصهيونية مجرد تعبير تعبير ثانوي عن الحياة الثقافية اليهودية. ورابع هذه الأساطير أنَّ الصهيونية ليست استعمارًا، والحقيقة أنَّ الحركة الصهيونية حركة استعمارية استيطانية اغتصبت أرض شعب آخر وطردته منها هو الشعب الفلسطيني. وهي تتبنَّى منطق الإبادة لإزالة السكان الأصليين، والتطهير العرقي. والأسطورة الخامسة هي أنَّ الفلسطينيين قد غادروا بلادهم بإرادتهم سنة 1948. وقد رد على هذه الأسطورة المؤرخ نور مصالحة من فلسطينيِّي سنة 1948 في "إسرائيل"، بكتابه "طرد الفلسطينيين The Expulsion of Palestinians" الصادر سنة 1992، والمؤرخ الإسرائيلي إيلان بابيه Ilan Pappé بكتابه "التطهير العرقي في فلسطين The Ethnic Cleansing of Palestine" الصادر في لندن عن دار نشر One World سنة 2006.

والأسطورة السادسة هي أنَّ الحرب العربية-

(*) مفكر ومحلّل سياسي - الأردن

"الإسرائيلية" سنة 1948 كانت حربًا بين داود وجالوت. وقد بيَّنت العديد من الدراسات العسكرية والتاريخية بطلان هذه الأسطورة، لأنَّ القوات العربية التي قاتلت على أرض فلسطين سنة -1948 1949 كانت أقل عددًا بكثير من قوات الصهاينة وأقل عدة وتسليحًا وذخيرة وأدنى تدريبًا. والأسطورة السابعة هي أنَّ "إسرائيل" مدَّت يدها للسلام فرفضها الفلسطينيون والدول العربية. وقد بيّن المؤرخ اليهودي البريطاني الجنسية، العراقي الأصل، آفي شلايم Avi Shlaim كذب هذه الأسطورة في كتابه "الجدار الحديدي The Iron Wall"، ورفض قادة "إسرائيل"، منذ نشأة الدولة السلام مع العرب. والأسطورة الثامنة أنَّ حرب سنة 1967 كانت حرب الضرورة، فقد فرضت هذه الحرب على "إسرائيل" احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والاحتفاظ بهما رهينة حتى يقبل العالم العربي والفلسطينيون بإقامة السلام مع "إسرائيل". وقد فضح المؤرخ إيلان بابيه هذه الأسطورة أو الكذبة الكبرى مبينًا أنَّ قادة "إسرائيل" سعوا منذ مطلع الستينيات من القرن العشرين، وخططوا لإقامة "إسرائيل" الكبرى. وبعد حرب 1967 ضمت "إسرائيل" القدس الشرقية وهضبة الجولان السورية إليها. وأنشأت مئات المستعمرات على أرض الضفة الغربية. والأسطورة التاسعة هي أنَّ "إسرائيل" الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. فـ "إسرائيل" الدولة التي تدَّعي الديمقراطية يخضع خمس سكانها، وهم من الفلسطينيين، للحكم العسكرية حتى سنة 1966، وتطبق عليهم أنظمة وتعليمات الإدارة العُرفية في عهد الانتداب البريطاني، ويُحرمون من الحقوق المدنية والإنسانية. وتمارس "إسرائيل" جميع أنواع التمييز العنصري ضد الفلسطينيين. والأسطورة العاشرة هي أسطورة أوسلو القائلة إنَّها عملية سلام حقيقية، إلَّا أنَّ ياسر عرفات سعى عن قصد إلى إفشالها بإثارة الانتفاضة الفلسطينية الثانية. والأسطورة الحادية عشرة هي أسطورة غزة، إذ اعتبرت "إسرائيل" انسحابها منها مبادرة سلام حقيقية أو مصالحة. والواقع أنَّ انسحاب القوات "الإسرائيلية" من غزة كانت جزءًا من استراتيجية تهدف إلى تقوية قبضة "إسرائيل" على الضفة الغربية، وتحويل قطاع غزة إلى سجن كبير يمكن مراقبته جيدًا من الخارج. والأسطورة الثانية عشرة هي حلُّ الدولتين هو السبيل المتاح في المستقبل. إنَّ ما فعله الاستعمار الإسرائيلي في الضفة الغربية يجعل رؤية حل الدولتين مستحيلًا.

والسؤال الذي يُطرح دومًا هذه الأيام: هل ستبقى فلسطين وشعبها العربي تحت الاحتلال الإسرائيلي إلى الأبد؟ وهل ستزول "إسرائيل" بعد أن اعترفت الولايات المتحدة بالقدس عاصمة لـ "إسرائيل" ونقلت سفارتها إليها من تل أبيب، وأعلنت عن صفقة القرن كحل نهائي للقضية الفلسطينية، متحدِّية القانون الدولي وقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة؟

صحيح أنَّ الأمة العربية قد شهدت خلال العقود الزمنية الثلاثة الأخيرة ضعفًا شديدًا، وتفككًا مريعًا وفرقة مذهلة، وظهرت على ساحاتها الداخلية ميليشيات متحاربة باسم الدين والمذهب تارة وباسم القبيلة والمنطقة تارة أخرى. تتلقى هذه الميليشيات المال والسلاح من دول عربية شقيقة، ومن دول الإقليم المجاورة لنا والدول الكبرى الطامعة في السيطرة على ثرواتنا ومقدراتنا. وارتفعت رايات هذه الميليشيات في مصر وليبيا واليمن

وسورية والعراق وأقطار المغرب العربي. وامتد نشاطها الإرهابي إلى القارتين الأوروبية والأفريقية. ولم تعش الأمة أيامًا أشد سوادًا من أيامنا هذه. ولحق الدمار والقتل والإبادة الجماعية بأقطار عربية عديدة. وتعمقت الأزمة حتى دخلت كل بيت، وشملت الحكام والمحكومين. وتشعبت فهي أزمة سياسية اقتصادية اجتماعية وثقافية. وبلغت الأزمة هويتنا الوطنية والقومية. وأثيرت الأسئلة حولها: هل نحن مسلمون أولًا أو مسيحيون أو صابئة أو عرب؟ وهل نحن مسلمون سُنَّة أولًا أو مسلمون شيعة؟ وهل نحن سلفيون أولًا أو مسلمون وهابيون أولًا؟ وهل انتماؤنا للوطن أولًا أو للدين أو للمذهب؟ وهل العروبة عرق أو انتماء ثقافي؟ وهل ننتمي أولًا لعشائرنا وقبائلنا أو إلى المناطق الجغرافية والمدن والقرى التي ولدنا فيها أو نعيش فيها؟ هذه أسئلة طرحناها على بساط البحث والنقاش قبل مئة سنة ونيف، وعدنا نطرحها من جديد متجاهلين قرنًا من الزمن نمت فيه المشاعر الوطنية والقومية وتجذرت في النفوس والعقول، بهذه الأسئلة ندرك أنَّ مجتمعاتنا العربية قد تمزقت نسجها، وتقطعت أوصالها، وبُترت روابطها التاريخية بفعل الحروب الأهلية وتمرغت سمعة العرب في الأوحال، وتلوثت صورة الإسلام على يد بعض المسلمين.

حال الأمة هذه تجعل الإجابة عن مصير فلسطين وشعبها أمرًا في غاية الصعوبة والتعقيد، وتبعث في النفوس اليأس والإحباط. وكل من يدرس تاريخ هذه الأمة، يعرف أنَّه من حلكة الظلام انبعث نور الأمل والنصر، ومن حالة اليأس والقنوط انبثق الإيمان بالمستقبل الزاهر، ومن الفرقة والتناحر والفوضى، انطلق النداء إلى الوحدة والتضامن والقوة، باعتبارها سبيل النصر ودحر الغزاة المعتدين.

إنَّ أمتنا، على الرُّغم من كل ما سبق ذكره عن حالتها الراهنة، هي أمة حيَّة لا تموت ويقظتها ونهوضها قادمان. فشعوبها لم تعد تقبل بالعلاقة القائمة بين الحكام والمحكومين، ولم تعد ترضى بإثارة الفتن المذهبية والنزاعات القبلية والخلافات الجهوية. وتدين التطبيع مع العدو الصهيوني.

أمَّا "إسرائيل"، هذا الكيان الغريب الذي زرعته القوى الاستعمارية في جسد الأمة العربية، والذي بات يهدد وجودنا وحياتنا، ويشكل خطرًا دائمًا على مستقبلنا. فعلى الرغم من قوتها العسكرية وامتلاكها المئات من القنابل النووية، والتقدم العلمي والتكنولوجي الذي حققته، فإنَّ مصيرها إلى زوال.

فهي آخر الكيانات الاستعمارية الاستيطانية في العالم القديم، وآخر أنظمة العزل العنصري فيه، وبحكم طبيعتها العدوانية التوسعية، لا بد أن تثير القوى الحية في أمتنا وتتصدى لها. وصراعنا معها، على الرُّغم من حالة الضعف والتردي لتي تسود أمتنا، هو صراع وجود، ولا يمكن أن تقبل بسلام عادل مع أمتنا. وهي تطالب دومًا بالهيمنة والسيطرة علينا وعلى بلادنا، ولا تقبل إلَّا إذلالنا وخضوعنا لأطماعها، لأنَّها لا تعترف بنا بشرًا مساوين لها وأندادًا.

لقد تنبأ بزوالها المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي Arnold Toynbee في محاضراته وأحاديثه في المؤتمرات والندوات التي تناولت تاريخ الشرق الأوسط ومستقبله.

وهذا يعقوب شاريت ابن موشيه شاريت (شرتوك) الذي كان والده وزير خارجية ورئيس وزراء "إسرائيل" في النصف الأول من عقد الخمسينيات من القرن العشرين، يؤلف كتابًا بعنوان "إسرائيل إلى زوال

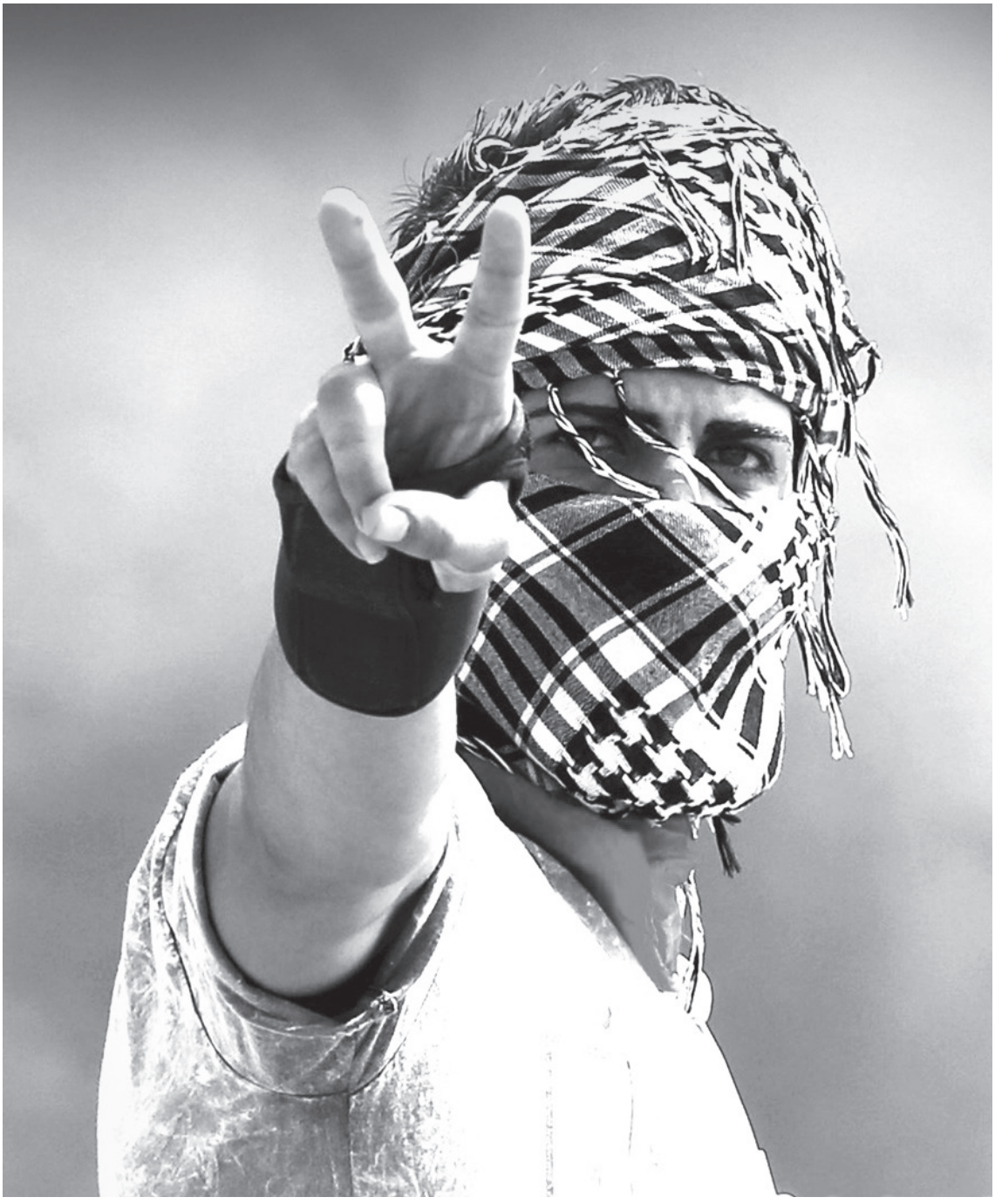

"Israel is Going To Be Vanished" وترجم إلى العربية سنة 1991.

ويعقوب هذا كاتب ومفكر إسرائيلي، توصل من خلال متابعته لما حصل في "إسرائيل" منذ قيامها سنة 1948 إلى الاقتناع بحتمية زوال دولة "إسرائيل".

فهو يرى أنَّ دولة "إسرائيل" مرحلة من مراحل تاريخ

اليهود، ولا بد أن تكون لها نهاية، وأيامها معدودة، لأنَّها تسير بأقصى سرعة إلى نهايتها. وهي ترتدي لباس وحش مخيف.

يرى يعقوب شاريت أنَّه من المستحيل هزيمة العرب وإبادتهم لكثرتهم واتساع مساحات أوطانهم. وهذه حقيقة ثابتة ودائمة. ويطرح سؤالًا مهمًا: ما الفائدة من إقامة دولة يهودية؟ وما الغاية من وجودها؟ هل نسعى لإقامة دولة تعيش في حصار مئة سنة أخرى؟ دولة تعيش في نزاع عسكري دائم مع جيرانها؟ يقول يعقوب شاريت: "لم يُقِمِ اليهود دولة "إسرائيل" المنشودة، وإنَّما أوجدوا مخلوقًا بشعًا مسلحًا من رأسه حتى أخمص قدميه، من العصا حتى القنبلة النووية يُدعى "إسرائيل". ويقول أيضًا: "إنَّ "إسرائيل" بتوجهها النووي تؤكد للعالم بأنَّ تقديراتها تقول إنَّ السلام لن يسود بينها وبين جيرانها إلى الأبد".

يواصل يعقوب شاريت حديثه: "في كل عقد من الزمن ينشأ في "إسرائيل" جيل جديد متعطش للمغامرات العسكرية. وينسى هؤلاء أنَّ الوجود اليهودي في فلسطين لم يكن ليصبح دولة لولا الانتداب البريطاني ولولا وعد بلفور. ولم تكن دولة "إسرائيل" لتقوم وتبقى لولا الضغط الامريكي في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ولم تكن "إسرائيل" لتبقى على وجه البسيطة لولا المساعدات والمنح والقروض التي تلقتها، وما زالت تحصل عليها من ألمانيا الاتحادية، ولولا الأسلحة التي اشترتها من فرنسا وبريطانيا ودول أخرى. إنَّ حدوث تحول شديد في الرأي العام العالمي الذي قد يحدث نتيجة للتصرفات "الإسرائيلية" الفاشية والإمبريالية من شأنه جعل "إسرائيل" تواجه وضعًا نفسيًا وسياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا أصعب من أن تتحمله، وسيجعل منها فريسة سهلة تغري أعداءها، ويجعلها عرضة للخراب والدمار".

ويقول يعقوب شاريت: "إنَّ الدعاية "الإسرائيلية" تردد صباح مساء أنَّ "إسرائيل" ثروة استراتيجية عظيمة القيمة وحيوية للدول الغربية. فهي تعرض نفسها بمثابة مقابل للأعمال القذرة. وسلكت جميع حكوماتها هذه الطريق الخطرة. وهي تحرك شفقة المتبرعين اليهود لصندوق الجباية اليهودية. كل هذا يشكل في جوهره دليلًا واضحًا على عدم ثقة قادة "إسرائيل" بقدرتها على البقاء عسكريًّا وأمنيًّا".

ويتساءل شاريت: أليس التوقع الدائم للحرب، وهذا الخوف المستمر منها ينبعان من جذور التوتر والهستيريا التي تتميز بهما الحياة في "إسرائيل"؟ وأليس اختيارها للسير في طريق السيف يعني اختيارها للسير في طريق الفناء والانتحار؟ وهل "إسرائيل" الحالية في جيلنا الحالي قابلة للبقاء؟ ويجيب: "كلا، "إسرائيل" ليست دولة وجدت للبقاء، إنَّها دولة كلها خوف وخوف متزايد على مصيرها".

وأضيف إلى ما قاله شاريت، أنَّ "إسرائيل" في تراجع على الصعيد العسكري، وأنَّها خلال العقود الأربعة الأخيرة لم تحقق نصرًا في أي حرب خاضتها مع قطاع غزة ومع لبنان. كما أنَّ حليفها الأول والأقوى، الولايات المتحدة الأمريكية، في تراجع على الصعيد العالمي، وهي الضمانة الوحيدة والقادرة على حماية "إسرائيل".

على العرب أن لا يذهب بهم اليأس والقنوط الناجمين عن أزمة الأمة العربية الراهنة إلى التسليم والخضوع والقبول بما يفرضه عليهم الأمريكيون والصهاينة في مستقبل الأيام والسنين، وأن يثقوا بأنفسهم أولًا وبأمتهم وبقدرتها على النهوض والانطلاق في ميادين التقدم والازدهار ■

القضيّة الفلسطينيّة بين القُطريّة والقوميّة

أ. د. محمد علي الفرا(*)

أود أن أبدأ مقالي هذا بالسؤال: هل كانت القضية الفلسطينية منذ البداية قضية وطنية تخص الفلسطينيين وحدهم، أم كانت قضية قومية يعدها العرب جميعًا قضيتهم؟ وإذا كانت اليوم اتخذت طابعًا وطنيًّا فهل كانت قبل ذلك ذات طابع قومي، ومتى حدث هذا التحول وما أسبابه وتداعياته، وهل هناك مبررات تستدعي أن تكون قومية؟

ربما كان من الأفضل الإجابة على السؤال الأخير أولًا لقناعتي بأنَّ القضية الفلسطينية يجب أن تكون قومية وذلك لخصوصيتها واختلافها عن جميع القضايا العربية الأخرى، ولذلك لا بد من إعطاء نبذة تاريخية تبيِّن أسباب قومية هذه القضية.

من المعلوم للجميع أنَّ الاستعمار الأوروبي، وعلى رأسه بريطانيا، وتحالفه مع الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر اختار فلسطين لإقامة كيان صهيوني فيها لتحقيق عدة أهداف لعل من أهمها منع قيام وحده عربية، وفصل مصر عن محيطها العربي والذي يعد مجالها الحيوي منذ عهد الفراعنة، والذين أدركوا بعد حملة قمبيز الفارسي إلى مصر واحتلالها عام 500 ق.م أن أمن مصر لا يتحقق إلَّا بالسيطرة على حدودها الشرقية، ولضمان ذلك لابد من مد نفوذها ليشمل فلسطين وجنوب لبنان، وقد تحقق لهم ذلك، وعلى هذا النهج سارت جميع الدول التي قامت في مصر، ومنها الدولة الفاطمية والأيوبية والمماليك الذين مدُّوا نفوذهم ليشمل الديار الشامية كلها، وأخيرًا جاء محمد علي باشا الذي استولى على السلطة في مصر عام 1805م ورأى أنَّ قوة مصر لا تتحقق إلَّا بالاستيلاء على فلسطين وسوريا، لأنَّ هذه الأقطار تعد المجال الحيوي لمصر، فأرسل ابنه إبراهيم باشا ليحتل الديار الشامية ومنها يشق طريقه الى تركيا، فتحركت القوى الأوروبية الكبرى بزعامة بريطانيا وأرسلت أسطولًا حربيًّا بقيادة كودرنجتون البريطاني وضرب الجيش المصري في بيروت وأجبر إبراهيم باشا على الانسحاب.

وفي عام 1840 عُقِد مؤتمر لندن الذي فرض على مصر العودة الى حدودها، وفي هذا الوقت بدأ التفكير بضرورة إنشاء كيان عازل Buffer State لعزل مصر عن محيطها العربي وحرمانها من مجالها الحيوي، وكذلك حينما تزايدت حدَّة المسألة اليهودية في أوروبا وبخاصة في بريطانيا بسبب حدوث هجرات يهودية كثيرة من روسيا متجهة صوب بريطانيا ودول أوربية أخرى.

عقد رئيس وزراء بريطانيا في عام 1903 آرثر بلفور

(*) مفكر ومحلّل سياسي - فلسطين

(صاحب الوعد المشؤوم الذي صدر فيما بعد، أي عام 1917) مؤتمرًا لأجل حل المسألة اليهودية، واستدعى ثيودور هيرتزل رئيس الحركة الصهيونية آنذاك ليبدي رأيه، فنصح هيرتزل بإقامة كيان صهيوني في فلسطين وتحويل مسار الهجرات اليهودية إليها، وأنَّ هذا الكيان كفيل بتحقيق مصالح بريطانيا. وفي عام 1905 خلف هنري بنرمان، بلفور في رئاسة الحكومة البريطانية وعقد مؤتمرًا أوروبيًّا تبلورت قراراته عام 1907 والتي نصت على ضرورة إقامة كيان صهيوني في فلسطين هدفه الأساسي منع قيام وحدة عربية تكون خطرًا على أوروبا، مستذكرين الفتوحات العربية الإسلامية واحتلال إسبانيا وبلدان في جنوب القارة الأوروبية وسيطرتهم الكاملة على البحر المتوسط.

بعد هذه المقدمة التاريخية التي كان لابد منها لإثبات أهمية قومية القضية الفلسطينية، نجيب على السؤال الأول وهو: هل كانت القضية الفلسطينية منذ بدايتها قطرية أو قومية؟ فنجيب بأنَّه منذ احتلال بريطانيا لفلسطين عام 1918 ثم إخضاعها لسلطة انتداب بريطاني عام 1921 وقيام انتفاضات وثورات فلسطينية بدءًا بانتفاضة 1921 وثورة البراق عام 1929 وثورة القسام 1935 والثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936 واستمرت حتى عام 1939 والتي شارك فيها متطوعون من جميع الأقطار العربية كما هو معلوم للجميع، مما أعطى للقضية الفلسطينية بُعدًا قوميًّا، ولكن على المستوى الشعبي فقط.

أمَّا على المستوى الرسمي، فإنَّ القضية الفلسطينية بدأت تصبح قضية عربية منذ عام 1939، حينما دعت بريطانيا بصفتها الدولة المنتدبة على فلسطين عددًا من الدول العربية الى لندن للتداول والنظر في القضية الفلسطينية، وهي مصر والسعودية واليمن وشرق الأردن، ومن المعلوم أيضًا أنَّ عددًا من ملوك وأمراء ورؤساء دول عربية وجهوا نداءً مشتركًا إلى الفلسطينيين لإنهاء الإضراب الذي استمر نحو ستة شهور – من 16 ايار/ مايو 1936 حتى 12 تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه، بناءً على وعد بريطانيا لهم بحل عادل للقضية الفلسطينية.

حينما قررت "إسرائيل" تحويل مجرى نهر الأردن، دعا الرئيس جمال عبدالناصر لعقد أول اجتماع قمة عربية عام 1964، وفي هذا الاجتماع عُهد الى الزعيم الفلسطيني أحمد الشقيري بإجراء مشاورات مع الفلسطينيين المقيمين في البلاد العربية لإقامة كيان فلسطيني، وأسفرت هذه اللقاءات والمشاورات عن إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، وقام الشقيري معتمدًا على خبرته القانونية بصياغة ميثاق المنظمة يؤكد فيه على قومية القضية الفلسطينية، وأطلق عليه "الميثاق القومي الفلسطيني"، وأنشأ أُطر وهياكل المنظمة مثل النظام الأساسي والمجلس التشريعي ومركز الأبحاث والجيش الفلسطيني...الخ.

وعن خفايا ما جرى في مؤتمر قمة الرباط عام 1974 ذكر الصحفي الراحل محمد حسنين هيكل في كتابه (سلام الأوهام) الجزء الثالث صفحة 43 – 45 بأنَّه حينما نوقش مشروع القرار تحدث الملك حسين وقال بأنَّ الأردن آخر من يعترض على حق

الفلسطينيين في أن يتحدثوا عن أنفسهم، وإنَّما هناك قضية أمانة تاريخية ومسؤولية حقائق مستقبلية، وبالنسبة للأمانة فإنَّ هذه الأراضي الفلسطينية (الضفة والقدس) كانت عند المملكة الأردنية عندما احتلتها اسرائيل، ويشعر الأردن بواجب أن يتحمل أمانة استعادتها، وأنَّ الأردن أكثر من غيره قادر على استعادة الأراضي الفلسطينية، فهو الطرف المعني بقرار مجلس الأمن 242 الذي لا يجيز الاستيلاء على الأراضي بالقوة... الخ.

كان الرئيس عرفات من أكثر الداعمين لهذا القرار والفرحين لصدوره، ويبدو لي أنَّه لم يكن يعلم أنَّ ذلك القرار كان وراءه الداهية كيسنجر، الذي كان آنذاك مستشار الرئيس الأمريكي نيكسون للأمن القومي، ثم وزيرًا للخارجية الأمريكية، وكان كيسنجر يقول إنَّ حل القضية الفلسطينية لا يتحقق إلَّا بفك ارتباطها كمسؤولية عربية، إذ لا يجرؤ أحد من حكام العرب التصرف وحده بها، وأنَّه لا بد من تحميل القضية الى الطرف الأضعف والمتمثل في منظمة التحرير الفلسطينية. وللأسف وقع عرفات في هذا الفخ وأوقع الشعب الفلسطيني معه، وكانت هذه واحدة من أكبر وأخطر أخطاء الراحل عرفات عبر مسيرته السياسية.

حينما نشبت خلافات في لبنان في الثمانينيات من القرن الماضي، رفع الرئيس ياسر عرفات شعار القرار الفلسطيني المستقل، وقد قال كثيرون بأنَّه لم يكن يقصد فك ارتباط القضية عن عروبتها، ولكن استُغِلَّ هذا الشعار لغير صالح عروبة القضية.

كان من نتيجة تهميش منظمة التحرير الفلسطينية أن فقدت وزنها وتقديرها لدى الأنظمة العربية. ولمَّا عُقِد مؤتمر السلام في مدريد في الثلاثين من شهر تشرين أول/ اكتوبر 1991 لبحث تداعيات حرب الخليج أو ما سمي بمشكلة الشرق الأوسط، دُعِيَت دول منها مصر والأردن ولم تُدْعَ المنظمة، وكان المؤتمر برعاية الرئيس الامريكي آنذاك جورج بوش الأب، ورئيس الاتحاد السوفيتي ميخائيل غورباتشوف. ووافق الأردن لوفد من منظمة التحرير الفلسطينية أن يحضر المؤتمر تحت مظلته. وبرئاسة الدكتور عبد السلام المجالي.

لا شك أنَّه باتفاق أوسلو تحقق وتأكد تحول القضية الفلسطينية من قضية قومية إلى قضية وطنية تخص الفلسطينيين دون سواهم، وتحول العرب من شركاء في القضية إلى وسطاء لها، وتغير مفهوم الصراع والنزاع من كونه نزاعًا أو صراعًا عربيًّا إسرائيليًّا إلى صراع ونزاع فلسطيني إسرائيلي. أما نتائج وتداعيات أوسلو على القضية الفلسطينية فنحن نعيشها هذه الأيام، وتستحق مقالًا أو مقالات لبحثها وتحليلها ■

ما بين بلفور وترامب وعدٌ مشؤوم وصفقة سافرة وقرن من محاولات طمس فلسطين التاريخ وتصفية قضيتها

د. ربحي حلّوم(*)

كثيرون في عالمنا العربي لم تستحوذ المستجدات الخطيرة التي آلت إليها القضية الفلسطينية خلال بضعة الأعوام الأخيرة على قَدرٍ كبير من الاهتمام والشعور بالمسؤولية على الرغم من ضخامة التهديدات الوجودية الجسام التي باتت فيها فلسطين -وطنًا وشعبًا- في حلق الحوت في أعقاب المآلات التي انتهت إليها في صفقة القرن وقرارات الضم (الإسرائيلية) وغوايات التطبيع المتعاقبة.

وليس مصادفة أن يخرج رجل يتربع على قمة الهرم لأكبر قوة عالمية بمخطط تآمري يحمل مسمى "صفقة القرن" في موازاة قرارات ضم لبقية ما تبقى من فلسطين التاريخ للكيان الصهيوني في ذكرى مرور قرن بالتمام والكمال على سلفه "بلفور" الأشد هَوَسًا بالصهاينة من سلفه، وهو المآل الذي لن يقتصر خطره الوجودي على فلسطين والأردن وشعبيهما فحسب، بل سيطال الوطن العربي كله والأمة بأسرها، ويتجاوز ذلك ليربوَ على كل ما سبقها من نكبات إذا ما قُدِّر لهذه الردة أن تستمر على حالها دون أن تصحوَ شعوبنا من غفوتهما، وتبرح فيها أمتنا محنة انقسامها وتشرذمها غير متّعظة من عِبَر قرن كامل من الاستهداف لمقدراتها وتاريخها ووجودها .

فما بين عامي 1917م - 2017م اللذين شهد أولهما "وعد بلفور" المشؤوم، وانتهى ثانيهما بالولادة المتعسرة لتوأمه الأخطر المسمى بـ "صفقة القرن الترامبية"، انقضى حتى الآن قرنٌ ونَيِّفٌ من الزمن مليئان بمؤامرات طمس فلسطين التاريخ وتصفية قضيتها.

(*) باحث ومحلّل سياسي - فلسطين

• ففي الأول أعطى (وزير خارجية بريطانيا اللورد بلفـور) فلســـطين -التي لا يملك- لمن لا يستحق.
• وفي الثاني نصّب (ترامب) نفسه شرطيًا لا ينازَع على الكرة الأرضية معتبرًا إياها واحدة من إقطاعياته فقرر طمس هوية فلسطين من تاريخها ومنحها لصُنّاعِه الصهاينة تنفيذًا للمرحلة الأخيرة من بروتوكولات حكمائهم بإشراف صهره وكبير مستشاريه جاريد كوشنر.

وما بين بواكير رأس القرن العشرين المذكور ومنتهاه، شهدت المائة وثلاثة أعوام الأخيرة محطاتٍ متعاقبة وتحولات أفلحت الحركة الصهيونية العالمية -إلى حين- في صنع أدواتها وأذرعها والدفع بهم إلى مواقع صنع القرار في أهم الدول الكبرى الفاعلة

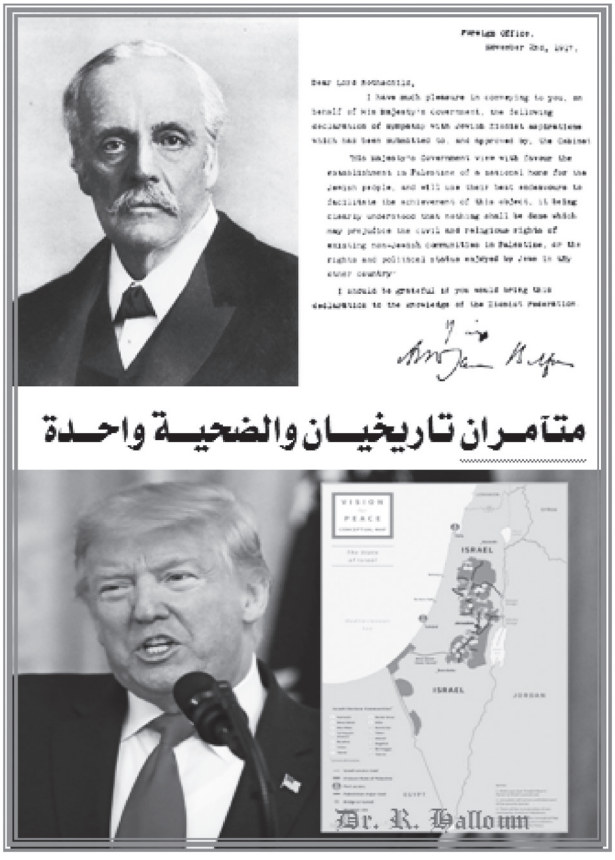

كما في بعض النُظُم العالمية وفي الإدارات الأمريكية الحديثة المتعاقبة، لتكون قادرة على النكوص بالوعود والتعهدات والمواقف والقيم التي تأسّست عليها نُظُمُهم والانقلاب على العهود التي قطعها كثيرون من أسلافهم المؤسّسين قبل القرنين والنصف الأخيرين.

ففي السابع عشر من كانون الثاني مطلع عام 1776م عندما زار أحد أبرزِ الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية بنجامين فرانكلين -المشهور بفراسته- إنجلترا ممثلا رواد إنشـاء المستعمرات الأمريكية الثلاثة عشر الخاضعة لبريطانيا العظمى آنذاك قبل إعلان الاستقلال للبحث عن مصدر ضمانات تغطية من بنك انجلترا لتمكين مصرف أميركا من حق إصدار النقد تحضيرًا للاستقلال، واجتمع بروتشيلد (واسمه الأصلي الحقيقي"آمشل ماير باور" قبل أن يلقب نفسه بلقب روتشيلد (Roth Schild ومعناها بالألمانية الـدرع الأحمـر) الذي كان بمثابة إمبراطور الأوراق المالية العالمية غير المنازع في عهده والمسيطر على بنك إنجلترا العظمى الذي رفض منح التغطية المذكورة، فاكتشف فرانكلين نوايـا روتشيلد المبيتة للسيطرة على الاقتصاد الأمريكي المستقبلي، وأحس بالخطر الداهم الذي يشكله هذا الرفض، ورغبة روتشيلد في الاستئثار بالسيطرة على انتزاع حق إصدار النقد من المصرف الأمريكي والأثر الخطير لذلك على سكان المستعمرات الأمريكية الثلاثة عشر وما يشكله من خلق حالة من البطالة والاستياء في نهاية المطاف نتيجة فرض ضرائب جسيمة عليهم، وهذا ما جرى وقـاد إلى الثورة الأمريكية المعروفـة على بريطانيا العظمى عام 1776 التي كان فرانكلين أحد أبرز وجوهها، مما

BENJAMIN FRANKLIN
1706 - 1790

BENJAMIN FRANKLIN AND THE JEWS

* "In whatever country Jews have settled in any great numbers, they have lowered its moral tone, depreciated its commercial integrity, have segregated themselves and have not been assimilated have sneered at and tried to undermine the Christian religion, have built up a state within a state, and have, when opposed, tried to strangle that country to death financially."

"If you do not exclude them from the United States in the Constitution, in less than 200 years, they will have swarmed in such great numbers that they will dominate and devour the land and change our form of government."

"If you do not exclude them, in less than 200 years our descendants will be working in the fields to furnish the substance while they will be in the counting house rubbing their hands. I warn you, gentlemen, if you do not exclude the Jews for all time, your children will curse you in your graves. Jews, gentlemen, are Asiatics, they will never be otherwise."

The above is taken from an address delivered by Benjamin Franklin before the Constitutional Convention in Philadelphia in 1787.

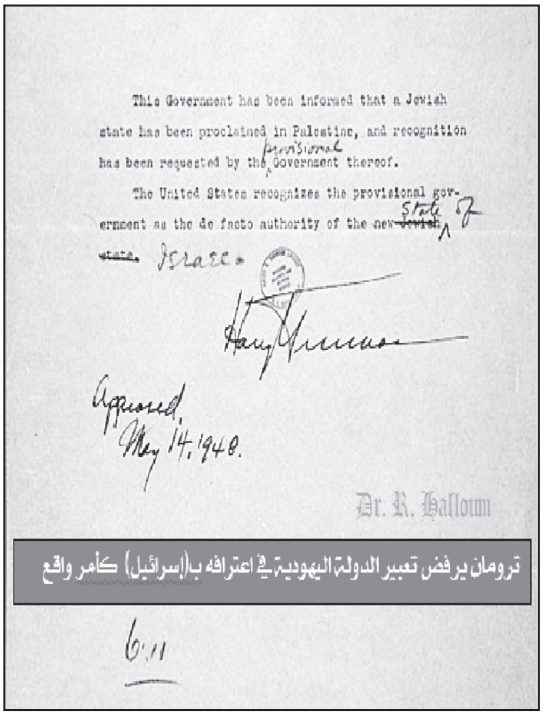

This Government has been informed that a Jewish state has been proclaimed in Palestine, and recognition has been requested by the provisional Government thereof.

The United States recognizes the provisional government as the de facto authority of the new Jewish state. Israel.

Approved May 14, 1948.

Dr. R. Hallowm

ترومان يرفض تعبير الدولة اليهودية في اعترافه بـ(إسرائيل) كأمر واقع

6.11

حمله على شن حملته المشهورة على أولئك المرابين الجشعين الذيـن يحاولون إغراق البلاد وإبقائها تحت سطوتهم وألقى بعدها خطابه المشهور في جلسة الآباء المؤسّسين للولايات المتحدة" لإقرار الدستور في فيلادلفيا عام 1776 لإعلان الاستقلال الأمريكي الذي تم إخفاؤه من كافة الوثائق الأمريكية لاحقًا في محاولة لطمس التاريخ، وهـو الخطاب الذي كان من أبرز ما جاْء فيه:

"... في أية بقعة من العالم تطأُها أقدام اليهود بأعدادٍ كبيرة، يظهر التاريخ أنهم يعمدون فورًا إلى زعزعة الاقتصاد وإضعافه ويمسكون بمفاصله ويعمدون إلى خنق الدولة ماليًا ثم ينغلقون على أنفسهم في تجمعات محصنة عصيّة على الاختراق كعنصريين، ويشكّلون بؤرًا فاعلة ذات نفوذ يفوق نفوذ الدولة داخل الدولة.."، وتابع يقول:

"...إننا إذا لم نقم بوضع تشريع في الدستور يحدُّ من توليهم المواقع القيادية الدقيقة، فستكون لهم اليد الطولى خلال أقلّ من مائتي عام بما يمكنهم من افتراس النفوذ والتسلط بما يمكنهم من تقرير الصورة التي يجب أن تكون عليها حكوماتنا مستقبلًا، ومن جعل أبنائنا وأحفادنا خدمًا لهم وعبيدًا يكدّون في المزارع بحثًا عن الإنتاج، وساعتئذٍ سيلعننا الأحفاد في قبورنا..".

حتى "هاري ترومان" الذي اعترف بـ (إسرائيل) قال في مذكراته اليومية: "...إن اليهود أنانيون جدًا ويتفوقون على هتلر وستالين فيما يتعلق بالبطش والإبادة عندما يستحوذون على السطوة والقوة والنفوذ. وشطب بخط يده كلمتي "دولة اليهود" (Jewish State) في رسالةاعترافه بكيانهم واستبدلهما بكلمتي (دولة "إسرائيل" (State of Israel) رفضًا لعنصريتهم.

ومثله فعل الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت الذي بعث في الرابع من إبريل عام 1945م برسالة لملك السعودية وعد فيها بأن واشـنطن لن تتـخذ اي قـرار بشأن فلسطين دون استشارة مسبقة مع العرب.

وختمها بالكلمات التالية: "...بصفتي رئيسًا تنفيذيًا لهذه السلطة، فإنني لن أتخذ أي إجراء يمكن أن يكون معاديًا للشعب العربي".

وهكذا تعاقب الآباء المؤسسون للولايات المتحدة على الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين العنصريين الصهاينة الذين يمسكون بزمام الأمور في الدولة العميقة رغم الضغوطات التي كانوا يواجهونها منهم، ولكن هؤلاء أفلحوا عبر عقد من الزمن عبر نفوذهم وسطوتهم المالية والاقتصادية في الدفع بترامب الأكثر صهيونية من الصهاينة أنفسهم إلى قمة هرم السلطة في البيت الأبيض وأحاطوه بفريق متكامل من صناع القرار وفي الأجهزة الفاعلة المتصلة خيوطها الرئيسية بهم كصهره جاريد كوشنر كبير مستشاريه، وجيسون غرينبلات مبعوثه للشرق الأوسط وديفيد فريدمان سفيره في الكيان الصهيوني وعرّاب التهويد الكامل لفلسطين واقتلاع شعبها، ووزير خارجيته بومبيو ذي النزعة ذاتها.

وهكذا باتت الفرصة التاريخية مهيأة لتنفيذ أدقِّ المهام ودخول عتبة المرحلة النهائية لأخطر المخططات الرامية لتصفية القضية الفلسطينية وطمسها من صفحات التاريخ أرضًا ووطنًا ووجودًا عبر "صفقة القرن" وفق ما رسمته بروتوكولات الصهاينة القدامى والجدد.

إذ لم يلبث ترامب أن تولى مهامه، حتى أعلن عن ضم القدس عاصمة (أبدية) للكيان الصهيوني والإطباق على كامل الأراضي المحتلة وضم ما تبقى منها للسيادة (الإسرائيلية) ترجمة لحلم المرحلة الأخيرة من برنامج الصهيونية العالمية في طمس فلسطين التاريخ وطنًا وشعبًا.

قرن من الصراع 2017-1917م:

وضَعَ الصهاينةُ خطتهم الممنهجة لإنشاد الدولة اليهودية في مؤتمرهم الصهيوني الأول الذي انعقد في مدينة بال السويسرية عام 1897م وقضوا قرابة عشرين عامًا توجت باستصدار وعد بلفور الشهير عام1917م، الذي شكل نقطة الانطلاق لتأمين العناصر الثلاثة التي تقوم عليها الدولة (الأرض، الشعب، الدولة أو النظام) ثم الاعتراف الدولي بموجب خارطة طريق ذات جداول زمنية محددة على مراحل ممنهجة امتدت على امتداد القرن الأخير، سعت الدولة لتنفيذ أربعة أهداف للمباشرة في البناء والإنجاز على الوجه التالي:

الهدف الأول: (توفير العنصر الأول –الأرض-) وحُدد له الربع الأول الممتد ما بين عامي 1897 ـ 1922من القرن المقرّر كسقف زمني لكامل المخطط:

ويقضي هذا الهدف بتسخير قوة دولية كبرى تحتضن المبادرة لتحديد الأرض التي سيتم عليها وضع حجر الأساس وانتزاعها لبناء الدولة اليهودية عليها بترخيص منها أولًا وتنتزع لها الشرعية الدولية حينذاك. وهو ما تم بالفعل في وعد بلفور عام 1917م وفي صك الانتداب البريطاني على فلسطين الصادر من عصبة الأمم عام 1922م والذي نص في مادته الثانية على حق اليهود في وطن قومي في فلسطين. فتحقق لهم بذلك وعدٌ بتأمين هدفي (الحصول على الأرض وصولًا إلى الإقرار بذلك من قبل الدولة المنتدِبة لها كترخيص لذلك).

الهدف الثاني: (توفير العنصر الثاني -الشعب- عبر الهجرة والاستيطان) وحُدد له الربع الثاني الممتد بين عامي 1922 ـ 1947م كسقف زمني من القرن المقرر:

ولتنفيذ الهدف التالي: بات ملحًا تحفيز وتهجير أكبر

عدد ممكن من المستوطنين اليهود إلى فلسطين وتكثيف الهجرة اليهودية المتعثرة التي فشلت في تهجير أكثر من 50 ألف يهودي على امتداد الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وهو الأمر الذي تحقق لهم صراحة في نص المادة السادسة من صك الانتداب البريطاني.

وقد اعتمدوا في ذلك على تمويل الشخصيات والمنظمات الصهيونية الكبرى، فأسسوا الصندوق القومي اليهودي. وبالفعل نجحوا تحت حماية الانتداب البريطاني في تهجير ما يقارب من 500 ألف يهودي إلى فلسطين. ليرتفع عدد اليهود فيها من حوالي 60 ألف عام 1917 إلى ما يقرب من 650 ألف عامي 1947 و 1948م، في مقابل وجــود 1.3 مليون عربي حينذاك. وهكذا تحقق لهم عبر موجات الاستيطان تحقيق الهدف الثاني (الشعب).

الهدف الثالث: (توفير العنصر الثالث -الدولـة- بناء وترسيخ ركائزها وتحقيق شرعيتها) وحُدد له الربع الثالث الممتد بين عامي1947 ـ 1973م كسقف زمني من القرن المقرر.

وتبدأ المرحلة الثالثة بالحصول على: قرار من الأمم المتحدة بدولة يهودية وهو القرار المشهور باسم قرار التقسيم الصادر في 29 نوفمبر 1947م والذي أعطى اليهود 55.40 % من فلسطين وأعطى العرب 44.60 % منها، في وقت لم يكن يمتلك اليهود سوى 5.60 % من أراضى فلسطين. وليشرعوا فورا في بناء دولتهم المسماة بـ(إسرائيل) التي أعلنوا عن قيامها في 14 مايو 1948م، وتقدموا بعد يوم من ذلك بطلب للانضمام لعضوية الأمم المتحدة الذي رفضه مجلس الأمن، ثم تقدموا في 17 ديسمبر 1948م من نفس العام طلبًا ثانيًا رُفض للمرة الثانية أيضًا. ثم تقدموا في الحادي عشر من مايو 1949م بطلب للجمعية العامة التي أصدرت قرارها رقم 273 في 11 مايو 1949م الذي نص على: "... قبول عضوية (إسرائيل) بناءً على إعلانها بأنها "تقبل بدون تحفظ الالتزامات الواردة في ميثاق الأمم المتحدة وتتعهد بتطبيقها من اليوم الذي تصبح فيه عضوًا في الأمم المتحدة"، وبأنها تتعهد بتطبيق قراري الجمعية الصادرين في (29 نوفمبر 1947) و (11 ديسمبر

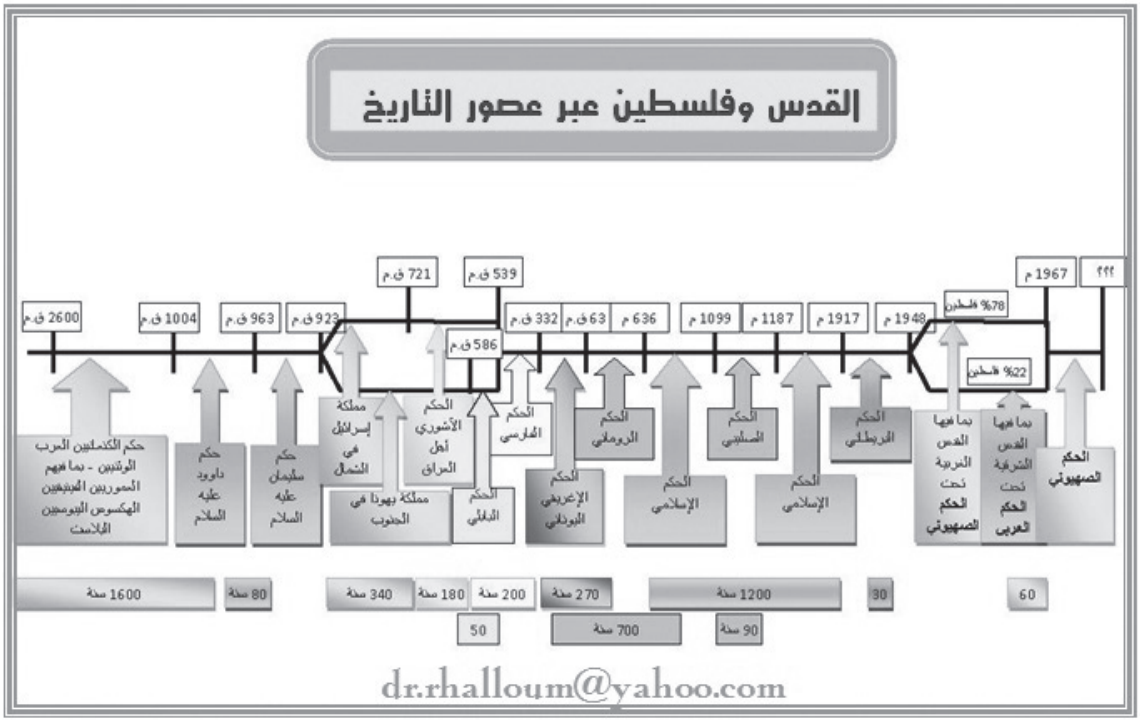

1948) والمتعلقين بتقسيم فلسطين وحق عودة للاجئين الفلسطينيين (الأمر الذي لم يحدث حتى اليوم).

وهكذا تم الإعلان رسميا عن الكيان الغاصب دون الإعلان عن حدوده قبل ثماني ساعات فقط من انتهاء وانسحاب قوات الانتداب البريطاني من فلسطين وعبر أساليب ارتكاب عدد من المذابح الإرهابية مثل دير ياسين وقبيــة واللطرون وغيرها، والتي نجحوا من خلالها في تفريغ البلاد من حوالي 750 ألف عربي، والانتصار على جيوش الدول العربية مجتمعة في حرب 1948م، والاستيلاء على مزيد من الأرض لتصل جملة ما يسيطرون عليه إلى 77.4 %.

صدور البيان الثلاثي الأمريكي البريطاني الفرنسي لحماية وجود (إسرائيل) وحدودها وأمنها وتهجير 1.5 مليون يهودي إضافي إلى فلسطين في الفترة من 1949 إلى 1973، واغتصاب باقي فلسطين في 1967م بالإضافة إلى سيناء والجولان وتلقى دعم هائل من الأموال والسلاح من أمريكا والدول الأوروبية ضمنت لدولتهم البقاء والتفوق العسكري على الدول العربية مجتمعة من خلال حماية وغطاء أمريكي وأوروبي غير محدود في الأمم المتحدة. وحققوا الهدف الثالث الذي تمثل في (بناء الدولة والاعتراف الدولي بها).

الهدف الرابع: (الإطباق على كامل الأرض والاعتراف بالتوسع والضم والاستيطان) وحُدد له الربع الرابع الممتد بين عامي 1973 ـ 2019:

إذ نجحوا بعد حرب 1973م في البدء بذلك العمل على تحقيق هدفهم الرابع والأخطر المتمثل في: انتزاع اعتراف أصحاب الأرض المحتلة من العرب والفلسطينيين بشرعية الكيان (إسرائيل) والذي نجحوا في تحقيقه من خلال إخراج مصر من الصراع وانتزاعهم منها اعترافا كاملا منها في كامب ديفيد (إسرائيل) بموجب اتفاقيات السلام المشهورة باسم كامب ديفيد، واجتياحهم للبنان وحصارهم وإخراجهم للمقاومة الفلسطينية من هناك عام 1982، وصولًا إلى انتزاعهم الاعتراف الرسمي من القيادة الفلسطينية في أوسلو عام 1993م متنازلة

بذلك عن أكثر من ثلاثة أرباع فلسطين التاريخية ليتحقق بذلك هدفهم الرابع، ليتبع ذلك تعزيز الكيان الغاصب وشرعنة الاحتلال عبر تحويل الأمر برمته في مفاوضات أوسلو على امتداد ربع قرن من "قضيـة احتلال" إلى قضية "أراض متنازع عليها"، بدلًا من "أراض محتلّة":

فحين فاوض المرحوم الدكتور حيدر عبد الشافي الطرف الإسرائيلي بُعَيْد اجتماع مدريد، أصرّ على تعريف الأراضي التي احتُلّت عام 1967 وتشمل الضفة والقدس الشرقية وغزة بـ "الأراضي المحتلّة"، وأدرك الفخ المنصوب من الطرف الإسرائيلي الذي يصر على تعريف فلسطين بمصطلح الأراضي "الإسرائيلية" المحررة! وذلك كمصيدة أو فخ لحل وسط وطال النقاش في هذا المصطلح التعريفي التأسيسي الخطير، واقترح الوفد الإسرائيلي مخرجا للخروج من أزمة المصطلح، بتعريفها بالأرض المتنازع عليها. ورفض عبدالشافي ذلك، لأن المقترح يخدم الطرف الإسرائيلي، ويجعل له حقا قانونيا في الاستيطان، وفي فرض السيادة على أجزاء من الضفة، وهو في الوقت نفسه يملك القوة لفرض رؤيته، ويمنحه مصطلح التنازع مرجعية قانونية، يستظل بها في عملية فرض الأمر الواقع، وفرض السيادة.

• اليوم، ومع تفاقم عمليات الاحتجاج على مشروع الضم وفرض السيادة، يتبجح غرينبيلات المبعوث الأمريكي شريك كوشنر في إعداد صفقة القرن بالقول: أنا أؤيد رغبة (إسرائيل) في الضم وفرض السيادة، لأن (إسرائيل) تملك السند القانوني، كونها لا تضم أرضا فلسطينية، بل تضم أرضا متنازعًا عليها بحسب اتفاق الطرفين في أوسلو، ولا داع للمزايدات الإعلامية، وعلى الطرف الفلسطيني العودة للمفاوضات. (إسرائيل) تتصرف في أرض هي تملك الحق فيها بحسب مفهوم التنازع الذي وقع عليه الطرفان؟!

صفقة القرن و "يهودية الدولة" و "نهر التطبيع":

تخلص صفقة القرن- المكونة من إحدى وثمانين صفحة كما أعلنها الرئيس الأمريكي ترامب في البيت الأبيض بحضور رئيس وزراء الكيان الغاصب في الثامن والعشرين من يناير 2020م بعد طول انتظار وتكهنات، والتي تم منذ ذلك الحين تنفيذ الشق الأكبر منها ميدانيًا إلى:

• ضمّ أغوار نهر الأردن لتكون تحت السيادة الإسرائيلية، وقد أقر الكنيست الصهيوني قرار الضم المذكور وبوشر بتنفيذه بصمت وهدوء ومكثف بعيدًا عن الإعلام.

• إضافة إلى تهويـد وضم القـدس بشقيها وضواحيها كاملة لتكون العاصمة الأبدية لـ(إسرائيل).

• ضم كافة البؤر والمستوطنات المنتشرة في مختلـف أنحاء الضفة الغربية المحتلة إضافة إلى الأراضي المصنفة (ج) والبالغ مساحتها 61% من أراضي الضفـة الغربية المحتلة.

• عزل التجمعات السكانية الفلسطينية في معازل (مُحوصلة) داخل جزر معزولة (باندوستانات) تتمتع بإدارة مدنية تحت السيادة "الإسرائيلية" أو في إطار حكم ذاتي فلسطيني يطلق عليه (دولة) بلا معابر أو أجواء أو أية حدود برية مع أية دولة من دول الجوار، وذلك تمهيدًا لاقتلاعهم قسريًا في عملية تطهير عرقي مستقبلية في ظروف لاحقة يتم تهيئتها لهذه الغاية أو حملهم على الهجرة لما وراء النهر وتوطينهم في الزمان والمكان المناسبين وفقًا لقانون يهودية الدولة الذي أقر في الكنيست الصهيوني ووضع موضع التنفيذ في التاسع عشر من يوليو 2018م ■

فلسطين وطننا... «إسرائيل» ليست دولتَنا

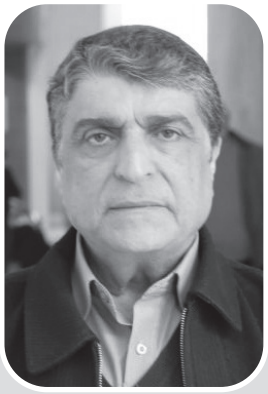

د. رجا أغبارية(*)

أسقط برلمانُ الدولة اليهوديّة الصهيونيّة القناعَ عن ماهيّة دولة "إسرائيل" الاستعماريّة ــ العنصريّة، التي زرعتْها الإمبرياليّةُ الأوروبيّة في فلسطين، كي تبترَ جسدَ الأمّة العربيّة، وتَحُولَ دون وحدتها، مشكّلةً بذلك قاعدةً متقدّمةً لها في المنطقة، تواصل تهديدَ استقلال الأمّة العربيّة ونهبَ ثرواتها وتكريسَ تخلّفها الذي أنشأه الاستعمارُ نفسه. وكلّنا يعيش في السنوات الثماني الأخيرة، على الأقلّ، تبعاتِ هذا المشروع الخبيث الذي أطلّ به علينا الاستعمارُ تحت غطاء "حقوق الإنسان" و"الديمقراطيّة" و"التعدديّة الطائفيّة"، بهدف إعادة إنتاج تقسيم المقسَّم من الوطن العربيّ عبر ما يُسمّى "الربيع العربيّ".

وكانت الأممُ المتحدة قد اشترطتْ على قادة الحركة الصهيونيّة عام 1948، مقابلَ الاعترافِ بدولتهم، أن "تطبِّقَ دولةُ "إسرائيل" مساواةً في الحقوق الاجتماعيّة والسياسيّة لكلّ مواطنيها"، وأن توافقَ على قرار التقسيم (رقم 181) وقرارِ حقّ العودة (رقم 194). وقد **قبلتْ** "إسرائيلُ" تلك الشروطَ، غير أنّها **لم تطبّقْ** هذا البندَ أو غيرَه، بل مارستْ "سيادتَها اليهوديّة" على الفلسطينيين، الذين أصبحوا سكّانَها بسبب اغتصاب وطنهم، وبفضل قرار الأمم المتحدة المذكور الذي ورد في "وثيقة الاستقلال" الإسرائيليّة.

وعليه، فإنّ "قانون القوميّة" الأخير ينبغي أن يُسقِطَ رسميًّا اعترافَ الأمم المتحدة بـ"إسرائيل" لأنّه جاء في الأصل مقابل شرطٍ لم تطبِّقْه "إسرائيل"!

أكثر من ذلك: الأممُ المتحدة، بل دولُ العالم جميعها، لم تجبرْ "إسرائيل" على تنفيذ أيٍّ من قرارات الأمم المتحدة الكثيرة المتعاقبة. فهل يتوقّع أحدٌ أن تعيدَ الأممُ المتحدة النظرَ في وجود هذه الدولة المعربدة عالميًّا، التي تتصرّف فوق القانون الدوليّ، بفضل حاميتها أمريكا، التي أصبحتْ رأسَ الإمبرياليّة العالميّة؟!

انعكاس قرار الأمم المتحدة على فلسطين 48 و "إسرائيل"

الشرط الدوليّ أعلاه تحوّل إلى برنامجٍ سياسيّ، قوميّ ومطلبيّ، للحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ الذي وقّع على "وثيقة الاستقلال" الإسرائيليّة، وشارك منذ البرلمان الأوّل في عضويّته. كذلك الحال في قضيّة "المساواة في المواطنة" وغيرها، الأمر الذي أصبح ينسحب على برنامج "القائمة المشتركة" برمّتها، وأصبح هو المبرِّرَ الأساسَ لدى دعاة "التكتيك" و"إحراجِ "إسرائيل" اليهوديّة" من أجل دخول الكنيست، ومشاركةً مبدئيّةً من طرف الذين يعتبرون أنّ "إسرائيل" تجسّد "حقّ

(*) ناشط وقيادي - فلسطين

تقرير مصير اليهود في البلاد" (فلسطين).

كان من المفروض أن تطبِّق "إسرائيل"، هذا الشرط كتحصيل حاصل، من دون أن تخوض عليه جماهيرُ الداخل معاركَ، ومن دون أن تَدفعَ أيَّ ثمن سياسيّ أو وطنيّ مثل دخول الكنيست أو الهستدروت، ومن دون أن تلجأ إلى تبريراتٍ تخلط بين حقّنا في العيش تحت الاحتلال (كشرط دوليّ) وبين المشاركة في الكنيست الصهيونيّ، ومن دون أن تعتبر حقَّنا في العمل والتعليم والعلاج الطبّيّ والتنقّل والحصول على ميزانيّات السلطات المحلّيّة (وما إلى ذلك من الحقوق) مطابقًا تمامًا لضرورة دخول كنيست الدولة اليهوديّة.

إنّ كلَّ ما فعله القانونُ الجديد هو قوننةُ ما هو قائم على الأرض. وهذه حقيقة يعرفها أعضاءُ الكنيست العرب أكثرَ من أيّ مواطن عاديّ. إلّا أنّ تمسّك بعض الفلسطينيين الأبديّ بكرسيّ الكنيست يستند إلى "مبدأ"، هو اعتبارُ "إسرائيل" "دولةَ المشاركين فيها". هؤلاء يلهثون خلف سرابِ تحويل عنصريّتها إلى ديمقراطيّة، فيحصدون تجميلَ صورتها لدى المجتمع الدوليّ، وشرعنتَها، بحيث تظهر وكأنّها تطبِّق قرارَ الأمم المتحدة الذي أوجدها، ويمنحون نتنياهو فرصةَ التبجّح أمام العالم بأنّ "عرب إسرائيل" هم الوحيدون في الشرق الأوسط الذين يتمتّعون "بالديمقراطيّة"!

ماذا فعل "قانونُ القوميّة" بكلّ البرامج وقرارات الأمم المتحدة أعلاه؟

لم يأتِ هذا القانونُ بجديد من حيث الجوهر. فـ "إسرائيل" مارستْ يهوديّتها في كلّ مناحي الحياة، بشكل عمليّ ورسميّ، من دون هذا البرواز، وذلك من خلال سياسة السلحفاة التي انتهجها حزبُ العمل، الذي أقام الدولة.

في السنوات العشر الأخيرة انتهى دورُ تيّار حزب العمل في "إسرائيل"، وانفرد الليكود بالسلطة، لينتقلَ بذلك إلى مرحلة قولبة الواقع الممارَس في قوانينَ أساسٍ لتهويد كلّ أرض فلسطين، ولقوننة سيادة المهاجرين اليهود على السكّان الفلسطينيين الأصليين.

من هنا طالب نتنياهو، وما يزال، محمود عبّاس بالاعتراف بـ "إسرائيل" دولةً يهوديّة. وعندما لم يحصل ذلك، جاء القانونُ الجديد كي يَفرض على كلّ مَن يعترف بـ "إسرائيل" (التي لم تَرسم حدودَها الدوليّة رسميًّا كما ذكرنا) الاعترافَ بما هي عليه في الواقع: دولة يهوديّة، عاصمتُها القدسُ الموحَّدة.

الآن، إذا ربطنا هذا القانونَ بقانونٍ سابقٍ آخر يُلزم أيَّ قانونٍ جديدٍ بوجوب تضمُّنِه بندًا يسري مفعولُه على "يهودا والسامرة" (الضفّة الغربيّة)؛ وإذا علمنا أنّ "إسرائيل" صادرتْ 65% من أراضي الضفّة، وأنّ مستوطناتِها ستتّسع ولن تُزال كما توهّم كلُّ جماعة "حلّ الدولتين"؛ وإذا أدركنا أنّ "قانون القوميّة" ينصّ على أنّه لن يكون في دولة "إسرائيل" حقٌّ في تقرير المصير إلّا "للشعب اليهوديّ"؛... أدركنا أنّ مَن سنّوا "قانونَ القوميّة" قد استغلّوا الظرفَ العربيّ والإقليميّ والدوليّ كي يُثبتوا دولةَ اليهود كما خطّط لها هرتسل، ضاربين عرضَ الحائط بالقرارات الدوليّة وبـ"وثيقة الاستقلال" بنصّها التكتيكيّ. وهذا هو تمامًا ما فعله أسلافُهم: إذ قبلوا قرارَ التقسيم، ثم زادوا احتلالَهم من 54% إلى 78% عام 1948، وصولًا إلى نسفهم حقَّ العودة وكلَّ المرتكزات السياسيّة التي تقف عليها الأحزابُ العربيّةُ في الكنيست، وتحويلِهم وجودَ المواطنين العرب الفلسطينيين (كما لغتهم

العربيّة) إلى أمر طارئ. وهم سيتخلّصون من هؤلاء العرب في الكنيست إذا سنحتْ ظروفٌ قادمة، أو سيهجِّرون العرب الفلسطينيين برمّتهم في ظروف كارثيّة عالميّة جديدة!

في رأيي، ورأي كثيرين في العمل السياسيّ، أنّ هذا القانون جاء تمهيدًا لضمّ الضفّة الغربيّة رسميًّا إلى دولة "إسرائيل"، ربّما في إطار "صفقة القرن".

ولذلك وضع القانونُ صيغةً جديدةً للواقع العنصريّ: إذ نقله من حالة الأبارتهايد، أيْ حكم الأقليّة على الأغلبيّة الأصلانيّة، كما كان الوضعُ في جنوب أفريقيا العنصريّة، إلى حالة حكم "الشعب السيّد" الآريّ، وذلك عبر ديمقراطيّة "الشعب السيّد". فالحال أنّ عددَ الفلسطينيين في فلسطين التاريخيّة أصبح يعادل اليوم عددَ اليهود فيها، ومسألة الأغلبيّة غير مضمونة، ما يشكّل خطرًا ديمغرافيًّا على دولة "إسرائيل" إنْ بقي بندُ "المساواة" في دولة "إسرائيل" الكبرى الحاليّة. لذلك جاء اقتصارُ بند "حقّ تقرير المصير" على اليهود فقط.

هذا السيناريو يشكّل ردًّا أيضًا على أنصار "حلّ الدولة الواحدة" الذين يتبنّوْن مشروعَ "إقناع" اليهود الإسرائيليين بالتنازل عمّا حققوه على أرض الواقع، بصرف النظر عن اسم هذه الدولة (إسرائيل أو فلسطين أو إسراطين...)، ومن خلال إقرارهم بأنّ الكفاح المسلّح الفلسطينيّ قد "فشل"، وأنّه يجب التفتيشُ عن وسائل جديدة "يقْبلها" الرأيُ العامُّ العالميّ كما حصل مع جنوب أفريقيا!

فهل يعتقد هؤلاء حقًّا أنّ "إسرائيل"، بعد ما وصلتْ إليه من ذروةٍ في القوة، ستتنازل وتقيم مع الشعب الفلسطينيّ دولةَ مساواةٍ على شاكلة جنوب أفريقيا الجديدة؟! أمْ أنّ هذا الطرح سيُدْخل شعبَنا في متاهةٍ جديدةٍ تؤدّي إلى ضياع قضيّته نهائيًّا!؟

حدود العنصريّة اليهوديّة

في هذا السياق أكرّر ما ذكرتُه أعلاه: أتوقّع ألّا تتوقّفَ الحكومةُ الفاشيّةُ عند هذا الحدّ، بل ستصل إلى مرحلةٍ تتخلّص فيها قانونيًّا من أعضاء الكنيست العرب غير الصهاينة، بشكلٍ متدرّج وفرديّ، وذلك بحسب قانون الإبعاد النهائيّ، الصادر مؤخّرًا عن الكنيست. وأضيف إنّ المجلس التشريعيّ الفلسطينيّ سيكون مقترَحًا على فلسطينيّي الداخل من قِبل "إسرائيل" نفسها. وما زلتُ أذكر، في هذا الصدد، تصريحَ وزير المواصلات الصهيونيّ، يسرائيل كاتس، في صحيفة **كلّ العرب**، قبل عدّة سنوات، حين قال إنّه مع أن يصوِّت العربُ داخل "إسرائيل" لبرلمان الحكم الذاتيّ الفلسطينيّ (المجلس التشريعيّ)، وأن يصوِّت اليهودُ وحدهم للكنيست! ولم يتم تداول هذا التصريح.

ولكي أكون موضوعيًّا، فعليّ أن أؤكّد أنّ نظريّة "النقائض المطلقة التي يغذّي بعضُها بعضًا" صحيحةٌ في هذه الحالة. فاليمينُ الفاشيّ يلعب فعلًا في ملعب الفلسطينيين الذين يؤمنون بأنّ التحرير الشامل بديلٌ من الاحتلال الشامل لأرض فلسطين التاريخيّة، وأنّه ينبغي أن تقوم على هذه الأرض دولة واحدة، هي فلسطين الديمقراطيّة، بمساواة مطلقة بين جميع مواطنيها، نقيضًا لدولة "إسرائيل" الكبرى، اليهوديّة الكولونياليّة، القائمة حاليًّا.

لم تبقَ للمجتمع الدوليّ، ولكلّ الفلسطينيين والعرب الذين قبلوا "حلَّ الدولتين" حلًّا وسطًا بين فلسطين الشاملة و"إسرائيل" الكبرى، أيّةُ مساحةٍ للمناورة. فها هي "إسرائيل" الكبرى تصفع كلَّ مَن قَبِلها، وتردُّ يدَه الممدودة، مستندةً إلى حاميتها أمريكا، وإلى ضعف العرب، وإلى نذالة القيادة الوطنيّة الفلسطينيّة العاجزة والمنسِّقة أمنيًّا مع العدوّ!

الكرة في ملعبنا

تراوحتْ ردودُ الفعل العربيّة بين الصمت، والموافقة الصامتة وبيانات رفضٍ فلسطينيّةٍ علنيّة، والتذكيرِ بتصريحات فلسطينيّة سلطويّة قديمة كانت تقول إنّ لـ "إسرائيل" الحقَّ في تعريف نفسها كما تشاء.

أمّا في الداخل الفلسطينيّ (فلسطين 48)، فقد فتحت "القائمةُ المشتركة" حربَ التضليل والتخوين، ورفعتْ شعاراتٍ ضبابيّةً كثيفةً في وجهِ كلّ مَن طالب نوّابَها بالاستقالة من الكنيست تحت عنوان: "لو انسحبنا من الكنيست فسيحلُّ مكانَنا عربُ الأحزاب الصهيونيّة.." وكأنّ الحال لم تكن كذلك منذ العام 1948 حتى يوم الأرض عام 1976، أو كأنّ العرب لم يصوّتوا للأحزاب اليهوديّة الصهيونيّة بنسبة 85%، أو كأنّ التمثيلَ غير الصهيونيّ لم يقتصرْ على 3 مقاعد للحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ حتى جاء يومُ الأرض وقلب المعادلة، فبلغ عددُ أعضاء الكنيست العرب غير الصهاينة 13 عضوًا في تلك الدورة، ونسبةُ التصويت الحقيقيّة لا تتجاوز 45%.

ومع ذلك لم يتحقّق أيُّ شيء لصالح العرب جرّاء هذا التغيير الإيجابيّ في التمثيل الكنيستيّ. بل توسّعتْ "إسرائيل"، فاحتلت ما تبقّى من فلسطين،

وصادرتْ ما تبقّى لفلسطيني الداخل من أراضٍ، وسُنّ "قانونُ القوميّة" اليهوديّة"، وقوانينُ خاصّةٌ لهدم بيوت العرب، وازداد انخراطُ المواطنين الفلسطينيين في الخدمة الوطنيّة الإسرائيليّة، وفي التجنيد الطوعيّ والإجباريّ في الجيش الصهيونيّ. والقائمة طويلة!

إنّ هذا التغيير لا يتحمّل مسؤوليتَه أعضاءُ الكنيست العرب، الذين يستميتون لخدمة القضايا اليوميّة لأبناء شعبهم مقابل التزامهم بـ "إسرائيل" "دولةً يهوديّة وديمقراطيّة"، كما يوقّعون ويُقْسمون يمينَ الولاء. المعضلة كامنة في **المجتمع** الكولونياليّ اليهوديّ الذي يزداد تطرّفًا، وينتخب قيادةً فاشيّةً لا يوجد أيُّ أفقٍ لتغييرها.

لقد وضعتْ هذه الحكومةُ فلسطينيّي الداخل من "مواطنيها"، أكثرَ من غيرهم، أمام خيارٍ تاريخيّ:

فإمّا قبولُ سيادة "الشعب السيّد" على الدولة فيكونَ العربُ حالةً استثنائيّةً فيها؛ وإمّا التمرّدُ على هذه المعادلة الجديدة، والخروجُ منها بالمطْلق، والالتحامُ بباقي قطاعات الشعب الفلسطينيّ، من أجل توحيد المصير وتوحيدِ آليّات الانتصار على هذا الكيان الغاصب لكلّ أرض فلسطين التاريخيّة.

لقد أسقط الصهاينة كلَّ معادلات "الحلّ الوسط" و"التعايش المشترك" و"المساواة داخل الدولة" ــ ــ هذه الدولة التي لم تكن يومًا أفضلَ ممّا هي عليه اليوم من حيث تعاملها مع الفلسطينيين ونظرتها إليهم.

لقد فرضوا على الشعب الفلسطينيّ، برمّته، وحدةً تحت الاحتلال، بلونيْه المدنيّ والعسكريّ، ابتداءً من حرب العام 1967، إلى أن تقوننت اليوم.

إنّ أيَّ نضال شعبيّ قانونيّ لمقاومة القانون فقط، لا يكون مرتبطًا بسحب الشرعيّة عن دولة "إسرائيل" النوويّة، ولا بسحب اعتراف كلّ الفلسطينيين بها، أكانوا في السلطة أمْ في أحزاب الداخل الكنيستيّة، لا يَخدم سوى شرعيّةِ بقاء "إسرائيل" دولةً يهوديّةً كولونياليّةً وعنصريّةً رسميّة.

فليعترفْ بها كلُّ العالم، ما عدا الشعب الفلسطينيّ. إنهم يطلبون شرعيتهم منّا كما هم، وبمجمل قوانينهم، بعد أن ضمنوا دعمَ العالم لهم عام 1948، ولم يبق إلّا استسلامنا والتسليم بأرضنا وحقّنا في تقرير المصير على أرضنا.

البديل

* على مستوى الموقف، تجب العودةُ إلى المربّع الأول من عمر النضال التحرريّ الفلسطينيّ، وأعني "الميثاق **القوميّ** الفلسطينيّ"، لا "الميثاق الوطنيّ الفسطينيّ"، كي نعيدَ إلى قضيّتنا الفلسطينيّة بعدَها الشعبيَّ العربيّ، وبُعدَها المقاومَ العربيَّ والإسلاميّ.

* إعادة انتخاب المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ على الطريقة النسبيّة من كلّ الشعب الفلسطينيّ، بما في ذلك فلسطين 48، على أساس الميثاق القوميّ الفلسطينيّ، وذلك من أجل توحيد الشعب والقيادة وآليّة النضال لتحقيق برنامج **الميثاق** ببعده العربيّ، وإعادة القضيّة الفلسطينيّة إلى منزلتها، قضيّةَ الشعوب العربيّة برمّتها، ورأسُ حربتها الشعبُ الفلسطينيّ.

* على صعيد مناطق 48 بشكل مباشر: يجب الربطُ بين محاربة القانون الجديد وسحب الشرعيّة من الدولة. فقد أعاد هذا القانونُ معادلة "أنّ فلسطين وطنُنا، و"إسرائيل" ليست دولتَنا، ومصيرنا مع شعبنا لا مع دولة اليهود". وما عدا ذلك، فإنّ أيَّ نضال يقتصر على إلغاء القانون، أو "تعديلِه" في إطار دولة اسرائيل، إنّما يؤكّد التمسّكَ بـ"إسرائيل" دولةً أبديّةً بيهوديّتها، وبـ"ديمقراطيّة الشعب السيّد" التي تحرص عليها!

وهناك خطواتٌ تمهيديّة بالإمكان القيامُ بها احتجاجًا على القانون، ومنها: انتخابُ لجنة متابعة، تكون بمثابة قيادة وطنيّة منتخبة، من دون أيّ ارتباط بمؤسّسات الدولة اليهوديّة وقوانينها، بل اعتماد النضال الشعبيّ لتحقيق حقوقنا المطلبيّة المشروعة. **فالعمل الكنيستيّ يدور في دائرة الصفر من حيث الجدوى والإنجازات على كلّ الصعد.** ومن الخطوات التمهيدية أيضًا: العملُ من أجل التكامل مع باقي قطاعات الشعب الفلسطينيّ بشكلٍ جماعيّ، لا حزبيّ فئويّ.

على النضال اليوميّ أن يتصاعد شعبيًّا من دون إذن المؤسّسة الإسرائيليّة في مختلف القضايا التي تواجهنا. فحقُّنا في العيش الكريم، والتعليم، والعمل، والتطبيب، والبناء، وإدارة شؤون بلداتنا العربية لتطويرها .... الخ، مكفولٌ أمميًّا. وهذا يستدعي صمتَ المضلِّلين، الذين يبرّرون خيارَهم المبدئيّ في العيش مع دولة اليهود ومؤسّساتها العنصريّة على حساب حقّ تقرير مصير شعبهم على كامل ترابه الوطنيّ.

في الختام أؤكّد أنّ جديد "قانون القوميّة" لا يتعدّى قوننةَ ما كان موجودً، ولم نعتبرْ مواطنتَنا في "إسرائيل" إلّا قسريّةً، وبقرار من الأمم المتحدة. وأهمُّ من كل ذلك تمسُّكُنا بأرض وطننا فلسطين، إلى أن تحين ساعةُ الخلاص الاستراتيجيّ، التي يروْنها بعيدةً ونراها قريبةً، ونستعدّ لها مع كلّ مقاومي شعبنا وأمّتنا، وبما تسمح به مكانتُنا الجيوسياسيّة ■

قراءة أولية في أخطار وأبعاد وتحديات صفقة القرن الصهيو أمريكية

عليان عليان(*)

أولًا: تمهيد: صفقة القرن لم تولد من فراغ

مشاريع التسوية الأمريكية الصهيونية لتصفية القضية الفلسطينية، لم تبدأ "بخطة ترامب" بل سبقتها بعقود كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مشروع ريجان (1982) واتفاقات أوسلو ومشتقاتها (أوسلو 1 وأوسلو 2، اتفاق الخليل، اتفاق واي ريفر) خطة خارطة الطريق، تفاهمات أنابوليس، خطة كيري المتدحرجة.

واللافت للنظر أنَّ المشاريع الصهيو أمريكية السابقة، سعت إلى تصفية القضية الفلسطينية من خلال بنود وتفاصيل محددة، وكان الوسيط الأمريكي في المفاوضات أكثر تشددًا من المفاوض الصهيوني، لدرجة دفعت الرئيس الراحل ياسر عرفات إلى القول "أسهل عليَّ بكثير أن أفاوض المسؤولين الإسرائيليين من أن أفاوض دينيس روس"- المنسق الأمريكي لعملية (السلام) في تلك الفترة.

ولا نبالغ إذ نقول، إنَّ "اتفاقات أوسلو" ومشتقاتها، والمشاريع الأمريكية اللاحقة، كانت من المنظور الصهيو - أميركي تستهدف شطب القضية الفلسطينية، في حين راهنت قيادة منظمة التحرير،على أنَّ "أوسلو" ستقود إلى دولة، لكن مجريات الأمور لم توصلها إلى نتيجة تذكر بعد مرور 27 عامًا على توقيعها.

فما تضمنته اتفاقات أوسلو ومشتقاتها من تنازلات، سهلت مهمة الكيان الصهيوني والإدارات الأمريكية، في الذهاب بعيدًا باتجاه طرح مشاريع واضحة غير مغلفة بعبارات تمويهية لتصفية القضية الفلسطينية.

ثانيًا: خلفية الصفقة وعناوينها

1. طُرِحت الصفقة لأول مرة من قبل الرئيس الأمريكي دونالد ترامب ومن العناوين الرئيسة للخطة:

- أنَّ أمريكا في إطار فهمها لمسألة الدولة الفلسطينية، تسعى لأن تضمن أمن (إسرائيل) من خلال بقاء الجيش الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية والمناطق الحدودية في غور الأردن، ولكن مع ضمان حرية التنقل والتصدير والاستيراد للفلسطينيين/ وفيما يتعلق بحل أزمة اللاجئين الفلسطينيين، "يرى الجانب الأمريكي أنَّه يجب تسوية هذه المسألة عبر منح مواطنة وحقوق كاملة للفلسطينيين في الدول التي يعيشون فيها اليوم، بينما يساهم المجتمع الدولي بتمويل التعويضات للاجئين الفلسطينيين. (نظر: موقع عربي 21، تشرين الثاني 2017، نقلًا عن صحيفة التايمز البريطانية).

وأعلنت الإدارة الأمريكية في تلك الفترة على لسان أكثر من مسؤول فيها، بأنَّ العنوان الرئيس للصفقة

(*) باحث ومحلّل سياسي - الأردن

يتمثل بنقل السفارة الأمريكية للقدس، والاعتراف بها عاصمة موحدة للكيان الصهيوني حيث تمت المباشرة بتطبيق البند الرئيس والجوهري في الصفقة، بإعلان الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" في السادس والعشرين من كانون أول (ديسمبر) 2017 قراره بنقل سفارة الولايات المتحدة إلى القدس، واعتبار القدس بشطريها عاصمة موحدة وأبدية للكيان الصهيوني.

لم تُنشر تفاصيل الصفقة على مدى أكثر من عامين، لكن المصادر الرسمية الفلسطينية والصحافة العربية والدولية والإسرائيلية، نقلت تسريبات عنها من مصادر أمريكية، كشفت عن صياغتها بشكل متدحرج ومتغير، لرصد موقف منظمة التحرير الفلسطينية، ومواقف كل من مصر والأردن وبقية الدول العربية منها، وكانت هذه التسريبات بمثابة بالون اختبار لرصد ردود الفعل الفلسطينية والعربية والبناء عليها.

والقاسم المشترك بين كل هذه النسخ المسربة يتمثل فيما يأتي:

أ- الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة وأبدية (لإسرائيل) ونقل السفارة الأمريكية إليها.

ب- أن تكون عاصمة (الدولة الفلسطينية) في ضواحي القدس الشرقية، بلدة (أبو ديس).

ت- قيام الدولة الفلسطينية مشروط بشكل رئيس بالاعتراف بيهودية الدولة وبالقدس عاصمة للكيان

الصهيوني.

ث- تصفية قضية اللاجئين وحق العودة، وتسوية هذه المسألة عبر منح مواطنة وحقوق كاملة للفلسطينيين في الدول التي يعيشون فيها اليوم، بينما يساهم المجتمع الدولي بتمويل التعويضات للاجئين الفلسطينيين.

ح- التركيز على الجانب الاقتصادي للكيان الفلسطيني في الضفة والقطاع، بعيدًا عن مسألة حق تقرير المصير والسيادة، والحديث عن مشاريع مختلفة في قطاع غزة تتعلق بتحلية المياه والطاقة الشمسية، والبنية التحتية وغيرها.

ط- التركيز على الجانب الأمني للكيان الصهيوني على حساب الكيان الفلسطيني المنتظر وسيادته على غير صعيد، وضم المستوطنات للكيان الصهيوني.

2. الحراك الدبلوماسي الأمريكي بشأن الصفقة

لقد قام "جيمس غرينبلات" و"كوشنير" لاحقًا، بجولات مكوكية في المنطقة، لإبلاغهم بعناوين الصفقة ومضامينها، وتم التركيز على الدول المضيفة للاجئين، لكي تقوم بحل أزمتهم عبر منحهم حق المواطنة الكاملة في الدول التي يعيشون فيها اليوم، وشطب صفة "اللاجئ" عنهم، وأن يساهم المجتمع الدولي بتمويل التعويضات للاجئين الفلسطينيين.

ثالثًا: صفقة القرن بصيغتها النهائية

بعد أن رصدت الإدارة الأمريكية ردود الفعل على الصفقة، وبعد أن أنجزت أجزاء كبيرة منها على الأرض فيما يتعلق بالقدس واللاجئين والاستيطان، وبتأييد قانون القومية اليهودي، وبعد أن أعطت للصفقة بعدًا إقليميًا، من خلال الاعتراف الأمريكي بسيادة (إسرائيل) على الجولان، جاء الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب"، ليعلن عن خطته في 28 كانون ثاني (يناير) 2020، في مهرجان احتفالي، بحضور رئيس وزراء العدو الصهيوني بنيامين نتنياهو.

الصفقة التي امتدت على مساحة (181) صفحة، هي حاصل جمع معظم البنود التي جرى تسريبها منذ عام 2017 وحتى مطلع العام 2020، مع تعديلات طفيفة، وذلك في سياق خطة متكاملة بمختلف الأبعاد المتعلقة بالقدس والكيان الفلسطيني (الدولة) وشروط إقامتها، وضم مساحات واسعة من الضفة الغربية، ويهودية الدولة، والجانب الاقتصادي والأمني في السياق الفلسطيني – الإسرائيلي، وفي السياق الإقليمي.

1. قراءة أولية متفحصة للصفقة

القراءة الأولية المتفحصة لهذه الصفقة، تؤكد بأنَّها تصفية جذرية للقضية الفلسطينية، وإعلان حرب على الشعب الفلسطيني، من الزوايا الآتية:

أولًا: التأكيد مجددًا على اعتبار القدس بشطريها عاصمة موحدة للكيان الصهيوني، واعتبار "بلدة أبو ديس" عاصمةً لما تسمى بالدولة الفلسطينية، وشطب حق العودة للاجئين الفلسطينيين وتوطين اللاجئين في المناطق التي يوجدون فيها، مع السماح بعودة (50) ألف لاجئ فلسطيني للدولة الفلسطينية المقترحة على مدى خمس سنوات، بواقع (5000) لاجئ كل سنة، وتعويض اليهود الذين قَدِموا (لإسرائيل) من الدول العربية عن ممتلكاتهم في تلك الدول.

ثانيًا: ضم ما يزيد عن (30) في المئة من مساحة الضفة الغربية للكيان الصهيوني، بما في ذلك ضم جميع الكتل الاستيطانية ومنطقة الغور وشمال البحر الميت، وفرض السيادة "الإسرائيلية" الكاملة

على معظم مساحة المنطقة (ج) التي جرى ترسيمها في اتفاق (أوسلو 2) عام 1995.

ثالثا: وضع شروط لقيام الدويلة الفلسطينية، بعد مرور أربع سنوات على تنفيذ الصفقة – أي بعد أن يكون العدو الصهيوني قد ضم حوالي 40 في المئة من مساحة الضفة، وأخذ فرصته الكاملة في زرع المزيد من المستوطنات في الضفة الغربية.

وهذه الشروط ذات طابع تعجيزي تصفوي، تتمثل في أن يقوم الجانب الفلسطيني الرسمي بما يأتي: الاعتراف بيهودية الدولة/ الاعتراف بالقدس بشطريها عاصمة (لإسرائيل)/ الموافقة على تقسيم المسجد الأقصى زمانيًا ومكانيًا بين العرب واليهود/ الموافقة على إلغاء حق العودة للاجئين الفلسطينيين/ القبول بعدم وجود سيادة للدولة الفلسطينية على الأرض وفي البحر والجو/ عدم وجود حدود للدولة الفلسطينية مع الأردن/ القبول بضم منطقة المثلث الفلسطينية في مناطق 1948 للدولة الفلسطينية، في إطار تبادل الأراضي، للتخلص من الديمغرافيا الفلسطينية في الكيان الصهيوني/ القبول بضم منطقة الغور وشمال البحر الميت (لإسرائيل) / أن تعلن السلطة الفلسطينية الخروج من جميع الاتفاقات والمنظمات التابعة للأمم المتحدة بما فيها المحكمة الجنائية الدولية، وأن لا تسعى للدخول لاحقًا في أي اتفاقية أو منظمة دولية إلا بموافقة إسرائيلية/ وأن تتوقف نهائيًا عن دفع رواتب لأسر الشهداء والأسرى...الخ.

فالصفقة، وفق تفاصيلها وخرائطها المطروحة، تختصر الضفة الغربية في محمية صغيرة على أقل من 11 في المئة فلسطين التاريخية، وتجعل من الدويلة المطروحة مجرد "محمية سكانية" على بقعة جغرافية صغيرة، تكون بمثابة أرخبيل محاط بالمستوطنات الاسرائيلية، لا تتصل مدنها بتواصل جغرافي، سوى بأنفاق وجسور مفاتيحها بيد حكومة العدو الصهيوني.

2. أبرز نصوص الصفقة وما تتضمنه من أخطار

ما تقدم من شروط لإقامة "الدولة الفلسطينية"، وردت في نصوص الصفقة الخاصة بمختلف الأقسام والخرائط المفاهيمية، والتي تكشف مدى الأخطار ذات البعد التصفوي للقضية الفلسطينية، بحيث نكون أمام مسمى "دولة"، مجردة من كل الشروط السيادية الأمنية منها والاقتصادية، مع ملاحظة قضية أساسية، وهي أنَّ أمن الكيان الصهيوني موجود في كل النصوص المتعلقة بالدولة والحدود والقدس واللاجئين..ألخ، ممايجعل من الدولة الفلسطينية المنتظرة وفق الشروط سالفة الذكر، مجرد كيان وظيفي في خدمة الأمن الإسرائيلي، مجرد مجال حيوي للكيان الصهيوني، في سياق دوره في مشروع الشرق الأوسط بشقيه الأمريكي والإسرائيلي.

وإذا تأملنا مليًا بتفاصيل العناوين والأقسام التي انطوت عليها الصفقة (الرؤية) نرى الأخطار التي انطوت عليها على نحو:

1. تحت عنوان **(مسألة الأرض وتقرير المصير والسيادة – القسم الأول)** تعتبر الصفقة أراضي الضفة الغربية ملكًا تاريخيًا لليهود وأجدادهم، وأنَّ منح الفلسطينيين كيانًا على جزء من هذه الأرض، بمثابة كرم وتنازل من (إسرائيل).

2. وتحت عنوان **(حل الدولتين يتصف الواقعية – القسم الأول)** تشترط الصفقة لقيام الدولة الفلسطينية، أن تكون مسؤولية الأمن فيها بيد (اسرائيل) ومقايضة السيادة الحقيقية لهذه الدولة بالازدهار الاقتصادي الموعود.

انظر النص الآتي: "إنَّ المبادئ المنصوص عليها في هذه الرؤية، من أجل السلام الازدهار ومستقبل أكثر إشراقًا، مصممة على نحو يضمن مصلحة الفلسطينيين والاسرائيليين والمنطقة ككل، وتتعامل هذه الرؤية مع الوقائع الراهنة، وتوفر للفلسطينيين الذين ليس لهم دولة بعد سبيلًا إلى حياة وطنية وكريمة، وتضمن لهم الاحترام والأمن والفرص الاقتصادية، فضلًا عن أنَّها تضمن أمن (إسرائيل) في الوقت نفسه".

"الحل الواقعي يمنح الفلسطينيين كل المقدرات ليحكموا أنفسهم ، لكن ليس الصلاحيات التي تمكنهم من تهديد "إسرائيل"، ويستلزم هذا بالضرورة تقييد بعض الصلاحيات السيادية في المناطق الفلسطينية (المشار إليها من هنا فصاعدًا باسم الدولة الفلسطينية) مثل الحفاظ على المسؤولية الأمنية الإسرائيلية، والسيطرة "الإسرائيلية" على المجال الجوي غرب غور الأردن وتقدم هذه الرؤية حلًا واقعيًا لحل الدولتين، حيث تعيش دولة فلسطين الآمنة المزدهرة بجانب دولة (إسرائيل) الآمنة المزدهرة، في منطقة آمنة ومزدهرة".

3. وتحت نفس العنوان **(حل الدولتين يتصف الواقعية – القسم الأول)** تطالب الصفقة بنبذ كل أشكال المقاومة والاعتراف (بإسرائيل) "بصفتها الدولة اليهودية - يهودية الدولة"، وما يترتب على ذلك من أخطار على نحو: محو صفة المواطنة عن الفلسطيني في مناطق 1948 ما يفسح المجال لاحتمالات الترانسفير، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار قانون القومية اليهودي الذي جرى إقراره في الكنيست الإسرائيلي.

4. وتحت بند وعنوان (الحدود - القسم الرابع)

- لا ترى الصفقة أنَّ (إسرائيل) ملزمة بالانسحاب بالكامل من الضفة الغربية، وتؤكد على تبادلية الأراضي، لإخراج جزءٍ كبيرٍ من الفلسطينيين من الكيان الصهيوني، للتخلص من الديمغرافيا الفلسطينية. انظر النص الآتي: "تدرس الأطراف في سياق تبادلية الأراضي ضم منطقة المثلث (كفر قرع وعرعرة وباقة الغربية وأم الفحم وقلنسوة والطيبة وكفر قسم والطيرة وكفر برعم وجلجولية، التي تعطي نفسها الهوية الفلسطينية، إلى دولة فلسطين".

- تحصل (إسرائيل) على حدود آمنة ومعترف بها، ولن تضطر إلى اقتلاع أي من المستوطنات التي يجب ضمها لها.

- ضم غور الأردن: وفق النص الآتي: "يخضع غور الأردن- الذي يعتبر مهمًّا لحماية أمن (إسرائيل) القومي- للسيادة الإسرائيلية، وأن تتفاوض الحكومة الفلسطينية على اتفاق مع (إسرائيل) تستمر بموجبه الشركات الزراعية الفلسطينية بعملها، دون عرقلة أو تمييز، وذلك بموجب تراخيص أو عقود إيجار مناسبة، تمنحها لهم دولة إسرائيل/ ويتم بناء طريقي وصول لمصلحة دولة فلسطين، وكلاهما يخضعان للمتطلبات الأمنية (لإسرائيل)، ويسمحان بعبور غور الأردن إلى المعبر الحدودي للملكة الأردنية الهاشمية.(ملاحظة: وهذا النص يعني أن لا تكون حدود لدولة فلسطين مع الأردن).

5. الاقتصاد:

لقد عالجت الصفقة الموضوع الاقتصادي في (القسم رقم 1) تحت عنوانين هما: "رؤية اقتصادية لمستقبل مزدهر"، "وفرص التعاون الإقليمي" وفي أقسام أخرى تحت أكثر من عنوان، مع إضافة نص يتعلق بقطاع غزة حول "تخصيص أراضٍ إسرائيلية

للفلسطينيين، ويمكن أن تُبنى فيها بنى أساسية بشكل سريع من أجل تلبية الحاجات الإنسانية الملحَّة في غزة، لكن لن تنجز أي تحسينات واستثمارات في قطاع غزة، ولن تحل قضايا البطالة المتفشية والفقر المستشري، والنقص الشديد في الكهرباء ومياه الشرب...الخ. قبل أن يتوقف إطلاق النار مع (إسرائيل)، وينزع سلاح غزة الذي تسيطر عليه حركة حماس".

يضاف إلى ذلك فقرات وردت في أكثر من قسم، تتحدث عن الازدهار الاقتصادي في الإقليم في حال توفر الشروط السابقة لقيام الدولة الفلسطينية، في إيماءة لمشروع الشرق الأوسط الذي سبق وأن طرحه رئيس وزراء الكيان الصهيوني الأسبق شيمون بيرز.

6. القدس: فيما يتعلق بالقدس فقد تضمنت الصفقة في (القسم الثاني- والقسم الخامس) ديباجة تتحدث عن خصوصية الحق التاريخي لليهود في القدس!! وعن إمكانية وصول أتباع الديانات الثلاثة إلى الأماكن المقدسة، وأنَّ (إسرائيل) كانت خير وصيٍّ على القدس منذ عام 1967، لتصل إلى تثبيت "أنَّ القدس عاصمة موحدة وأبدية للكيان الصهيوني".

7. مسألة اللاجئين (القسم الثاني)

تدمج الصفقة ما بين اللاجئين الفلسطينيين ومن أسمتهم باللاجئين اليهود- زورًا وبهتانًا- حين تشير في نصها: "بأنَّ الصراع العربي – الإسرائيلي، تسبب في مشكلة لجوء اليهود، كما تسبب في لجوء الفلسطينيين"، زاعمةً بأنَّه جرى طرد عدد مماثل من اليهود من الدول العربية بعد فترة وجيزة من قيام دولة (إسرائيل)، وفي ذلك تعمية وتجاهل مقصود لحقيقة أنَّ اليهود لم يهجروا من البلدان العربية، بل جرى ترحيلهم إلى (إسرائيل) من قبل أجهزة الأمن الصهيونية، وكانوا قبل ذلك يعاملون كمواطنين لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات.

وتطالب الصفقة، بتطبيق حل عادل لهؤلاء اللاجئين اليهود، من خلال آلية دولية مناسبة ومنفصلة عن اتفاق السلام الفلسطيني الإسرائيلي، وفي ذات الوقت تتجاهل وتنكر حق اللاجئين الفلسطينيين، في العودة إلى أراضيهم وممتلكاتهم وفقًا للقرار 194، وتتحدث بكلام مبهم حول "ضرورة إيجاد حل عادل ومنصف وواقعي لمسألة اللاجئين الفلسطينيين من أجل وضع حد للصراع الفلسطيني الإسرائيلي"، وسبق أن أفصحت الإدارة الأمريكية عن توطين اللاجئين في الدول العربية المضيفة، ومنحهم جنسياتها بعد نزع صفة "اللاجئ" عنهم وتوطين عدد قليل جدًا منهم في دولة فلسطين.

8. الأمن (القسم السابع)

لقد تضمنت الصفقة في مجال الأمن (القسم السابع) بنودًا غاية في الخطورة تحوِّل الدولة الفلسطينية، إلى أداة أمنية لمحاربة المقاومة في فلسطين وفي عموم المنطقة، ومن هذه البنود:

1. الأمن في دولة فلسطين بيد (إسرائيل) وفق النص الآتي: "عند توقيع اتفاق السلام الإسرائيلي الفلسطيني، ستحافظ (إسرائيل) على تحمل المسؤولية الأمنية، في عموم دولة فلسطين، مع تطلع إلى تحميل الفلسطينيين أكبر قدر من ممكن من المسؤولية عن أمنهم الداخلي.

2. تكون دولة فلسطين منزوعة السلاح بالكامل وتبقى كذلك- (المرفق 2 سي من الصفقة) – وعلى أن تحتفظ دولة (إسرائيل) بمحطة واحدة للإنذار المبكر في دولة فلسطين على النحو المحدد في الخريطة المفاهيمية.

3. دولة فلسطين تلتزم بمكافحة الإرهاب (المقاومة)

على أرضها ومنع الهجمات الإرهابية ضد دولة (إسرائيل) والمملكة الأردنية الهاشمية وجمهورية مصر العربية، ومكافحة الإرهاب في إطار العمل مع الأردن ومصر، حسب مقتضيات القضاء وحماية المسؤولين الحكوميين وكبار الشخصيات الأجنبية والاستجابة للكوارث.

4. توصي الولايات المتحدة بإنشاء لجنة أمنية إقليمية (RSC) تكون مهمتها مراجعة السياسات والتنسيق الإقليميين لمكافحة الإرهاب، ولإنشاء وضع مثالي، سوف تضم اللجنة ممثلين أمنيين من الولايات المتحدة، ودولة (إسرائيل)،ودولة فلسطين والأردن ومصر والسعودية والإمارات.

رابعًا: في مواجهة أهداف الصفقة... ما العمل؟

1. أهداف الصفقة

في ضوء ما تقدم من استعراض لأبرز بنود الصفقة، يمكن تحديد الأهداف المتوخاة منها وأبرزها:

أ- تصفية القضية الفلسطينية وفقًا للشروط الصهيو-أمريكية على قاعدة تجاهل مطلق للحقوق والثوابت الفلسطينية.

ب- إسقاط مشروع "حل الدولتين"، وحصر الحقوق الفلسطينية في السياق التسووي في كيان وظيفي تحت مسمى (دولة)، بمهام أمنية في خدمة الاحتلال وفي خدمة المشروع الأمريكي في عموم المنطقة، على أن تكون عاصمته خارج القدس (أبوديس).

ت- تجاهل جوهر وحقيقة الصراع، بين الأمة العربية والمشروع الصهيوني (الكيان الصهيوني) بوصفه صراع وجود، وغير قابل للتسويات، بحكم طبيعته الكولونيالية الاستيطانية والإجلائية، وبحكم استهدافه لوحدة الأمة والأرض والإنسان.

ث- شطب "مبدأ الأرض مقابل السلام" الذي عمل النظام العربي الرسمي على تسويقه منذ قمة بيروت 2002.

2. ما العمل في مواجهة صفقة القرن؟

حسنًا أنْ أعلنت قيادة المنظمة وجميع الفصائل الفلسطينية رفضها "للصفقة"، وحسنًا أنْ حدَّد الأردن موقفًا متقدمًا منها بشأن اعتبار القدس خطًا أحمر، ورفض خطة الضم وتأكيد الأردن على ثوابت موقفه من القضية الفلسطينية، التي تتجاهلها صفقة القرن، لكن تفاصيل الصفقة الخطيرة تستدعي في السياق الاستراتيجي طرح مهام وعناوين محددة، لا يتسع المجال لذكرها بشكل مفصل، ومن من بينها:

1. إعادة الاعتبار لطبيعة الصراع مع العدو الصهيوني، بأنَّه صراع وجود وليس صراع حدود وأنَّ سمة الصراع تناحرية بامتياز.

2. التأكيد على البعد القومي العربي المركزي للقضية الفلسطينية.

3. إعادة الاعتبار لثقافة المقاومة وللمقاومة بكل أشكالها، وتفعيل حركات مقاومة التطبيع باتجاه اشتقاق مهام عملية لها.

4. إعادة الاعتبار للوحدة الوطنية الفلسطينية، على قاعدة استراتيجية المقاومة، وإعادة الاعتبار للميثاق الفلسطيني، الذي جرى حذف المواد الأساسية منه، فيه في دورة المجلس الوطني في غزة عام 1996.

5. رفع درجة التنسيق بين منظمة التحرير والأردن، في مواجهة الصفقة وقرار الضم الإسرائيلي لمنطقة الأغوار وشمال البحر الميت، وإقامة أوثق التحالفات مع الأنظمة والقوى الشعبية العربية الرافضة للصفقة، في إطار جبهة قومية عريضة وموسعة ■

مشاريع تسوية القضية الفلسطينية.. سراب يتبدّد من المشروع الصهيوني حتى صفقة القرن

أسعد العزوني(*)

أولًا- المشروع الصهيوني

استند المشروع الصهيوني لبناء "إسرائيل الكبرى- مملكة داوود "في فلسطين على ثلاث ركائز هي: الأيديولوجية التوراتية، الأطماع الاستعمارية الغربية والضرورات الحياتية.

في 2 نوفمبر/تشرين ثاني 1917 نجحت الصهيونية في استصدار وعد بلفور من بريطانيا، قضى بإعطاء فلسطين وطنًا قوميًّا لليهود، وبعد ذلك هيأت بريطانيا فلسطين للصهاينة لإقامة كيانهم فيها[1].

بعد انتهاء الحرب الكونية الأولى 11 نوفمبر/تشرين ثاني 1918، بدأت موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بحجة أنَّها أرض العسل واللبن وأنَّها أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وقام الإقطاعيون العرب ببيع ممتلكاتهم للوكالة اليهودية.

ثانيًا: مشروع التقسيم رقم 1947-181

بعد أن وضعت الحرب الكونية الثانية أوزارها عام 1945 بدأت خطوات المشروع الصهيوني تتضح على المستوى الدولي وفي مسرح الأمم المتحدة، إذ أصدرت الحمعية العامة التابعة لهيئة الأمم المتحدة قرار التقسيم رقم 181 في 29 نوفمبر/ تشرين ثاني1947 "33 مع، 13 ضد و 10 ممتنع"، ودعا إلى تقسيم فلسطين إلى ثلاثة كيانات هي: دولة عربية مساحتها 4,300 ميل مربع "11,000 كم مربع من أرض فلسطين دولة يهودية: مساحتها 5,700 ميل مربع 15,000 كم مربع، والقدس ومدينة بيت لحم والأراضي المجاورة، وهو أول مشروع للأمم المتحدة لحل قضية فلسطين، وأوصت بريطانيا الانتدابية بقبول قرار التقسيم[4]. الذي تجالهته "إسرائيل" ورفضه الفلسطينيون[5].

ثالثا: كونفدرالية مع الأردن

هذا المشروع قديم جديد، ويتضمن العديد من الأطروحات التي ناقشها المبعوث الأممي الكونت برنادوت إلى فلسطين عام 1948، مع زعماء المنطقة آنذاك، ومن هذه المشاريع خطة آلون ومشروع المملكة المتحدة، وكلها تهدف إلى دمج الأشلاء المتبقية من فلسطين مع الأردن.

كان أول من دعا لفكرة الكونفدرالية الأردنية – الفلسطينية هو المبعوث الأممي برنادوت، لكن رئيس الوزراء المصري آنذاك النقراشي باشا كان في لقاءاته مع برنادوت، يعارض فكرة إلحاق الدولة الفلسطينية المقترحة في مشروع التقسيم لأي دولة في المنطقة، ويتوجب أن تبقى فلسطين كلها موحدة

(*) باحث ومحلّل سياسي - الأردن

ومستقلة حتى إنَّه كان يمانع قيام دولة يهودية[6].
وحاول برنادوت إقناع قادة اليهود بالانضمام لكونفدرالية شرق أوسطية بسبب إستحالة عيشهم بصورة دائمة في محيط معاد، ولم يتمكن من ذلك فنصحه البعض بوجوب إلحاق دولة فلسطين العربية مع الأردن بقيادة الملك عبد الله الأول[7].
لكن الزعماء العرب رفضوا الفكرة لأن فلسطين سيتم تقسيمها بين اليهود والأردن[8].
اقترح برنادوت ضم القدس إلى الدولة العربية في فلسطين، لكن اليهود رفضوا هذا الإقتراح وبشدة،

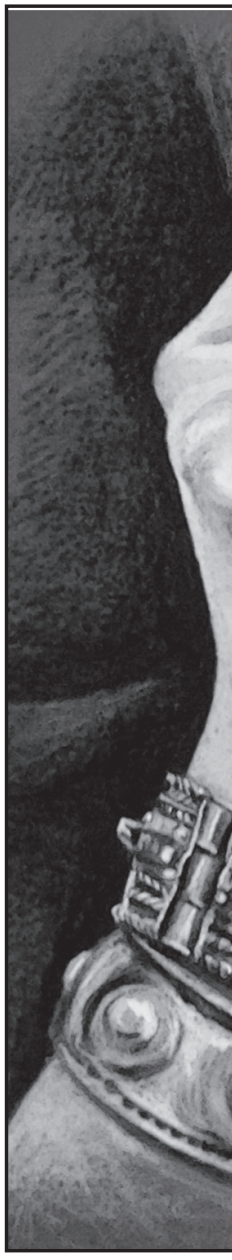

فاقترح برنادوت جعلها منطقة منزوعة السلاح، إلَّا أنَّ وزير خارجية "إسرائيل" آنذاك موشيه شرتوك والحاكم العسكري اليهودي للقدس جوزيف لم يوافقا على هذا الاقتراح[9].

ورد في خطة برنادوت الثانية للسلام توصية بشأن إمكانية اتحاد القسم العربي من فلسطين مع شرق الأردن، مع تعديلات حدودية مع الدول العربية المجاورة مثل مصر[10].

وشكلت الجامعة العربية حكومة عموم فلسطين، برئاسة المفتي الحاج أمين الحسيني في قطاع غزة في 23 نيسان 1948، وحظيت باعتراف كل من مصر، سوريا، العراق، لبنان والسعودية، ولم يعترف بها الأردن، وعُقد مؤتمر فلسطيني في أريحا وتم إعلان الملك عبد الله الأول ملكًا على فلسطين، وجرى توحيد الضفتين في حزيران 1949 تحت الحكم الهاشمي، ونجم عن ذلك انقسام عربي[11].

رابعًا- مشاريع التصفية بعد حرب حزيران 1967

شهدت هذه الفترة طرح العديد من المشاريع التي أظهرت العجز العربي مقابل التعنت الإسرائيلي وهي

1. قرار مجلس الأمن 1967-242 المجحف بحق الفلسطينيين لأنَّه أهمل القدس[12].

2. مشروعا روجرز، 1969 - 1970 وتضمَّنا دعوات للانسحاب الإسرائيلي مقابل اعتراف عربي بإسرائيل وتأمين الدخول للقدس[13]. وبعد ذلك قبل الرئيس عبد الناصر عام 1970 وقف إطلاق النار وتلميح غولدمائير بقبول القرار 242 [14].

3. مشروع أمريكا اللاتينية 1967 وتقدمت به 20 دولة تمحور حول الانسحاب الإسرائيلي وإنهاء حالة الحرب القائمة[15].

4. مشروع يغئال آلون 1967 ويتعلق بالجولان وسيناء وطالب بأن يكون نهر الأردن هو حدود "إسرائيل" الشرقية، وضم ما بين 15-10 كم من أراضي الأغوار لإسرائيل، إضافة إلى عدة كيلومترات من شمال القدس حتى البحر الميت[16].

5. مشروع أبا إيبان 1968

ألقى وزير خارجية "إسرائيل" خطابًا أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في 1968-10-8، ركز فيه على المفاوضات والتوصل لمعاهدة سلمية مع العرب، والتوصل لحدود دائمة[17].

6. مشروع تيتو 1968 الذي أكد أنَّ الحل في واشنطن، وطالب "إسرائيل" بالانسحاب وإقامة مناطق منزوعة السلاح[18].

7. مشروع حزب مبام للسلام 1967 الذي دعا لحل الدولتين، وعدم الانسحاب الإسرائيلي قبل تأمين تسوية سلمية مع العرب، وبقاء "إسرائيل" موحدة وعدم إعادة الجولان، وعدم إعادة غزة لمصر، وعودة الضفة للأردن بعد نزع سلاحها[19].:

8. مشروعا السادات 1970و 1972

طرح الرئيس المصري أنور السادات مشروعًا جديدًا للسلام في 1970-12-28 تضمن انسحاب "إسرائيل" واعتراف مصر بها وعقد مفاوضات معها وحق مرور السفن عبر قناة السويس.

وفي 1971-2-26 طرحت مصر أيضًا مشروعًا جزئيًّا للسلام دعا فيه السادات إلى الانسحاب الإسرائيلي وتمديد وقف النار وضمان عقد معاهدة مصرية – إسرائيلية[20].

9. مشروع غولدا مائير 1971 المضاد لمشاريع السادات، وطالبت بنزع سلاح سيناء واحتفاظ "إسرائيل" بشرم الشيخ وبقاء القدس موحدة وعدم

عودة غزة لمصر والاحتفاظ بالجولان[21].

خامسًا: مشاريع التصفية بعد حرب رمضان 1973

1. مشروع السادات 1973 الذي تضمن وقف النار مقابل الانسحاب الإسرائيلي والاستعداد لحضور مؤتمر دولي للسلام، وفتح قناةالسويس[22].

2. مشروع كيسنجر- بريجينيف المشترك 1973

أثناء اندلاع حرب رمضان 1973 اتفق وزيرا خارجية أمريكا كيسنجر والاتحاد السوفييتي بريجينف خلال زيارة كيسنجر إلى موسكو، على إصدار مشروع قرار مشترك إلى مجلس الأمن يطالب بوقف إطلاق النار في 22-10-1973، وحظي هذا المشروع بموافقة أعضاء مجلس الأمن وإمتناع الصين عن التصويت، ونص على وقف فوري لإطلاق النار وتنفيذ القرار 242 والشروع في المفاوضات[23].

وحظي القرار بموافقة سوريا ومصر وإسرائيل والأردن وتعهدت بالالتزام به، بيد إن "إسرائيل" رفضته وقامت بالاستيلاء على أراض جديدة.

3. قرار مجلس الأمن رقم 339

تضمن هذا القرار تجديد الدعوة لوقف إطلاق النار وإرسال مراقبين دوليين[24].

وتباينت المواقف العربية من هذا المشروع، إذ رفضته اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، بينما قبلته إسرائيل1973، شرط استجابة مصر له، دون استجابة سوريا[25].

4. مؤتمر جنيف 1973

عُقِد هذا المؤتمر يوم 21-12-1973في مدينة جنيف، وتضمنت جولته الأولى ثلاث جلسات كان آخرها يوم 22-12-1973، بدون مشاركة أي وفد فلسطيني، كما تم رفض مشاركة أوروبا بمن فيها بريطانيا[26].

5. مشروع ألون 1974

خلال زيارة وزير خارجية "إسرائيل" يغئال ألون إلى الأمم المتحدة، تحدث معه وزير خارجية أمريكا هنري كيسنجر عن إمكانية إنسحاب "إسرائيل" إلى ممرات المتلى والجدي ومن حقول النفط في أبو رديس، لكن ألون اعترض على ذلك وقدم مشروعًا جديدًا إلى الحكومة الأمريكية تضمن فتح قناة السويس للسفن الإسرائيلية، ووقف مصر للحرب الدعائية وتوقيع اتفاق مصري إسرائيلي[27].

6. مشروع ألون 1976

ورد هذا المشروع في دراسة بعنوان: "إسرائيل-حدود دفاعية"، نشرها ألون في مجلة "فورين أفيرز" في شهر أيلول 1976، واعتبر تكملة لمشروعه الأول الذي تحدثنا عنه سابقًا[27].

7. مشروع بيغين 1977

إبَّان زيارته إلى واشنطن في 15 تموز 1977، ناقش رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك مناحيم بيغين مع الرئيس الأمريكي جيمي كارتر مشروعًا سريًّا للسلام تضمن مشاركة الفلسطينيين في مؤتمر جنيف وإجراء مفاوضات غير مشروطة والتوصل لسلام نهائي[29]، وفي خطاب ألقاه أمام الكنسيت في 28-12-1977 دعا بيغين إلى إلغاء الحكم العسكري في الضفة وغزة وإقامة حكم ذاتي للفلسطينيين فيهما[30]:

8. زيارة السادات للقدس 1977

بعد انتهاء حرب رمضان "النصر –الهزيمة" طرأت أمور دراماتيكية عدة على القضية الفلسطينية، أبرزها زيارة الرئيس المصري أنور السادات إلى القدس في 17-11-1977، وإلقاؤه خطابًا أمام الكنيست تعهد فيه أن تكون حرب رمضان آخر الحروب[31].

واستمرت المفاوضات المصرية – الإسرائيلية، ونجم عنها معاهدة كامب ديفيد في 17-11-1978، ونصت

على وقف إطلاق النار وفتح الممرات المائية، وإنهاء المقاطعة، وفتح الحدود، وإقامة علاقات طبيعية، ونزع سلاح سيناء، وتسوية سريعة لقضية اللاجئين الفلسطينيين، وانسحابات إسرائيلية من الضفة الفلسطينية.

قدمت واشنطن بدورها العديد من المقترحات لتعزيز هذه المعاهدة تضمنت الاعتراف الدبلوماسي الصريح وتحديد نهائي لوضع الضفة والقدس وتطبيق القرار 242 [32].

سادسًا - دولة إسراطين-القذافي 2000

طرح العقيد القذافي في العام 2000 وفي كتابه الشهير"الكتاب الأبيض"، مشروعًا غريبًا من نوعه أثار إستهجان الجميع، وأسماه "إسراطين"، وهو مشتق من اسمي "إسرائيل" وفلسطين، داعيًا الطرفين إلى الإسراع في تنفيذ المشروع[33].

ويقال إنَّ القذافي اقتبس هذه الفكرة والاسم من شخص فلسطيني اسمه أنطون يعقوب إبراهيم الأعمى "أبو جمال" الذي قدم هذا المقترح عام 1937 باسم "أسبرا نطين[35].

سابعًا: مشروع الملك فهد 1982

بدأ الحديث عن هذا المشروع عام 1981، عندما كان الملك فهد وليًّا لعهد السعودية، وطرحه أول مرة في قمة فاس الأولى في 25-11-1981، لكن سوريا رفضته، فتقرر تأجيل القمة إلى وقت لاحق وفي نفس المكان أيضًا [36].

جرى إقرار المشروع في قمة فاس الثانية التي عقدت يوم 9-6-1982 بمشاركة 19 دولة عربية، وتغيبت عنها مصر وليبيا، ونص المشروع على انسحاب "إسرائيل" من أراضي 67 وإزالة المستدمرات ـوضمان حرية العبادة للجميع، ووضع الضفة وغزة مؤقتًا تحت الإنتداب الدولي[37].

ثامنًا: مبادرة السلام العربية – الملك عبد الله بن عبد العزيز - 2002

قال الملك السعودي عبد الله بن عبد العزيز أنَّ الكاتب الشهير توماس فريدمان، سرق المبادرة من مكتبه وكتب عنها، مع إنَّها في حقيقة الأمر استكمال لمشروع أخيه الملك فهد، وفرضها الملك عبد الله بن عبدالعزيز على قمة بيروت العربية عام 2002، لكن الرئيس اللبناني آنذاك إميل لحود تحفظ عليها لخلوها من حق العودة، ورفضها شارون واحتل ثماني مدن فلسطينية وحاصر عرفات في المقاطعة[38].

تاسعًا: حل الدولتين

بعد هزيمة العرب في حرب حزيران 1967، بدأ الحديث يتجدد عن حل الدولتين، وباتوا يطالبون بدولة فلسطينية مستقلة على حدود الرابع من حزيران 1967 في الضفة وغزة[39].

عاشًرا: خطة كيري

كتب جوليان بورغر مقالًا في صحيفة الغارديان البريطانية، وصف فيه خطة كيري للسلام، بأنَّها تكرار في فحواها وتوقيتها لخطة الرئيس الأسبق بيل كلينتون أواخر العام 2000، والتي قدم بعض مبادئها التي يمكن أن يقوم عليها حل الدولتين، وتناول قضايا الحل النهائي "القدس، اللاجئون، المياه، الحدود، المستدمرات، والتبادلية" [40]. وكان كيري ينوي إلقاء خطابه عام 1998، لكن البيت

الأبيض حال دون ذلك خشية إغضاب نتنياهو[41].

حادي عشر: صفقة القرن - 2018

منذ مجيء ترمب رئيسًا للبيت الأبيض، بدأ الحديث عن صفقة القرن، التي تهدف إلى شطب القضية الفلسطينية لصالح الصهاينة، كما تهدف إلى إقامة "إسرائيل" الكبرى، وتبديل النظام العربي من دول سايكس بيكو إلى نظام عربي جديد، نتاج مشروع الشرق الأوسط الكبير، بمعنى تجزئة المجزأ، وخلق 43 كيانًا عربيًّا عرقيًّا وإثنيًّا[42].

ترمب يعلن بنود صفقة القرن

في الثامن والعشرين من شهر كانون ثاني 2020، أعلن ترمب بحضور نتنياهو بنود صفقة القرن النهائية التي نصت على أن تكون أبو ديس عاصمة الدولة الفلسطينية وتفكيك سلاح المقاومة والإعتراف بالدولة اليهودية[44] ■

الهوامش:

(1) أخبار العرب- أحمد خليل- المشروع الصهيوني في فلسطين26/12/2003-

(2) دنيا الوطن-من الذي باع أراضي فلسطين لليهود؟ سمسار إسرائيلي يؤرخ ويروي الأسماء19/5/2012-

(3) ويكيبيديا

(4) مؤسسة الدراسات الفلسطينية-المجلد الأول 1947-1974

(5) تايمز أوف إسرائيل-رفائيل أهارين1/12/2017-

(6) مهمة الكونت برنادوت إلى فلسطين 1948 –صفحة 115

(7) المصدر ذاته صفحة 123-124

(8) المصدر ذاته صفحة 132-133

(9) المصدر ذاته صفحة 157

(10) المصدر ذاته صفحة 175

(11) المصدر ذاته صفحة 182

(12) صحيفة جعفر الخابوري المستقلة-مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية بعد حرب يونيو 1967-27/10/2010

(13) المصدر ذاته

(14) المصدر ذاته

(15) المصدر ذاته

(16) المصدر ذاته

(17) المصدر ذاته

(18) المصدر ذاته

(19) المصدر ذاته

(20) المصدر ذاته

(21) المصدر ذاته

(22) دنيا الوطن-محسن الخازندار8/11/2009-

(23) المصدر ذاته

(24) المصدر ذاته

(25) المصدر ذاته

(26) المصدر ذاته

(27) المصدر ذاته

(28) المصدر ذاته

(29) المصدر ذاته

(30) المصدر ذاته

(31) المصدر ذاته

(32) المصدر ذاته

(33) هسبريس-المغرب23/1/2000-

(34) الكتاب الأبيض –العقيد القذافي2000-

(35) عدنان مسلم-كتاب صفحات مطوية من تاريخ فلسطين في القرن العشرين

(36) الجزيرة 3/10/2004-

(37) ملفات القمة العربية –فاس1982-

(38) وكالة وفا الفلسطيني للأنباء 29/3- /2007

(39) موسوعة الجزيرة30/12/2016-

(40) الغارديان البريطانية +البي بي سي عربي 16/12/2000-

(41) المصدر ذاته

(42) سبوتنيك عربي29/12/2016-

(43) الإعلام الأمريكي-متابعات-آذار 2019

(44) متابعات كانون ثاني 2020

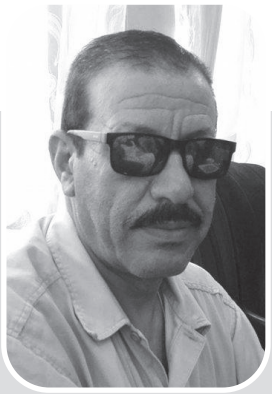

نضال المرأة الفلسطينية ضد الاحتلال خلال القرن التاسع عشر

د. سعيد سلمان الخواجا(*)

شهد العام 1917 وثيقة من أغرب الوثائق الدولية على مر العصور، حين بعث آرثر بلفور وزير الخارجية البريطاني الذي كان يدعم ويعمل بحماس لصالح الصهيونية، إلى اللورد روتشيلد، رسالة محتواها: "إنَّ حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل أفضل مساعيها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يُفهم جليًّا أنَّه لن يُسمح بأيِّ إجراء يُلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها المجتمعات غير اليهودية القائمة في فلسطين، ولا بالحقوق أو بالمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى".

وقبل ذلك التاريخ (في سنة 1893)، دخلت المرأة الفلسطينية الحياة السياسية حينما قامت بأول مظاهرة احتجاجية ضد إقامة مستوطنة اسرائيلية في قرية العفولة الفلسطينية. كما جاءت أولى احتجاجات المرأة الفلسطينية بالنشاطات والممارسات غير العنيفة لمواجهة الاستعمار البريطاني. وضمن هذا السياق، فقد شكلت مجموعة من النساء لجان إسعاف ولجانًا لجمع التبرعات للمقاتلين الفلسطينيين الذين كانت ترسلها الهيئات القومية آنذاك للدفاع عن الوطن، كما شاركت المرأة الفلسطينية بشكل فعال في مختلف النشاطات والفعاليات الوطنية والسياسية والإعلامية حيث تم تشكيل الجمعيات النسائية الأهلية وخرجت مظاهرات كبيرة في القدس وعدد من المدن الفلسطينية ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وفي بداية العشرينيات قامت النساء الفلسطينيات بـإرسال العرائض الاحتجاجية إلى البرلمان البريطاني ضدّ السياسة البريطانية والصهيونية، وفي عام 1921 تأسس "الاتحاد النسائي العربي"، وهو أول اتحاد نسائي فلسطيني بمبادرة من زليخة الشهابي وإيميليا السكاكيني، وتم تشكيل عدة لجان لمناهضة الاستعمار البريطاني وللحدِّ من تمدُّد الإستيطان الصهيوني على الأراضي الفلسطينية إذ إنَّ هذه اللجان طالبت الرأي العام بتأييد الشعب الفلسطيني، كما قام الاتحاد النسائي الفلسطيني بإرسال برقية لوم إلى الحركة النسائية في مصر تقول: "أتتركوننا وحدنا وفيكم لسان يتكلم وقلب ينبض؟ أتتهود الأرض المقدسة وفي مصر ملايين المسلمين؟"

وفي عام 1928 أُسِّست "جمعية السيدات العربيات" والتي كان من بين أعضائها زهية النشاشيبي وخديجة الحسيني وطرب عبد الهادي ونعمت العلمي (رئيسة الجمعية) وزكية البديري ووحيدة الخالدي، وذلك بهدف تنظيم المشاركة الفلسطينية العامة في حركات

(*) باحث ومترجم - الأردن

النضال وضمان نجاح كل أشكال المقاومة والاحتجاج. وفي 26 من شهر تشرين الأول سنة 1929م، ولأول مرة في تاريخ فلسطين تم عقد "مؤتمر النساء الفلسطينيات العربيات في القدس"، وذلك بمبادرة من النساء الفلسطينيات، حضرته 300 سيدة فلسطينية من القدس ويافا وحيفا وعكا وصفد ونابلس ورام الله وجنين وغيرها، وكانت معظم المشتركات ينتمين إلى الأسر الفلسطينية البارزة وأبرزهن زوجات الزعماء السياسيين، وتم انتخاب عقيلة موسى كاظم الحسيني رئيسة لهذا المؤتمر، لبحث قضيتي الهجرة اليهودية وتملك اليهود للأراضي الفلسطينية. وعملت الحركة النسائية في فلسطين على إنقاذ الوطن ومساعدة العائلات المنكوبة، ومع التركيز على التفرّغ لدعم الرجال في النضال الوطني الفلسطيني. وأرسلت المشاركات في المؤتمر برقيات الى ملك بريطانيا والأمم المتحدة يطالبن فيها بوقف الهجرة اليهودية، كما شكل المؤتمر وفدًا من 14 سيدة لمقابلة المندوب السامي البريطاني ومطالبته بالغاء وعد بلفور. وعند زيارة الضابط ادموند اللنبي ألقت طرب عبد الهادي خطابًا في كنيسة القيامة قالت فيه: "النساء العربيات يطالبن الضابط اللنبي أن يتذكر وينقل هذا الكلام لحكومته بأنَّ أمهات وبنات وأخوات الضحايا العرب قد اجتمعن لجعل العالم يشهد على الخيانة التي قامت بها بريطانيا في حق الفلسطينيين".

المشاركة في ثورة البراق (1929):

ثم ظهرت المرأة في ثورة البراق في القدس عام 1929، حيث كانت مسؤولة عن تقديم الخدمات الطبية للجرحى من الثوار والمقاومين. وتشير الدراسات التاريخية أنَّ المرأة شاركت في النضالات الوطنية المختلفة وسقط عدد من النساء شهيدات من بينهن: فاطمة غزال، وجميلة محمد أحمد الأزعر، وعائشة أبو حسن، وعزية سلامة، وتشاويق حسين، وحليمة يوسف الغندور، ومريم علي أبو محمود، كما حُكم على صبيحة الجلاد ولطيفة المغربي بالسجن لمدة 7 سنوات.

شهيدات فلسطينيات

وبحسب تقارير صادرة عن مركز المعلومات الفلسطيني، فإنَّ 41 فلسطينية استُشْهِدت خلال الأعوام 1936 - 1939، وفي عام 1948 استشهدت 160 فلسطينية. وخلال الثورة الفلسطينية الكبرى التي نشبت عام 1936م إثر الإضراب العام الذي شمل جميع مدن وقرى فلسطين، عقدت 600 طالبة فلسطينية اجتماعًا هامًا في 4 مايو/ أيار، حيث قررن فيه الاستمرار في الإضراب حتى تستجيب سلطات الانتداب البريطاني لمطالب الشعب الفلسطيني، وقررن اتخاذ الوسائل الضرورية لمقاطعة البضائع "الإسرائيلية" والأجنبية، وعلاوة على ذلك، فقد أرسلت لجنة السيدات العربيات في القدس كتابًا إلى مؤتمر السلم العالمي في بروكسل في 3 أيلول/ سبتمبر 1936م، حيث طالبت اللجنة بوقف الهجرة اليهودية وإقامة حكومة وطنية في فلسطين. وبحسب الوثائق المتوفرة لدى مؤسسة الدراسات الفلسطينية، فإنَّ قرارات اجتماع السيدات العربيات بالقدس بالاحتجاج على سياسة بريطانيا في فلسطين والتهديد بالحث على العصيان المدني 1936، نص على منع الهجرة اليهودية منعًا باتًا، وذلك بوضع دائرة المهاجرة والسفر تحت رقابة لجنة مشتركة من

الحكومة البريطانية ومن الشعب العربي ريثما يتم تشكيل حكومة وطنية، وتجريد اليهود من السلاح تجريدًا تامًّا، وإطلاق سراح العرب الذين اعتقلوا من جراء الاضطرابات الأخيرة والإضراب، وتشكيل حكومة وطنية دستورية ذات مجلس نيابي منتخب من جميع طبقات الشعب العربي، والطلب من جميع الهيئات السياسية واللجنة العليا واللجان القومية أن تعلن جهارًا أنَّها ترفض كل بحث أو التفاوض مع الحكومة البريطانية الحالية إلى حين تحقيق مطلب الأمة، والطلب من السيدات ضم صوتهن إلى جميع أصوات اللجان السياسية والقومية بشأن عدم دفع الضرائب. وإضافة إلى ذلك، فقد تم إرسال رسائل إلى جميع ملوك العرب وأمراء الدول العربية لمساعدة أهالي فلسطين، وشكر البحارة على مثابرتهم على الإضراب على صفحات الجرائد، وإرسال برقية شديدة اللهجة بواسطة المندوب السامي إلى الملك إدوارد الثامن احتجاجًا على سياسة حكومته في فلسطين، وإرسال برقية بتأييد اللجنة العليا لكل مقرراتها وتكون في الطليعة ضد الاستعمار.

أهم التظاهرات

ولعل أهم هذه التظاهرات كانت التظاهرتان اللتان قامت بهما النساء في حيفا وعكا في 24-5-1937، حيث قامت النساء في حيفا بالاعتصام أمام سرايا الحكومة حتى يتم إطلاق سراح المعتقلين المضربين عن الطعام في سجن المزرعة في عكا، مما اضطر حاكم لواء حيفا إلى استقبال وفد عن المتظاهرات في مكتبه، كما تظاهر الشباب والنساء ووجهاء عكا وأرسلوا مذكرة احتجاج إلى المندوب السامي يطالبونه فيها بإطلاق سراح المعتقلين، وقد وعد المندوب في أعقاب ذلك بإطلاق سراح مئة من المعتقلين والنظر في أمر الآخرين.

ومن ناحية أخرى، فقد شهدت منطقة مرج ابن عامر، أوائل المظاهرات النسائية الضخمة بمشاركة ما لا يقل عن 200 امرأة، (كما تذكر المصادر التاريخية)، وقد كانت هذه النهضة والمشاركة النسائية السياسية مسبوقة بنهضة أدبية ثقافية، وشاركت النساء الفلسطينيات والعربيات كذلك بشكل نشط وفعال في تثبيت الحركة الثقافية الأدبية العربية ككل. سواء من خلال الصالونات الأدبية كما فعلت الأديبة مي زيادة (1886 - 1941)، أو من خلال الكتابة والنشر.

المشاركة في الجمعيات والإعلام والثقافة

وكان للمرأة الفلسطينية دور أساس فاعل في المشاركة في إقامة الجمعيات، بالإضافة إلى الدور الإعلامي الذي يهدف إلى مناقشة قضايا الساعة السياسية والاجتماعية. ولعبت الإعلاميات والناشطات السياسيات الفلسطينيات دورًا رئيسًا في مناهضة الاستعمار البريطاني والتصدي لجميع أشكال الاستيطان الصهيوني في أرض فلسطين، وكتبتْ بهذا الموضوع كل من: ساذج نصار، ووديعة قدورة خرطبيل، وعنبرة سلام الخالدي، وأسماء طوبي، ومثيل مغنم، وأديل عازر في الصحف المحلية والعربية. وأصدرت مثيل مغنم كتابها عن المرأة الفلسطينية في العام 1937 باللغة الانجليزية، وصرحت بالقول: "أن لا حديث عن حقوق نساء ما دمنا تحت الاحتلال"، وأكدت السيدة وديعة قدورة خرطبيل (ناشطة الحركة) في كلمتها في مؤتمر الشرق على اللُّحمة والوحدة ما بين الأرض والقضية فقالت يومها: "الأرض قضيتنا ولا قضية لنا إلَّا الأرض".

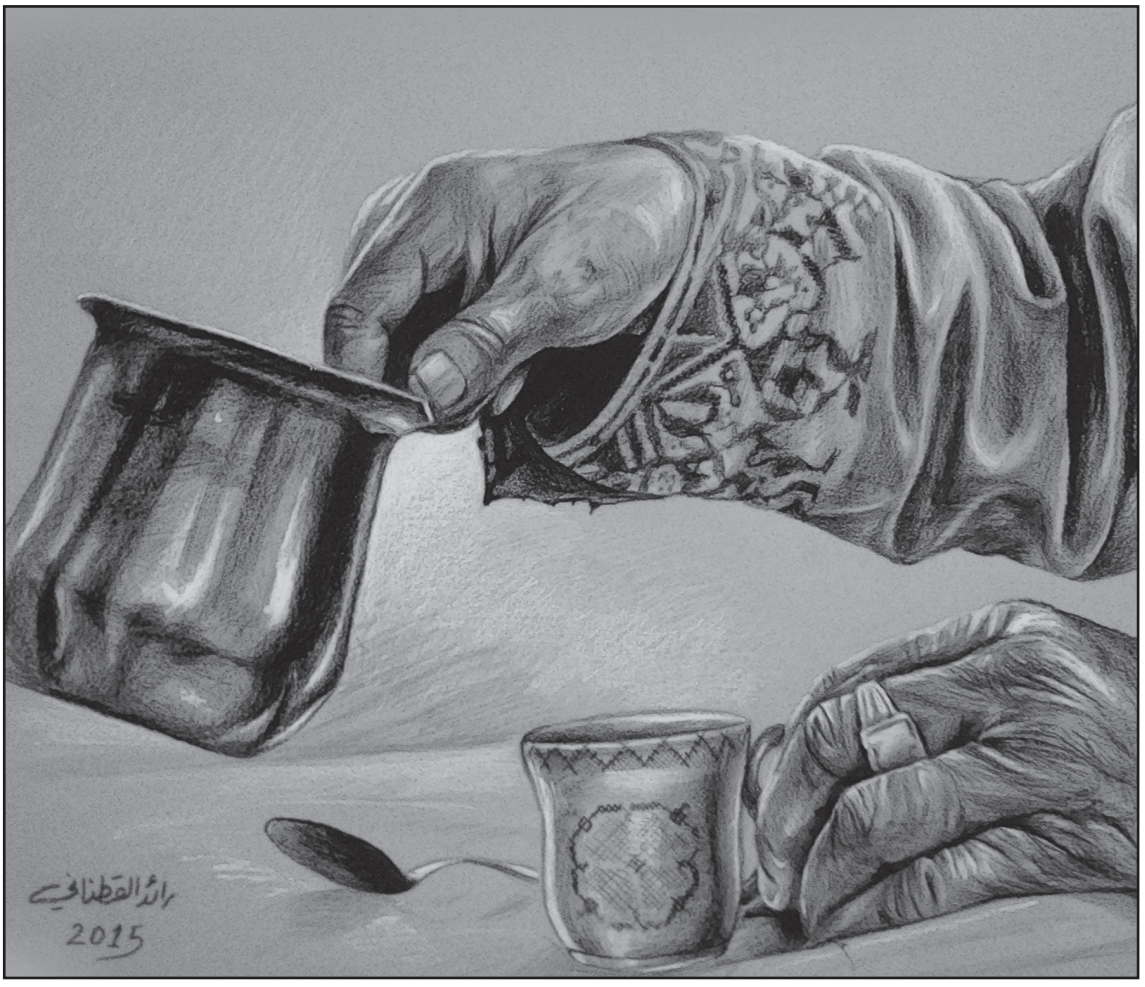

وتحدت المرأة الفلسطينية قضايا مصادرة الأراضي والتهجير الفردي والجماعي والقسري، وكتبت أسماء طوبي كتابها "عبير ومجد" (1966) من "أجل موطن غال" ومن "أجل أن يعرف الناس الكثير عن المرأة وكي لا تظل المرأة الفلسطينية مغمورة كما كانت البلاد، فأصابها ما أصابها نتيجة جهل الناس بواقعها".

وبالمقابل، فقد قامت حركة النهضة النسائية عام 1948 بمحاولات عديدة لمنع التهجير ومحاولة تثبيت العائلات الفلسطينية في منازلها أو إعادة اللاجئين إلى بيوتهم بعد تقديم المساعدات اللازمة لهم. وما زال الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية وفي ذكرى وعد بلفور المشئوم يقيم ندوات جماهيرية تتناول معاني هذا الوعد وما ارتكبته بريطانيا بحق الشعب الفلسطيني وما تبع ذلك من نفي، وتهجير وتشريد للشعب الفلسطيني.

وكذلك الأمر، فقد قدمت المرأة الفلسطينية حتى اليوم 440 شهيدة فيما اعتقلت قوات الاحتلال "الإسرائيلي" 13 ألف امرأة منذ العام 1967 وحتى شهر أيلول 2009، من بينهن 860 امرأة اعتقلن خلال انتفاضة الأقصى.

حمل السلاح

في 27 أيلول عام 1936 حكمت المحكمة المركزية برئاسة المستر ايفانس منفردًا على السيدة صبحة الجلاد من طولكرم بالسجن لمدة خمس سنوات بتهمة حيازة بندقية، وسيقت إلى سجن النساء في بيت لحم وكان المحامي عثمان البشناق يدافع عن قضيتها. وأجرى الباحث عبد العزيز أمين عرار مقابلة مع السيدة فاطمة خاصكية زوجة المناضل محمد أبو دية في طيرة بني صعب فقال بأنَّها: "واحدة من النساء المناضلات كانت تشجع وتدفع زوجها وتشاركه النضال والكفاح في ثورة 1936 - 1939 وحرب 1948، عرفت باستخدامها الجيد لأنواع عديدة من الأسلحة، وفي واحدة من أعراس كفر ثلث عام 1956 أطلقت الرصاص بدلًا من الزغاريد".

محاكمة نساء

في 7-10-1936 حكم حاكم لواء القدس على المجاهدة فضية خليل (القدس) بالسجن ثلاثة أشهر لأنَّها تحرض على المقاطعة، فتلقت الحكم برباطة جأش وسيقت إلى السجن مرفوعة الرأس.

وفي 21-2-1938 حكمت المحكمة العسكرية في حيفا بالسجن عشر سنوات على السيدة هنية علي الأحمد بتهمة حيازة سلاح ناري، وقد صدرت أحكام مشابهة ضد عدد من السيدات الأُخريات.

تعذيب وقتل النساء الفلسطينيات

عندما اشتدت نار الثورة أخذ الجنود الإنكليز يُعذّبون الرجال وينسفون البيوت. في عدد من القرى قاموا كذلك بضرب النساء وبإطلاق النار عليهن، ممّا أدى إلى جرح واستشهاد عدد كبير منهن. وقد وردت في الأدبيات الفلسطينية أخبار كثيرة عن مثل هذه الممارسات الوحشية، فعلى سبيل المثال، في 6-8-1938 عمم أكرم زعيتر على الصحف العربية البيان الآتي: "ننعى إلى الأمة العربية السيدتين العربيتين سعاد العلي وآمنة الحاج ياسين اللتين قُتلتا برصاص الجند البريطاني في قرية قباطية (جنين)، وذلك حين فتشت القرية بعد هزيمة الجند ولم تجد رجالًا فأطلقت النار جزافًا على النساء في خدورهن فاستشهدت السيدتان المذكورتان، وجرحت السيدة عائشة حسن والسيدة حورية سليمان بجراح خطرة". وقد كان القائد يوسف أبو درة يندد دائمًا في بياناته بانتهاك الإنكليز حرمة المرأة العربية ويرى في ذلك مسًّا بكرامة العرب.

أسماء مناضلات وشهيدات فلسطينيات في التاريخ الفلسطيني: فاطمة غزال، ميمنة عز الدين القسام، طرب عبد الهادي، عقيلة البديري، نبيهة ناصر، الأختين مهيبة وعربية خورشيد، عادلة فطايري، يسرا طوقان، فاطمة أبو الهدى، نجلاء الأسمر، حياة البلبيسي، جوليت زكّا، فاطمة برناوي، شادية أبو غزالة، عبلة طه، لطيفة الحواري، خديجة أبو عرن، ليلى خالد، ريما بلعوشة، زهيرة اندراوس، أمينة دحبور، دعاء الجيوسي، لينا النابلسي، وأخريات.

حميدة زوجة حمد العيد، فريدة بنت مصطفى عمران، ظريفة محمد سعيد، فريدة حشمة، لولو سليم الصايغ، ظريفة موسى، ذيبة ذياب سالم، خديجة أحمد، لبيبة مصطفى عمر، نجمة مصطفى ابراهيم، لطيفة خليل أو هواش، فطوم محمد الحاجة موسى، عائشة زوجة حسين طالب، مريم العبد دعموس، رمزية محمد عبد السلام، أمينة

زوجة خليل الصالح، بهية بنت نافع النمر، عائشة محمد العمري.

في مجال الغناء

ظهر هنالك العديد من المطربات الفلسطينيات اللواتي قدمن أغنيات عن معاناة الفلسطينيين داخل وخارج السجون الإسرائيلية، ومن بينهن:

ماري عكاوي: وهي مطربة فلسطينية شهيرة، ذاع صيتها في أربعينيات القرن الماضي، وكانت لها فقرة غنائية في إذاعة "هنا القدس" بجانب زميلتها المطربة الشعبية رجاء الفلسطينية والمطرب روحي الخماش وفهد النجار. لحن لها الموسيقار المعروف في ذلك الوقت محمد عبد الكريم أثناء زيارته للقدس عام 1936م أغنية "يا جارتي ليلى" والتي كان لها صدى كبير، حيث غنتها بعدها بسنوات المطربة المصرية فايزة أحمد. كما لحن لها صبحي سعيد مونولوج "أين الحبيب" من شعر د. ممدوح حقي، و"يا طيرة" من كلمات سلامة الأغواني.

ريم البنا: وهي مطربة فلسطينية، وناشطة، غنت للمقاومة، واشتهرت بترجماتها الحديثة للأغاني الفلسطينية التقليدية والتراثية، وولدت في مدينة الناصر سنة 1966. ومن أشهر أغانيها مرايا لروحي، وصوت المقاومة.

تريز سليمان: من مواليد حيفا، تتميز بموهبة فنية فريدة صقلتها من خلال دراستها، واشتهرت في بدايتها بأداء الأغاني التراثية والمأثورة لمارسيل خليفة وسميح شقير، ثم بدأت مؤخرًا بتأليف وتلحين أغانيها الخاصة وتتحدث فيها عن المجتمع والحب والقضية والإحساس الإنساني، وتشارك أيضًا في عروض مسرحية، كما أصدرت ألبومين مخصصين لأغاني الأطفال.

وبعد، كيف يمكن تحرير فلسطين؟

تشير تجربة الكفاح الفلسطيني إلى وجود فكرتين قد تساعدان في فهم ما يحدث اليوم وبالنتيجة إلى تحرير فلسطين، وهما:

أولًا: الشعب الفلسطيني يجد نفسه محاصرًا بين الاستعمار من جهة وبين حلفاء هذا الاستعمار في المنطقة العربية من جهة أخرى. ومن ثم فإنَّ من يستطيع أن يكسر هذا الحصار هو فقط الشعوب العربية، عن طريق التحرر من تلك الأنظمة التي تقف أمام تحرر الشعب الفلسطيني.

ثانيًا: أنَّ افتقار حركات المقاومة، مهما كانت بسالتها، إلى برنامج اجتماعي يقوم على الانحياز للجماهير الفقيرة ضد الاستغلال والقهر، يجعل هذه الحركات عرضة بفعل الضغوط الخارجية والداخلية إلى الانزلاق إلى نزاع مدمر كما يحدث اليوم ■

المصادر والمراجع:

1. مركز الوثائق الفلسطينية- رام الله/فلسطين المحتلة.
2. قدس برس، 2017
3. محاسن اصرف، 2016، أناشيد صاحبت بنادق الثورة الفلسطينية.
فلسطينيات شاركن في صنع التاريخ، الهلال اليوم، مؤرشف من الأصل في 6 سبتمبر 2018. اطلع عليه بتاريخ 16 يونيو 2019.
4. ويكيبيديا
5. معرفة، 2018
6. وفا "وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية"، 2020، شهداء ثورة 1936 (1939-1936).
7. شهداء ثورة (1939-1936)
8. الناشر الاشتراكي، 2007، فلسطين صفحات من شعب ونضال.

الواقعيون: إقليميون، وطائفيون، و.. مستتبعون

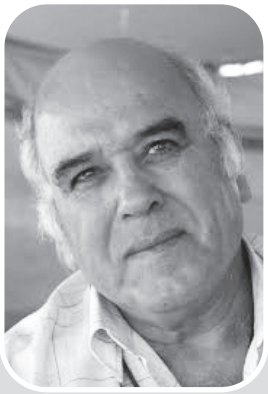

رشاد أبو شاور(*)

على الرُّغم من تباينهم، واختلافاتهم، وصراعاتهم أحيانًا، فهم يقفون على أرض واحدة، وهدفهم واحد: إنهاء القضية الفلسطينية تمامًا، لأنها تضر بمصالحهم الضيقة، وبقاء القضية الفلسطينية بلا حل سيتواصل مفجّرًا للصراعات الداخلية في أكثر (الدول) العربية، مشرقًا ومغربًا، ومهددًا (لاستقرار) أنظمة حكم بانفجارات متداخلة: قومية القضية الفلسطينية، واجتماعية سببها الفساد والظلم والفقر وجشع الحاكمين والتبعية للغرب.

الطائفي تآمر على فلسطين علنًا، انطلاقًا من حقده على تطلعات الجماهير العربية للوحدة العربية التي ترى فيها أملًا ببروز وتجلّي دولة عربية واحدة لأمة واحدة تُسّخر كل ثرواتها، وقدراتها، وجغرافيتها، وموقعها لنهوض الأمة، وتحقيق ازدهارها. وهذا، من منظور الطائفي يتهدد(وجوده)، وامتيازات قياداته السياسية والدينية التي تغذّي مخاوفه، وتنمي حساسياته، وتضعه في حالة خوف وقلق من جماهير أمة ينتمي لها لغة وتاريخًا وثقافة وحاضرًا ومستقبلًا، ناهك عن الماضي المشترك على أرض هذا الوطن العربي الكبير.

منذ عقود، وتحديدًا منذ رحيل الرئيس جمال عبد الناصر يوم 28 أيلول 1970، واستلام الرئيس أنور السادات قيادة مصر(الناصرية) العروبية، حاملة هموم الأمة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، بدأ التحوّل بمصر وتكرّس ب(زيارة) السادات للكنيست، وتتويج مفاوضات (كامب ديفد) بالتوقيع عليهاعام 1979 على الرُّغم من كل ما فيها من إجحاف بحق مصر، والقضية الفلسطينية.

منذ بدأت القضية الفلسطينية بالبروز، وبدأ الاشتباك مع الانتداب البريطاني والتسلل الصهيوني بالرعاية البريطانية، بدأ التواطؤ الإقليمي الرسمي على فلسطين وشعبها.

بريطانيا سيدة المشروع الصهيوني، عملت على زرع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي، ومع فرنسا تقاسمتا بلاد الشام، ناهيك عن هيمنة بريطانيا على الخليج، مع استبقاء الهيمنة البريطانية على مصر.

لقد شكّل بروز ثورة 23 تموز المصرية بقيادة جمال عبد الناصر بداية لتفتح وعي قومي شعبي عارم تنامى إثر العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي(الإسرائيلي)، وصمود مصر سياسيًّا، ومقاومتها في بورسعيد، وتوجُّه مصر (شرقًا) باتجاه الاتحاد السوفييتي للتسلّح، ولبناء السد العالي، وللنهوض الصناعي، وبناء مئات المصانع في (حلوان)، وكل هذا بشّر ملايين العرب بإمكانية نهوضهم، وبناء دولتهم العربية الكبيرة

(*) قاص وروائي - فلسطين

المأمولة. وهو ما يوطّد الأمل بحتمية تحرير فلسطين التي يُفترض أنَّها قضية (العرب) الأولى بامتياز.

تحققت وحدة مصر وسورية بتاريخ 28 ايلول 1958 وفي مواجهتها ظهر تحالف محلي وعالمي بقيادة أمريكا ومعها بريطانيا وفرنسا، اللتان لم تنسيا هزيمتهما في حرب السويس، والكيان الصهيوني، ناهيك عن أحزاب من ألوان مختلفة في بلاد العرب، منها خطابها ديني، ومنها خطابها إقليمي، ومنها خطابها طائفي. والعجب العجاب أنَّ منها من خطابها (يساري)، هو في الجوهر معاد للتطلعات القومية الوحدوية النهضوية في بلاد العرب من المحيط إلى الخليج.

ضرب وحدة مصر وسورية، وانفصال سورية عن مصر بانقلاب عسكري، كان قد مهّد لحرب حزيران الكارثية 1967، ناهيك عن مشاغلة مصر وجيشها في حرب اليمن التي انحازت فيها مصر الناصرية لثورة اليمن بقيادة عبد الله السلاّل، فكانت هزيمة حزيران نكبة جديدة لفلسطين، وللتوجهات القومية العربية التي قادتها مصر الناصرية. ولكن مصر المقاومة عادت بدعم جماهيرها يومي 9 و10 يونيو/ حزيران لجمال عبد الناصر، الذي أعاد بناء الجيش وتسليحه، ووضع القيادات الكفوءة في مواقعها المناسبة، وخاض حرب الاستنزاف التي أنهكت جيش الاحتلال الصهيوني ودفّعته خسائر فادحة، ورفعت معنويات جيش وشعب مصر، وهيّأت لمعركة العبور.

في تلك الأوقات كان ظهور الفدائي الفلسطيني في الميدان قد أعطى أملًا وثقة، وبدأ تدفق ألوف الشباب العربي، والفلسطيني في المقدمة، للانضمام للحرب الفدائية، وكان لمعركة (الكرامة) التي خاضها الفدائيون والجيش الأردني في آذار 68 أثر كبير في استنهاض الهمم وارتفاع الروح المعنوية جماهيريًّا، فها هو جيش الاحتلال يتم تمريغ أنفه في رمال الكرامة وما حولها، شرقي نهر الأردن، في مواجهة حقيقية بعد هزيمة حزيران المرّة.

رحيل ناصر، وزمن السادات!

والجيش المصري، والمقاومة الفلسطينية تحقق حضورًا في اشتباكها مع الاحتلال في الضفة، وفي عمق فلسطين، وعلى أرض جنوب لبنان، رحل جمال عبد الناصر، وقفز السادات إلى الحكم، وتجلّت توجهاته مع توقف حرب أكتوبر 1973.

الطائفي والإقليمي معركتهما التآمرية على فلسطين واضحة ومفضوحة، وستستمر إلى أن يتم دفنها تمامًا بنشر الوعي القومي العربي والانتصارات في ميادين المواجهة بدون مهادنة، وبوضعهما بالضبط في موقعهما التحالفي مع كل أعداء الأمة، وفي المقدمة أمريكا والكيان الصهيوني.

لا بد من أن تعي قوى المقاومة وتُميّز بين صديقها وعدوها، فهي لا تخترعهما، ولكنهما يسفران عن وجهيهما بمواقفهما وانحيازاتهما، وأي تسامح، أو تقليل من خطرهما، سيؤدي لخسائر فادحة، وهو ما حصل للقضية الفلسطينية، ولقوى الثورة العربية.

هنا نسأل: كيف قبلت القيادة الفلسطينية أن تكون أمريكا المنحازة والراعية للكيان الصهيوني (وسيطًا نزيهًا)؟! على ماذا راهنت في التأثير على مواقف أمريكا و(جرّها) لاتخاذ موقف بمنح الفلسطينيين دولة، ولو على جزء من أرض فلسطين؟ بالإقناع مثلًا، أم بيقظة ضمير قادة أميركا الصهاينة؟ هل يمكن أن توقف أميركا دعمها العسكري، والسياسي، والاقتصادي، والديبلوماسي للكيان الصهيوني؟ و: هل ستتخذ

موقفًا من مواصلة الكيان الصهيوني ابتلاع الأرض الفلسطينية وتمدد الإستيطان؟!

كيف تكون القيادة قيادة وهي لا تعرف انحياز أمريكا التام للاحتلال لكل فلسطين، وتغطية أمريكا لمواصلة الاستيطان والتهويد يوميًا مع تواصل الدعم المالي والعسكري والديبلوماسي الأمريكي؟

لقد ضيّع (الواقعيون) ثلاثة عقود على القضية الفلسطينية، بعد أوسلو، وضيّعوا المزيد من الأرض، ومكّنوا قرابة المليون مستوطن من التوسع في الضفة الغربية، وها هي أرض الضفة تضيق وتضيق يوميًّا بحيث لم تبق مساحة متواصلة (لمحافظة) تتصل مدينتها بِقُراها بدون حواجز المستوطنات التي تتوعد بمزيد من التوسع!

أوسلو منذ البداية لم يُقِّر بشئ عملي للفلسطينيين، فلا دولة فلسطينية بحدود واضحة، ولا قدس بلا استيطان ولا تهويد، ولا حق عودة للاجئين الفلسطينيين، فعلى ماذا كان (المفاوضون الفلسطينيون) يفاوضون؟

اعترفت تلك القيادة الفلسطينية (بدولة إسرائيل) نيابة عن منظمة التحرير الفلسطينية مقابل اعتراف بها ممثلة للفلسطينيين!!

لم يعترف (المفاوض الإسرائيلي) بدولة فلسطينية، وهنا أستذكر الرئيس جمال عبد الناصر وقوله الثوري البليغ المستمد من تجارب الشعوب، والذي ينطبق تمامًا على صراعنا العربي مع عدونا الصهيوني: ما أُخذ بالقوة لا يُستردُّ إلَّا بالقوة.

لقد حقق النظام الإقليمي العربي ما أراد، بدفعه الطرف الفلسطيني الرسمي بشتى الأساليب، وتشجيعه على (الواقعية)، وفتح مسارات أمامه (للتواصل) مع الصهاينة، وهيّأه لتقديم تنازلات.

وكل هذا بهدف غسل النظام الإقليمي العربي الرسمي يديه من القضية الفلسطينية، ولقد روّج لمصطلح: الصراع الفلسطيني (الإسرائيلي)، وهكذا تلاعب بجوهر القضية والصراع، وعمد إلى تضليل الجماهير العربية وعزلها عن قضيتها: الصراع العربي مع المشروع الصهيوني الذي لن يكفَّ عن أطماعه، ولن يوقف تآمره على كل قضايا شعوب أمتنا العربية.

لقد حوّل النظام الإقليمي بخبث ودهاء مفهوم الصراع من صراع عربي (إسرائيلي) إلى صراع فلسطيني (إسرائيلي)، وهو يكرر هذا المصطلح في كل وسائل إعلامه ليغرسه في نفوس ملايين العرب، وبهذا يرسّخ (الثقافة) الإقليمية تجاه فلسطين ويبرر مواقف هذا النظام الإقليمي وذاك.

أترون كيف أوصل الخطاب الإقليمي التنصُّلي من عروبة فلسطين القضية وقزّمها وأقلمها، واندفع (للتطبيع) مع الكيان الصهيوني، أيضًا، بحجة (الواقعية) و(خدمة) شعب فلسطين!!

أمَّا والمؤامرة على فلسطين باتت مفضوحة، والأطراف المتآمرة تندفع في تنفيذ مؤامرتها بقيادة أمريكا، في زمن إدارة ترامب، وفي زمن استفحال الخطاب الإقليمي العربي الرسمي، وبعد فشل رهانات أوسلو على سلام مع الكيان الصهيوني الذي لن يتخلّى عن أطماعه في الاستحواذ على كل فلسطين، والهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية على الوطن العربي شريكًا لأمريكا، فماذا يتبقى للقوى القومية العربية، وفي مقدمتها شعب فلسطين المُجرّب سوى رفع شعار: قومية معركة فلسطين، وعروبة الصراع مع الكيان الصهيوني، ووضع أمريكا في مقدمة الأعداء، وعدم التسامح مع قوى الرجعية العربية ؟

عندما كنا نخوض معركة بيروت 1982 كان (شارون)

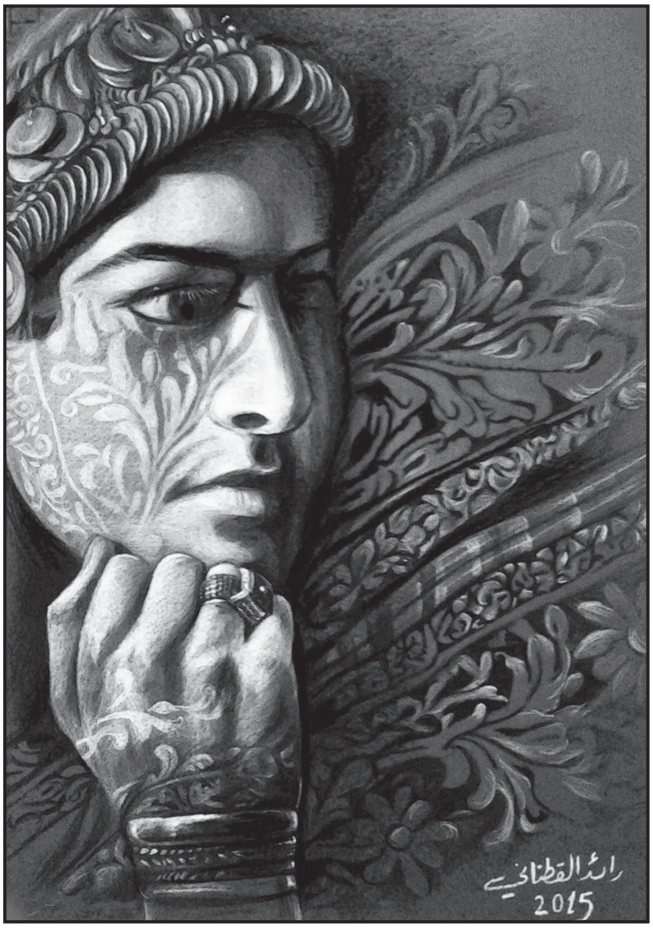

يعانق قادة الطائفيين في بيروت الشرقية، ويتأمل حرائق بيروت الغربية من فوق سطح فندق(ألكسندر) مستمتعًا كنيرًا بحرق نصف بيروت، وبجوراه (قادة) طائفيون بملابس عسكرية يتلمظون متعة وهم يتأملون بيروت والطائرات تغير عليها وتقصف بنايات بيروت بصورايخ فراغية مدمرة.

الإقليمي والطائفي حليفان للصهاينة وتابعان لأمريكا، وعدوان لنهوض الأمة، ولقضية فلسطين.

وتبقى فلسطين قضية عربية أولى بامتياز، قضية جماهير ستنهض رافعة علمها بالترافق مع شعارات الحرية والعدالة والوحدة العربية.

وتبقى فلسطين (ثقافة) قومية عربية نهضوية، ويبقى دور المثقف بانتظاره ناشرًا للوعي، مواجِهًا لكل انحراف، متصدِّيًا (لثقافة) الطائفيين، والإقليميين، وأدعياء الواقعية المُضلِّلين، الذين على الرُّغم من فشل طروحاتهم ما زالوا يصرّون على مواصلة نهجهم، على الرُّغم من إفلاسهم.

ختامًا: لا يمكن الفصل بين الثقافة والسياسة في الصراع العربي الصهيوني، وقضايا تحرر الإنسان العربي، وخوض ملايين العرب لمعركة النهوض العربي لأخذ دورهم مع الأمم الناهضة ■

القدس
بين الاحتلال والتحرير
أحداث في أرقام
من ٣٠٠٠ ق.م
حتى الوقت الحاضر

عزمي أبو عليّان(*)

■ القدس في اللغة: جاء اشتقاق اسم مدينة القدس أو بيت المقدس في لسان العرب لابن منظور (ج6، ص168) في مادة قدس: التقديس: تنزيه الله عز وجل، والقدس: هو المتقدّس، ويقال القدّوس وهو الطهارة، والتقديس: التطهير والتبريك، وتقدّس أي تطهر، وفي التنزيل (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) "الآية30 من سورة البقرة"، والقدّوس: الطاهر المنزه عن العيوب والنقائض.

وجاء في تاج العروس للزبيدي (ج4،ص213): القدس: الطّهر، اسم ومصدر، ومنه قيل للجنة حظيرة القدس، والقدس (البيت المقدس: أي لأنه يتطهر فيه من الذنوب أو للبركة).

■ تأسست مدينة القدس (يبوس/أوروسالم) سنة 3000 ق.م من قبل العموريين ثم اليبوسيين العرب، جنوبي المسجد الأقصى المبارك، على مرتفع عوف إيل، على مساحة تقدر بـ 55 دونمًا، ومن أشهر ملوكها، الملك ملكي صادق، والملك عبد حيبا، والملك أدوني صادق، وكان سكانها على دين التوحيد.

■ خلال الفترة بين 2560 ق.م – 1215 ق.م: حوالي1345سنة، تعرضت فيها بلاد كنعان/ فلسطين، للحملات العسكرية المصرية المتقطعة بهدف السيطرة على بلاد الشام ككل، وفي فترة من الفترات الزمنية كان الملك عبد حيبا ملك يبوس على ولاء للحكم المصري، في عهد الملك المصري أمنحتب الرابع (أخناتون 1375 ق.م 1358- ق.م)، وقد تعرضت فيها أراضي مملكة يبوس ومختلف أراضي الممالك الكنعانية لغزو قبائل الخابيروا/ العابيروا البدوية، وقد أرسل عبد حيبا العديد من الرسائل إلى أخناتون يطلب فيها نجدته ضد بدو الخابيروا، وفي أعقاب وفاة الملك المصري منفتاح بن رعمسيس سنة1215 ق.م، لم تذكر المصادر التاريخية أي نفوذ مصري في بلاد كنعان ومنها مملكة يبوس، فبقيت مستقلة حتى سنة 1193ق.م حين قدم إليها بنو "إسرائيل" من مصر.

■ محاولات بني "إسرائيل" احتلال القدس: 1193 ق.م- 997 ق.م: حوالي 196سنة، تعرضت خلالها مملكة يبوس لعدة محاولات من قبل بني "إسرائيل" لاحتلالها، غير أنهم لم يتمكنوا منها طيلة هذه المدة، واستمرت كذلك حتى سنة 997 ق.م حين دخلها نبي الله داود عليه السلام، واستمر أهلها اليبوسيون يقيمون فيها.

■ حكم داود وسليمان عليهما السلام في مدينة القدس: 997 ق.م- 923 ق.م: حوالي 74 سنة، انقسم بعدها حكم بني "إسرائيل" إلى مملكتين، الأولى باسم

(*) باحث وتربوي - الأردن

مملكة "إسرائيل" ومقرها الأخير سبسطية/ السامرة، وقد أزالها الملك الأشوري سرجون الثاني من الوجود سنة721 ق.م. والثانية مملكة يهوذا في القدس.

■ مملكة يهوذا: 923 ق.م- 586 ق.م: حوالي337 سنة، وعاصمتها القدس، وقد عبد أغلب بني "إسرائيل" الأوثان خلال تلك الفترة.

■ الاحتلال البابلي: 586 ق.م- 538 ق.م: حوالي48 سنة، احتلها نبوخذ نصر البابلي ودمرها تدميرًا كاملًا وأحرقها بالنار بعد أن نهبها ولم يبق فيها شيئًا، وسبى بني "إسرائيل" ومن بقي من أهلها اليبوسيين إلى بابل وكانوا في نحو خمسين ألفًا، قاضيًا بذلك على مملكة يهوذا.

■ الاحتلال الفارسي الأول: 538 ق.م- 332 ق.م: حوالي206 سنوات، هاجمها الملك كورش منهيًا الحكم البابلي فيها، وقد أعاد كورش من سباهم نبوخذ نصر إلى القدس تحت الحكم الفارسي.

■ الاحتلال اليوناني: 332 ق.,م- 63 ق.م حوالي269 سنة، بعد أن هزموا الفرس، وبعد وفاة الإسكندر المكدوني سنة323 ق.م، توزعت إمبراطوريته بين قادته، وعاشت القدس صراعًا دمويًا عنيفًا بين دولتي اليونان في المشرق دولة البطالسة والدولة السلوقية، ولعب اليهود دور المحرك في هذا الصراع، فتارة يوالون البطالسة تارة أخرى يوالون السلوقيين، الأمر الذي كان يدفع اليونانيين على اختلاف دولهم إلى ضرب اليهود بقوة.

■ الاحتلال الروماني الأول: 63 ق.م- 40 ق.م: حوالي23 سنة، احتلها القائد الروماني بومبي، وظل اليهود فيها خلال هذا الاحتلال يثيرون الفتن والحروب الدموية بين القادة الرومان، وكان الرد دائمًا وكما كل احتلال ضرب اليهود بقوة.

■ الاحتلال الفارسي الثاني: 40 ق.م- 37 ق.م: حوالي3 سنوات، وجاء احتلالهم لها بعد انتصارهم على الرومان في أعقاب تحالف الفرس مع فئة من اليهود ضد الرومان وحلفائهم من الفئات اليهودية الأخرى في المدينة، وكان من نتيجة ذلك أن ظل الدم يسفك في المدينة بين اليهود أنفسهم بسبب شدة الصراع على السلطة والولاء للدول المحتلة للقدس.

■ الاحتلال الروماني الثاني: 37 ق.م- 614 م: حوالي651 سنة، وأهم الأحداث خلال تلك الحقبة:

1. ميلاد نبي الله عيسى عليه السلام في مدينة بيت لحم، وظهور الديانة النصرانية.

2. ازدياد مؤامرات بني "إسرائيل" ضد السلطات الرومانية، الأمر الذي جعلهم يشنون حملة عسكرية بقادة تيطس سنة 70م فهاجمهم، وقتل اليهود فيها، ودمر المدينة تدميرًا كاملًا وأحرقها، وأمر بحرث الأرض ومسح آثار اليهود، وأمام مدخل المدينة رفع لوحة كتب عليها باللغات اللاتينية واليونانية والآرامية: حُرِّم على الجنس اليهودي الذي نبذه التاريخ، السكن في هذه المدينة (أورشليم)،14 سبتمبر (أيلول عام 70)، تيطس.

3. أخذ النصارى يعودون إلى القدس من جديد، كما أخذ اليهود يتسللون إليها، إلى أن شكلوا قوة مرة أخرى وثاروا على السلطات الرومانية، فوجه الإمبراطور حملة عسكرية سنة 115م، فقضت عليهم فيها.

4. في سنة 117م زارها الإمبراطور هدريان، وأمر بإعادة بنائها وتحصينها، فأقبل اليهود عليها وثاروا على الرومان، فوجه هدريان إليها حملة عسكرية بقيادة جوليوس سيفروس سنة 135م، فحاصرها واحتلها وقتل اليهود فيها ودمرها ودكها إلى الأرض.

5. في سنة 139م، أمر الإمبراطور هدريان ببناء مدينة

جديدة على مساحة تقدر بـ 868 دونمًا (بلدة القدس القديمة المعروفة اليوم، بعد التعديلات العديدة) ودعاها (إيليا كابيتولينا) نسبة لأسرته (إيليوس)، وحرم على اليهود دخولها، لا بل والنظر إليها من بعيد وأمر بقتل من يخالف ذلك منهم.

6. في سنة 312م اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين الديانة النصرانية وجعلها الديانة الرسمية في دولته.

7. في سنة 326م زارت هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين القدس وأمرت ببناء كنيسة القيامة فيها، وقد سمح قسطنطين لليهود بدخول القدس مرة واحدة في السنة وليوم واحد فقط، وأعاد للمدينة اسم أورشليم من جديد، غير أن اسم إيليا ظل متداولًا في التاريخ حتى مطلع الفتح الإسلامي.

8. في ظل تسامح السلطات الرومانية مع اليهود أخذوا يتكاثرون في المدينة، وبخاصة بعد ارتداد الإمبراطور يوليانس عن النصرانية، وسماحه لليهود بالسكن فيها من جديد، ولكن الإمبراطور يوبيانس الذي تولى بعد مقتل يوليانس سنة 363م أعاد الاعتراف بالنصرانية من جديد وحجّم اليهود في المدينة، وفي سنة 395م انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى دولتين شرقية بيزنطية وعاصمتها القسطنطينية، وغربية وعاصمتها روما، وكانت القدس ضمن الدولة البيزنطية ككل بلاد الشام.

■ الاحتلال الفارسي الثالث: 614م - 682م: حوالي14سنة، وقد انخرط اليهود في الجيش الفارسي، وقد اعمل الفرس واليهود القتل والأسر في النصارى ودمروا الكنائس والأديرة وعلى رأسها كنيسة القيامة، واستولوا على صليب الصلبوت/الصليب المقدس، وبلغ عدد القتلى النصارى 90 ألفًا في المدينة، والأسرى في أعداد كبيرة، وقام اليهود بشراء الأسرى النصارى فذبحوهم كالخراف، وقد سلّم الفرس إدارة المدينة إلى اليهود، وبعد أقل من ثلاث سنوات، ألغى الفرس الإدارة اليهودية للمدينة وحرموا عليهم سكناها، وسمحوا بإعادة ترميم الكنائس.

غير أن أعظم حدث في تاريخ المدينة العظيمة وفي فترة سيادة الفرس الوثنيين عليها كان معجزة الإسراء والمعراج، حيث أُسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى المبارك في السنة الثانية عشرة هـ من البعثة النبوية الشريفة ليلة 27 رجب، الموافق سنة621م، ومن المسجد عرُج بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء حيث أراد الله عز وجل.

■ الاحتلال الروماني/البيزنطي الثالث: 628م- 636م: حوالي 8 سنوات، بقيادة هرقل الذي احتلها في 14-9-628م، وهو يحمل البقية التذكارية للصليب، وقد أصدر أمرًا حرّم فيه دخول اليهود المدينة، وأن يكون قطر المنطقة المحرمة علهم حولها ثلاثة أميال.

■ الفتح الإسلامي: 15 - 492هـ/ 636 - 1099م: حوالي 463 سنة، وفيه دخلت المدينة في الدولة الإسلامية، حتى الاحتلال الصليبي الأول، وأهم الأحداث فيها:

* العهد الراشدي: في سنة 15هـ/ 636م، حررها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلحًا، وتسلم مفاتيح المدينة من البطريرك صفرونيوس، وبناء على طلب النصارى سكان المدينة كتب لهم وثيقة أمان عرفت في التاريخ بالعهدة العمرية، وقد أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وعلى ألا يكرهوا على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء/القدس معهم أحد من اليهود، وعليهم دفع الجزية كما يعطي أهل بقية المدائن.

وقد أعطى مفاتيح كنيسة القيامة للصحابي عبد الله آل نسبية، وأقام الجامع القبلي في صدر المسجد الأقصى المبارك، ورتّب أمر المدينة، فأقام فيها إمامًا للصلاة وقاضيًا ومعلمًا وقائدًا للقوات الإسلامية، ونظم الحسبة والبريد، وعندما تولى الخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقف عين سلوان على ضعفاء مدينة القدس.

* العهد الأموي:41 هـ - 132 هـ/661 م- 749 م: حوالي88 سنة، وأهم الأحداث في المدينة:

- أعلن معاوية بن أبي سفيان نفسه خليفة للمسلمين ونزل القدس، وتلقى فيها بيعة الشاميين.

- وفي سنة 72هـ/689م أتم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بناء مسجد قبة الصخرة، وشرع ببناء الجامع القبلي من جديد، بعد أن تهدم بفعل الزلازل، ولكنه توفي قبل أن يتمه، فأكمله ابنه الخليفة الوليد، وأصاب المدينة زلزال جديد أحدث فيها خرابًا.

* العهد العباسي: 132هـ - 385 هـ/749م- 969 م: حوالي220سنة، وأهم الأحداث في المدينة:

- زارها الخليفة أبو جعفر المنصور مرتين، وقد أصلح ما أصاب المسجد الأقصى المبارك من خراب بسبب الزلزال السابق، وأصاب المدينة زلزال آخر سنة 158هـ/775م.

- وعندما زارها الخليفة المهدي أصلح ما أصابها من خراب، وزارها الخليفة المأمون، وأمر ببناء الأبواب الشرقية والشمالية للمسجد، وسك فلسًا فيها.

- وأمرت أم الخليفة المقتدر بصنع أبواب قبة الصخرة المشرفة، وكانت كلها مذهبة، وأصلحت جانبًا من سقف قبة الصخرة.

* العهد الفاطمي: 385هـ - 492 هـ/969م- 1099م: حوالي130 سنة، وذلك عندما تمكن الفاطميون من احتلال بلاد الشام على إثر انتصارهم على العباسيين، وأهم الأحداث في المدينة خلال عهدهم:

- أنّ الخليفة الحاكم بأمر الله قد أمر بتدمير كنيسة القيامة، بتوقيع وزيره النصراني ابن عبدون، وفي عهد الخليفة الظاهر، أعيد بناء كنيسة القيامة من جديد.

- وأصاب المدينة زلزال سنة 407هـ/1016م، فسقطت بسببه القبة في أعلى بناء مسجد الصخرة، وقد أعاد بناءها الخليفة الظاهر، ووقع في المدينة زلزال آخر سنة 425هـ/1033م أصاب المدينة بأضرار، فأعاد الظاهر ترميم ما أصابها وبخاصة المسجد الأقصى وأسوار المدينة.

- وأنشأ الفاطميون فيها البيمارستان (المستشفى الفاطمي) ودار العلم الفاطمية، وقد وقعت الحروب سجالًا بين الفاطميين والسلاجقة، إلى أن حسم أمرها لصالح الفاطميين.

■ الاحتلال الصليبي الأول: 492هـ- 583 هـ/1099م- 1187م: حوالي 88 سنة، خضعت فيها القدس للاحتلال الصليبي الأول، وذلك عندما تمكنوا من هزيمة الفاطميين، وقد استباحوا المدينة والمسجد الأقصى المبارك، وقتلوا من المسلمين حوالي 70 ألفًا، وحولوا الجامع القبلي إلى كنيسة، ومسجد قبة الصخرة إلى مذبح ورفعوا فوقهما الصلبان.

■ التحرير الإسلامي الأول: 583-626هـ/1187م- 1229م: حوالي42 سنة، أعاد فيها المسلمون تحرير المدينة على يد القائد صلاح الدين الأيوبي سنة 538هـ/1187م، والذي شرع من فوره بإعادة مسجد قبة الصخرة والجامع القبلي في المسجد الأقصى إلى حالهما القديم، وغسلهما بماء الورد لتطهيرهما من رجس الصليبيين، ونصب المنبر الذي أمر نور

الدين محمود بصنعه في الجامع القبلي، وأعاد للمدينة المقدسة طابعها الإسلامي، فأقام فيها دورًا للعلم، وبيمارستانًا، ومختلف المرافق، فقدم إليها المسلمون وانتجعوها.

■ الاحتلال الصليبي الثاني: 626هـ - 637 هـ/1229م1239-م: حوالي10سنوات، سلمها السلطان الكامل الأيوبي ملك مصر للإمبراطور الصليبي الألماني فردريك مقابل وقوف الصليبيين إلى جانبه في صراعه مع أخيه المعظم عيسى ملك دمشق.

■ التحرير الإسلامي الثاني: 637 هـ - 641هـ/1239م-1243م: حوالي4 سنوات، حررها الملك الناصر داود الأيوبي ملك الكرك.

■ الاحتلال الصليبي الثالث:641هـ - 642هـ/1243م-1244م: حوالي سنة واحدة، سلمها لهم كل من الناصر داود ملك الكرك، والذي كان قد حررها من قبل، والصالح إسماعيل ملك دمشق، والمنصور ملك حمص، وتحالفوا مع الصليبيين ضد سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب.

■ التحرير الإسلامي الثالث: 642هـ/1244م: حررها حسام الدين الخوارزمي على رأس قبائل خوارزمية مسلمة والتي قدم بها من الشرق، وتحالف مع الصالح نجم الدين أيوب، وبقيت القدس تحت حكم الأيوبيين حتى سنة 648هـ/1250م، أي حوالي6 سنوات، حين انتقل الحكم لدولة المماليك في مصر وبلاد الشام.

■ عهد دولة المماليك: 648 هـ - 922 هـ/1250م-1517م: حوالي267 سنة، ونالت حظوة كبيرة من قبل المسلمين في تلك الفترة، فأقيمت فيها المدارس الكبرى حتى غدت منارة علمية عظيمة في العالم الإسلامي، وقد جُعلت القدس مركز نيابة إدارية تتبع القاهرة مباشرة، وقد تعرضت المدينة لغزو التتار المسلمين بقيادة السلطان غازان محمود، الذي تمكن من احتلال بلاد الشام جميعها سنة 699هـ (1299م/1300م)، وظلت المدينة تحت سيطرتهم مدة ثلاثة أشهر ونصف حين انسحبوا منها، فاستعاد المماليك زمام الأمور فيها.

■ عهد الدولة العثمانية: 922 هـ - 1366 هـ/1517م-1917م: حوالي400 سنة، في أعقاب انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق سنة 1516م، وقد اهتم العثمانيون بالقدس، فاستحدثوا فيها مجلسًا بلديًا سنة 1280هـ/ 1863م، وفي سنة 1291هـ/1874م جعلوها متصرفية تتبع العاصمة إستانبول مباشرة.

■ الاحتلال البريطاني:1917 - 1948م: حوالي31 سنة، وقد عمل على تنفيذ وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، مدعومًا من عصبة الأمم، ثم هيئة الأمم المتحدة، وبتأييد ودعم من كثير من دول العالم وبخاصة أمريكا، وكانت مساحة بلدية القدس عند بداية الاحتلال البريطاني 3,5كم2، وبلغت ملكية العرب فيها90%، فيما بلغت نسبة الاستيلاء اليهودي الصهيوني 4%، وبلغت نسبة الملكية الحكومية والمرافق العامة 6%.

- وفي عام1924م، جاء الإعمار الهاشمي الأول: بتبرع من الشريف الحسين بن علي، بمبلغ50 ألف ليرة ذهبية لإعمار المسجد الأقصى المبارك، ومساجد أخرى في فلسطين، منها 24 ألف ليرة ذهبية لإعمار المسجد الأقصى.

■ في 29-11-1947م، صدر مشروع قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة رقم181، والذي يقضي

بتقسيم فلسطين إلى دولتين، دولة عربية، ودولة يهودية، ووضع القدس تحت الوصاية الدولية، بمساحة 175,504 دونمًا بنسبة 0,65% من مساحة فلسطين.

■ الاحتلال الصهيوني، وقد جاء على مرحلتين: المرحلة الأولى: احتلال القدس الغربية سنة 1948م، بعد دفاع مجيد من الجيش العربي الأردني وقوات المقاومة الفلسطينية، فيما انضمت بقية القدس، بما عرف بالقدس الشرقية والضفة الغربية في وحدة بين الضفتين سنة 1950م حتى سنة1967م.

وقد بينت هدنة رودس الموقعة بين الأردن والكيان الصهيوني عام1949م، مساحة مناطق القدس بين الطرفين كما يأتي:

1. مناطق فلسطينية تحت الحكم الأردني (القدس الشرقية) بمساحة 2,220 دونمًا بنسبة 11,48%.

2. مناطق فلسطينية محتلة (القدس الغربية) بمساحة16,261 دونمًا بنسبة 84,13%.

3. مناطق حرام ومناطق للأمم المتحدة وتشمل مقر هيئة الرقابة الدولية على جبل المكبر، ومنطقة مستشفى هداسا، والجامعة العبرية على جبل المشارف (سكوبس) وقطعة أرض تفصل القطاعين العربي واليهودي من المدينة، بمساحة850 دونمًا

بنسبة 4,39%، بمجموع 19,331 دونمًا بنسبة 100%.

■ في26/12/1949م أعلن الكنيست أنَّ القدس عاصمة "إسرائيل" منذ إنشاء الدولة في14-5-1948.

وبعد الوحدة بين الضفتين تمت المصادقة على أول مخطط يبين حدود بلدية القدس بمساحة 6,5 كم2 في 1-4-1952م، وفي 7-9-1959م تم تحويل بلدية القدس إلى أمانة القدس واعتبارها العاصمة الثانية للأردن.

■ بين عامي 1954 - 1964 م: تم إعمار المرحلة الأولى من الجامع القبلي وقبة الصخرة في عهد الملك الراحل الحسين بن طلال.

■ المرحلة الثانية: احتلال القدس الشرقية وبقية الضفة الغربية في حرب حزيران سنة1967م، بعد دفـاع مجيد مـن الجيش العربي الأردنـي، وفـي-1967 6-27م أصدر الكنيست قرارًا بضم القدس الشرقية إلى القدس الغربية، وبدأ بتوسيع حدود بلدية القدس من 6,5 كم2 إلى 70,5 كم2، ودمجها بتنظيم القدس الغربية المحتلة عام1948م بمساحة 38 ألف دونم، لتصبح مساحتها مجتمعة 108.5كم2، وفي 30-7-1980م، أصدر الكنيست قرارًا باعتبار القدس الموحدة هي عاصمة "إسرائيل"، وفي عام1990م، قام الاحتلال بإجراء توسيع جديد للقدس باتجاه الغرب، لاستيعاب التجمعات الصهيونية الجديدة على حساب الأراضي التي صادرها من أصحابها الشرعيين، فأصبحت مساحتها 126 كم2، هذا إضافة إلى السيطرة على المسجد الأقصى المبارك والتحكم به وبمداخله، وإجراء الحفريات تحته وفي محيطه، والاعتداءات الإجرامية الصهيونية على المصلين.

■ في 21-8-1969م، قام الأسترالي المسيحي البروتستانتي دنيس مايكل روهان بجريمة إحراق الجامع القبلي في المسجد الأقصى، وكانت ردة فعل الأمة العربية والإسلامية أن تم عقد مؤتمر إسلامي في الربـاط عاصمـة المملكة المغربية خلال الفترة 22-1969/9/24م، وانتهى ببيان استنكر فيه الجريمة الخطيرة، أما المجرم روهان فقد حوكم محاكمة صورية من قبل الاحتلال، ثم أطلق سراحه بزعم اضطرابه العقلي، وتكفل الملك الحسين والحكومة الأردنية بإعمار المسجد الأقصى المبارك، واستكمل الملك عبد الله الثاني صناعة المنبر، والاستمرار برعاية المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس.

■ في1988/7/31م، أعلن الملك الحسين، قرار فك الارتباط الإداري والقانوني مع الضفة الغربية باستثناء القدس، وتلا ذلك إلغاء الأجهزة الحكومية في الضفة الغربية، باستثناء المديريات التابعة لوزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية ودائرة قاضي القضاة في القدس.

■ في2013/3/31م، تم التوقيع على اتفاقية الوصاية الهاشمية على الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية في القدس، من قبل الملك عبدالله الثاني والرئيس الفلسطيني محمود عباس في عمان.

■ في 2017/12/6م، وقّع الرئيس الأمريكي دونالد ترامب مرسومًا اعترف فيه بشكل رسمي بالقدس عاصمة لإسرائيل، ونقل السفارة من تل أبيب إلى القدس.

■ في 2020/1/28م، أعلن الرئيس ترامب، ما يسمى بـ" صفقة القرن"، وأبرز ما جاء فيها بالنسبة للقدس: القدس ستبقى العاصمة غير المقسمة لإسرائيل، وهي جزء من سيادة "إسرائيل" ولا نسمح بإراقة الدماء فيها، وأمنها مقدس ■

أعلام فلسطينية

- د. زياد أبو لبن
- نزيه أبو نضال
- د. سناء الشعلان

صبحي غوشة.. رحلة في الذاكرة.. رحلة إلى فلسطين

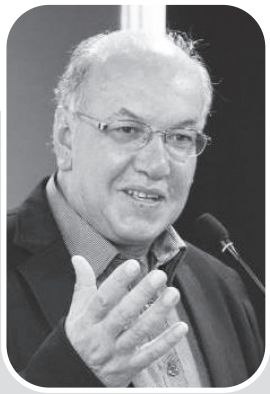

د. زياد أبو لبن(*)

تفتحت بواكير نضال الدكتور صبحي غوشه وهو طالب في المدرسة، وهو ينقل السلاح خِفية مع النساء إلى الثوار في جبال القدس، ويكاد كتاب الدكتور صبحي غوشة "رحلة في الذاكرة 1929 – 1971" أن يكون من أهم الكتب التي توثق لمرحلة مهمة من مراحل الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والنضال الفلسطيني، والكتاب عبارة عن مذكرات كتبها الراحل غوشة معتمدًا على ذاكرته في كتابة محطات من حياته الحافلة، وقد توقفت المذكرات عند عام 1971، ومن المنتظر أن تظهر بقية المذكرات التي كتبها بعد ذلك، وقد أشار في مقدمة الكتاب إلى أنَّها القسم الأول. وبحكم علاقتي الودودة مع الراحل، كنت ألحُّ عليه بنشر ما تبقى منها (القسم الثاني)، فأخبرني أنَّ القسم الثاني من المذكرات يمسُّ حياة أشخاص على قيد الحياة، وفيه أسرار من الصعب نشرها.

يروي كتاب "رحلة في الذاكرة 1929 – 1971" مولده ونشأته، وهو من مواليد 1929/3/31 في حي الشيخ جراح في القدس، وهناك مشاهد تفصيلية توثق حياة العائلة بامتدادتها، من طعام وشراب وعادات وتقاليد، وذكريات بيت العائلة والمأكل والملبس وألعاب الأطفال والرقية من الأمراض والحسد وأيام الدراسة في الكتّاب والانتقال للمدرسة في الصفوف الدراسية الأولى والأهازيج والأناشيد الفلسطينية وطقوس شهر رمضان وأيام العيد، ولم تَفُتْهُ الإشارة إلى أحداث سياسية وتاريخية، وانعكاسها على حياته منذ صغره، مستذكرًا هبة البراق في 1929/8/21، والحاج أمين الحسيني، وإضراب 1936، ولم يكتف بالحديث عن نقل مشاهد الإضراب، بل يحلل ويقدّم الرأي في ضوء الأحداث الجسام التي مرّ بها الشعب الفلسطيني.

كان لمدرسة المطران انعطاف تاريخي في حياة الصبي، خاصة أنَّ التعليم المدرسي متقدم جدًا، بل يكاد يفوق المدارس الأخرى في القدس، ويروي حكايات عن علاقته مع الطلاب والمدرّسين، وبتفاصيل تُضفي على الكتاب متعة وتشويقًا، وكذلك انتقاله إلى المدرسة الثانوية في العمارة، وخلال سرده لتلك الحكايات ينعطف إلى كتابة وقائع وأحداث الثورة ضد البريطانيين المستعمرين.

واصل دراسته في الجامعة الأمركية في بيروت تخصص طب، وشارك في مظاهرات تندد بوعد بالفور عام 1946، فتفتح وعيه على القضايا القومية والوطنية. وقد أنهى دراسة الطب في أواخر حزيران من عام 1948، وبدأ العمل في عيادة خاصة مطلة على ساحة

(*) ناقد وباحث - الأردن

باب العمود في القدس. وهو من مؤسسي جمعية المقاصد الخيرية في القدس. وقد انضم الدكتور صبحي غوشة إلى حركة القوميين العرب، وعلى إثر الأحداث السياسية المضطربة في الأردن عام 1957 تم اعتقاله، ثم أُفرج عنه، وبعد أربعين يومًا من الإفراج عنه تم اعتقاله ثانية، وتم نقله مع عدد من السياسيين إلى سجن الجفر وأمضى سنتين قبل الإفراج عنه تحت الإقامة الجبرية.

سافر الدكتور صبحي غوشة إلى الكويت في أوائل عام 1962، على رأس وفد لطلب لطلب دعم مالي لجمعية المقاصد الخيرية في القدس، فتبرع أمير الكويت الشيخ عبدالله الصباح بمبلغ خمسة آلاف دينار، كما تبرعت شخصيات أخرى، حتى بلغت قيمة التبرع حوالي 17 ألف دينار.

أصبح عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني عام 1964، وتسلم مواقع قيادية وطنية في أكثر من مجلس وهيئة، وشكت هزيمة عام 1967 زلزالًا حقيقيًا في حياة الدكتور صبحي غوشة، وبعدها تم اعتقاله وترحيله إلى سجن الرملة أكثر من مرة، ثم أُفرج عنه لأسباب صحية، وسافر بعدها إلى قبرص ثم إلى الكويت للعمل في وزارة الصحة.

توقفت رحلة الدكتور صبحي غوشة في هذا الكتاب إلى نهاية عام 1971، وهناك الكثير الكثير مما يقال عن حياته حتى وفاته في 2019/4/30، فقد أسس وشارك في العديد من الجمعيات والمؤسسات، وكان آخرها مركز دراسات القدس؛ حلمه الوردي في تحقيق ما يمكن أن يُقدم للقدس في ظل تآمر حكومات ودول عالمية على القضية الفلسطينية برمتها، والقدس خاصة ■

غالب هلسا وفلسطين

نزيه أبو نضال(*)

عاش غالب هلسا حياته في بلاد كثيرة، ولكنه ظل يعيش في وطنين: الأردن ومصر، أمَّا حلمه الأبدي فظلت قدس فلسطين التي كان يكحل عينيه بأضوائها من قريته ماعين.

كان أول مقال نشره غالب عن "عرار شاعر في المعركة" في مجلة الآداب اللبنانية، (1957/4/1)، وآخر مقال نشره في مجلة نضال الشعب "حول المثقف والثورة" الفلسطينية". (1989/12/31)

امتدت علاقتي بغالب من ندوات نجيب محفوظ في القاهرة 1963 إلى مشفى الأسدي في دمشق ليلة رحيله، وقد منحتني هذه المعرفة الطويلة الشخصية والإبداعية اكتشاف أنَّ غالب هلسا، كما أعتقد، يفكر ماركسيًا ويبدع فرويديًا، على الرُّغم ممَّا يبدو من تعارض أو تناقض بين فرويد وماركس، إلَّا أنَّهما يتوحدان عند غالب مع رؤيته كروائي، فتصير الأقانيم الثلاثة واحدًا.

كما اكتشفت أنَّ البنية النفسية والذهنية للمبدع والمفكر غالب هلسا هي من طبيعة نارية متمردة ترفض استكانة القطيع، وتذهب دائمًا إلى أمام، ترود فيه عوالم جديدة وغير مسبوقة. ذلك أنَّ غالب في خياراته السياسية، كما في خياراته الشخصية والإبداعية، كان مخلصًا مع ذاته إلى حدود المخاطرة، وربما لهذا لم يهادن نظامًا أو تنظيمًا، فكانت حياته سلسلة متواصلة من المعارك الثقافية والسياسية والتنظيمية. وكانت بوصلته التي لا تضل طريقًا تنهض على ثالوث مقدس: حرية المواطن عدالة المجتمع تحرير الوطن/ فلسطين. وعن فلسطين كان يقول: "الثورة الفلسطينية هي القلب المسلح للأمة العربية، ومعركة فلسطين تلخص كل معارك المثقف العربي". وكان يؤمن بأنَّ "الانتفاضة الفلسطينية والعربية أداة الوصول إلى الحلم بتحرير فلسطين"، ذلك أنَّنا جزء من الثورة الفلسطينية وسوف نناضل لأن نجعل الثقافة تحتل مركز الصدارة في الفعل الثوري. لا نفعل ذلك لصالح الثقافة فقط، بل بشكل أساسي لصالح الثورة.

وعن قصص الروائي محمد الأسعد يقول غالب هلسا: "لن يستطيع الفلسطيني أن يحتفظ بذاكرته إلَّا إذا تحولت إلى (قصة)، الفن وحده هو القادر على المحافظة على الأرض والتراث، أمَّا كتب التاريخ فهي تنسى التفاصيل وتفاصيل التفاصيل، ولهذا هي عاجزة أن تكون غذاء للذاكرة".

* * *

ونحن نبحث عن مفاتيح الدخول الى عالم غالب

(*) كاتب ومناضل - الأردن

هلسا لا بد أن نمتلك موقف ورؤيا غالب من القضية الفلسطينية، ففي زمن الدم الفلسطيني الحار، تستدعي اللحظة أبناءها الشرعيين، فيحضر غالب هلسا وهو بكامل بهائه وتاريخه جزءًا أصيلًا من اللحظة المعاشة التي تمتد عبر أزمنة المنافي والحصار والقتال والكتابة. فيكون غالب حاضرًا، ومتصلًا، وطرفًا فاعلًا، لا يستطيع كائن من كان إقصاءه. فليس هناك من يحمل ورقة (طابو) الحديث باسم فلسطين سوى أولئك الذين قدموا حياتهم من أجلها. ومن هؤلاء يقينًا: غالب هلسا. وعلى الرُّغم من ذلك وجدنا من اتهمه "بمعاداة كل ما هو فلسطيني". وبعد شهرين فقط على وفاته. في 18كانون أول 1989. لأنَّ غالب انحاز ضد القيادة الفلسطينية لأنَّها انحازت الى أنور السادات وهي تمهد لأوسلو.

وبالطبع فإنَّ استثارة النعرة الإقليمية، في زمن التجزئة والنفخ المرضي بالعصبيات الإقليمية، يشكل أسلحة رابحة.

وحين رددتُ، آنذاك على هذه الاتهامات الإقليمية، كنت اعتمد أساسًا على معرفتي العميقة بغالب، حيث عملنا معًا في أكثر من موقع فلسطيني مشترك في اتحاد كتاب فلسطين في لبنان وفي إذاعة الثورة الفلسطينية في أشهر الاجتياح الصهيوني لبيروت عام 1982، وكان آخرها في اللجنة النقابية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين، وفي مجلة الكاتب الفلسطيني، وفلسطين الثورة، والتعميم ونشرة صدى الانتفاضة، وكذلك في لجنة الدفاع عن الثقافة العربية في فلسطين،

ولكن مثل هذه المعرفة الشخصية على الرُّغم من أهميتها، خاصة في إطار المواقع الفلسطينية التي جرت فيها ليست كافية كما يبدو، وكان لا بُدَّ من وجود كتابات فلسطينية مباشرة لغالب هلسا للرد على الاتهامات الموجهة إليه. آنذاك اعتمدت على بعض الكتابات المتوفرة للرد، ولكن لاحقًا، وبعد أن شكَّلنا في عمان اللجنة الدائمة لتخليد غالب هلسا، وبدأنا بجمع إنتاجه الأدبي والفكري، تجمع لدينا حول الموضوع مادة ضخمة تقرر إصدارها في كتاب تحت عنوان "الفلسطينيون"، وهو مخطوط ضخم ما يزال ينتظر الطباعة حتى الآن، ممَّا يساعدنا على الإمساك بواحد من مفاتيح شخصية غالب، وبما يعكس حجم التزوير والاتهامات التي يمكن فبركتها وتوجيهها للناس، حتى ولو كان تاريخهم كله برهانًا يوميًا على نقيضها. وبات بإمكان أي كان، حتى لو لم يقدم شيئا لفلسطين، أن يستند إلى جداره الإقليمي، ليطالب المعترضين من العرب على سياسات سلطة أوسلو الفلسطينية، بالكف عن التدخل بالشأن الفلسطيني، اللهم إلَّا في حالة واحدة أن يهب للنجدة حين تطلب النجدات وإلَّا فـ.(يا وحدنا)!!

إنَّ فلسطين هي (وقف) عربي: موقفًا واستشهادًا، وعلى ذلك فليتنافس المتنافسون.

وغالب هلسا في جوهره ليس معاديًا للإقليمية فحسب بل هو متجاوز، على الرُّغم من عروبته، حتى للقومية ليكون مواطنًا عالميًا بامتياز، أي إنسانًا. ولكن هذا الإنسان ينتمي إلى "ماعين" ويفتخر بذلك، وينتمي إلى الأردن ويفتخر بذلك أيضًا، ومع الأردن يفتخر بقدس فلسطين التي كان يكحل عيونه كل يوم بأفقها الممتد من مشارف قريته، كما وصف ذلك في العديد من رواياته، وهو لهذا وذاك ظل عربيًا وقوميًا وناضل في أكثر من قطر باعتباره مواطنًا عربيًا.

ولعله العربي الوحيد الذي التحق بصفوف الحركة الشيوعية والوطنية في كل من الأردن ومصر والعراق

ولبنان وسوريا ثم بالثورة الفلسطينية، ودون أن يشعر بأنَّه غريب أو طارئ على أي من هذه المواقع. وعلى الرُّغم من ذلك كله تجد من يتهمه بالإقليمية و"بالعداء للفلسطينيين.. أدبًا وثقافة وزمنًا وموسيقى وثورة وانتفاضة"، كما اتهمه حسن حميد محرر "الأسبوع الأدبي"، (1 شباط 1990). آنذاك كان واضحًا الانحياز لنهج أوسلو للتسوية مع العدو الصهيوني، فيما كان غالب في محور تحرير كل فلسطين.

وعودة الى غالب هلسا؛ في كتاباته الفلسطينية، كما في كل كتاباته الأخرى يعتمد بصورة أساسية على جدلية لا تخطئ، ذلك لأنَّه يمتلك رؤيا نظرية شاملة لموضوعه، ولكنه لا يلجأ إلى تفصيل الواقع لكي ينسجم مع هذه الرؤيا الجدلية، ولهذا تجده على الدوام يبدأ من التجربة اليومية البسيطة، ثم يروح بعد ذلك يتابع دلالاتها وأبعادها ليربطها بالقضية العامة المطروحة، وهذا التبادل الجدلي الصاعد والهابط، من العام إلى الخاص وبالعكس، يمنح كتابات غالب هلسا، نكهة خاصة مشوقة وجذابة وعميقة وتبعث على الكثير من التأمل والتفكير ومعاودة بحث البديهيات والمسلمات. ومن هنا فإنَّ كتابات غالب هي فعل تحريض وتأثير متصل، وخاصة في قضايا المحرمات التي لا يتجرأ غالبية

الكتاب على الاقتراب منها وهي الجنس والدين والسياسة، وفي موضوعنا الموقف من سياسات القيادة الفلسطيينية المدمرة، من نقاطها العشر الى كارثة أوسلو التي يشرب الفلسطينيون كلهم مرّها الآن، والذي رآه غالب، كما رأيناه نحن، من زمان (فقط قبل 40 عامًا!).

هذه الحرية العقلية لا تعني بالنسبة لغالب ولو للحظة واحدة أن يتحول موضوع الانسان أو الوطن لمسألة اجتهاد أو وجهة نظر، وفي قضية الوطن فإنَّ غالب يرفض المساومة، يرفض تقطيع أوصال الجسد الواحد إلى شظايا وتفاصيل اسم بعضها الـ 48 واسم الأخرى الضفة والقطاع ثم غزة وأريحا... الخ. ومن أجل تحرير هذا الوطن/الجسد الواحد، فإنَّ الأداة هي الانتفاض، هي الثورة الفلسطينية، أي "القلب المسلح للأمة العربية". ذلك أنَّه لم يكن يرى فعل التحرير معزولًا عن عمقه العربي الكفاحي، أو معزولًا عن امتداده الانساني. وغالب هلسا وهو يسترجع العناصر المكونة للذاكرة الفلسطينية، أو وهو يبحث وقائع المخيم الفلسطيني، أو حين يتابع مواقف وسياسات التنظيمات والفصائل والاتجاهات الفلسطينية والعربية، فإنَّه كان يفعل ذلك كله في سياق رؤيته الجدلية العميقة وربطه المبدع بين الخاص والعام بين الوقائع والدلالات، وصولًا إلى فهم أكثر عمقًا للاتجاه الرئيس للحركة بعيدًا عن فوضى التصريحات والمواقف المضللة.

آنذاك، ومع انتفاضة الألفية الثالثة، وعلى مشهد من العالم، بصدورهم العارية، اندفع الفتية الفلسطينيون، باتجاه تحصينات الموت "الإسرائيلية" العسكرية.

وهنا يثور سؤال كبير وخطير؟ ما الذي يدفع الفلسطيني للموت والتضحية إلى هذا الحد الذي أدهش العالم؟

ويجيء الجواب من غالب هلسا خلال قراءته العميقة لقصص ماجد أبو شرار "الخبز المر"، 1980. يقول غالب هلسا: "هذا الفلسطيني في هذه المجموعة المعبأ موتًا وذكرى ومصيرًا، إلى أين يمضي وماذا يريد"؟ "إنَّ الفلسطيني وقد اقتصرت خياراته على خيار وحيد: أن يختار الموت الذي يعجبه، قد وضع الأسس النفسية للعنف الثوري.. ولن تتخلص الثورة الفلسطينية من أشباح الموتى إلَّا بالعنف".

غالب هلسا هادئ ووديع كطفل، ورفيق أنيس ودافئ في العلاقات الانسانية، ولكن حين يتصل الأمر بقضايا الوطن والثورة والإنسان وحرية العقل، يتحول إلى لهب عاصف يجرف الأعداء والخصوم. ولهذا لم تكن صدفة أن تتشكل في مواجهته كل تلك العداوات والخصومات، على امتداد ترحاله الطويل. فمن الطبيعي لمن واجه فكر التسوية والمساومة والتفريط في الساحة الفلسطينية والعربية أن يواجَهَ بأكثر من هذا، لقد اعتقل ثم طرد من وطنه الثاني مصر، بعد ربع ساعة فقط على ترؤسه لندوة اتحاد الكتاب الفلسطينيين في القاهرة، ضد المخططات الاميركية ومن أجل فلسطين. وكان يمكن أن يسقط شهيدًا برصاص العدو الصهيوني، وهو في خنادق المقاتلين، في بيروت الحصار والمقاومة 1982، والى جواره سقطت الشهيدة اللبنانية "نغم فارس" وكان يمكن أن يتم اغتيال غالب لاحقا. فالرصاص ليس عملة نادرة في هذا المعترك، وكواتم الصوت التي اغتالت ناجي العلي ربما لم تكن لتتركه طويلًا. لو لم ينفجر قلبه ليلة 18/12/1989، بعد نضال طويل دفاعًا عن الإنسان والوطن والثورة وفلسطين ■

تجليّات الذّات في (رحلة جبليّة رحلة صعبة) لفدوى طوقان*

د. سناء كامل الشعلان(*)

1. الذّات في (رحلة جبليّة رحلة صعبة):

تعلن فدوى في سيرتها إنّها لم تعش وجودها إلاّ قليلًا في هذه الحياة[1] في حين كانت حياتها في طوال الوقت مرهونة بأيدي من حولها من بشر، حيث لعبوا أدوارهم في حياتها ثم غابوا[2]، لذلك تقول: "لم أكن يومًا براضية عن حياتي أو سعيدة بها، فشجرة حياتي لم تثمر إلاّ القليل، وظلّت روحي تتوق إلى إنجازات أفضل وآفاق أرحب".[3]

هذا يقودنا إلى ملامح ذاتها التي أنتجتها حياتها المعيشة بما فيها من قسوة، وهي من ترى أنّ "قوى الشّر سواء أكانت غيبيّة أم اجتماعيّة أم سياسيّة تقف دائمًا ضدّ الإنسان، وتعمل على تحطيمه، لكن الإنسان يقف أمام هذه القوى بكبرياء وعناد بالرّغم من ضعفه".[4]

هي في الوقت نفسه تعلن إنّها سوف تحتفظ بكثير من الأسرار التي لن تبوح بها في هذه السّيرة لخصوصيتها، وصونًا للنّفس من الابتذال.[5]

أهمّ ملامح الذّات المعلنة والمضمرة في سيرتها إصرارها على العملّ والإنجاز على الرّغم من معاناتها من القيود المفروضة عليها من مجتمعها وأسرتها، "لاسيما أنّ التّربية والقيم السّائدة تمنح الرّجال حرّيّات جنسيّة وسياسيّة واجتماعيّة أوسع من النّساء"[6]، وهي قيود تصفها جميعًا بالسّخافة والتّفاهة[7]، بالإضافة إلى طبيعتها الفطريّة التي تتلّخص في عدم القدرة على التّمرّد المباشر؛ إذ لم يكن التّمرّد والجموح من مكوّنات شخصيّتها[8]، وهذا أمر طبيعيّ في مجتمع ذكوريّ لا يمكن أن يعطي المرأة حقّها بسهولة حتى في التّمرّد والجموح[9]؛ لذلك فقد كانت دائمة التّفكير في الهرب بحثًا عن الخلاص من العذاب والألم، وفيما بعد جعلت الإبداع الشّعريّ طريقها الوحيد نحو التّخلّص من سائر رموز القهر في حياتها: الأسرة والأب والأقارب ومن ثم السّلطة السّياسيّة الجائرة والحكم الظّالم في مؤسّسات المجتمع الفلسطينيّ بل العربيّ كاملة [10]، فهي -على ما يبدو- كانت تعيش غربة في عالمها، و"الغربة عند النّساء أشدّ" كما تقول نوال السّعداويّ.[11]

منذ طفولة فدوى كانت ضعيفة أمام المواجهة المباشرة بفعل تربيتها الأسريّة الأبويّة الصّارمة في مدينة نابلس** حيث القوانين الاجتماعيّة القامعة للمرأة[12]، بل كانت تعجز عن الدّفاع عن نفسها، ولو بكلمة أمام أيّ ظلم في أسرتها[13]، ممّا قادها إلى اللاّمبالاة كما يقول الآخرون عنها[14]، واستمرّ هذا السّلوك معها في مراحل حياتها كلّها.

أشدّ ما كان يؤلمها في هذه الأسرة أنّها كانت تفتقد

(*) قاصّة وناقدة - الأردن

المحبّة فيها[15] بكلّ أشكالها، والمحبّة هي الكفيلة بإزالة شعور الغربة والظّلم من النّفس[16] كما تفتقد تلبية حاجاتها الطّفوليّة البسيطة، مثل شراء دمية أو قرط ذهبيّ[17]، على الرّغم من ثراء أسرتها التي كانت تتجاهل رغباتها كلّها، وتتعامل معها بمنطق الشّيء لا الإنسان، بجريمة أنّها امرأة.

2. الذّات المنبثقة من الذّوات الأخرى في (رحلة جبليّة رحلة صعبة):

في سيرة فدوى نعرف محدّدات ذاتها الأنثى المقهورة في فلسطين من رصدها ضمن سياق جماعة النّساء في بيتها وأسرتها ومدينتها، وهي ذات تتلخّص في الرّضوخ للقهر المستمر، والاستسلام للحزن الموصول "لقد أصبح الحزن هو العنصر الأساسيّ في حياتي"[18]، فالمرأة تعيش في "قمقم حريميّ مذلّ"[19]؛ فهي محرومة من أيّ شكل من أشكال الخصوصيّة[20]، ومفروض عليها الأميّة والحرمان من التّعليم[21]، ولا تخرج من البيت إلاّ قليلًا وبمرافقة ذكر ما، ولا يكون خروجها إلاّ إلى زيارات نسويّة محدّدة(22)، وكأنّ الذّكر هو طريقتها الوحيدة للخروج إلى خارج البيت، حيث عالم الرّجل[23] ولا حقّ لها في أن تقول له لا، حتى أدمنتْ كلمة نعم[24]، حتى زوجها يُختار لها من أفراد الأسرة، لتعيش قعيدة الدّار يغطّي شعرها المنديل الأبيض[25]، انطلاقًا من قمعيّة القبيلة الذّكريّة التي لا تسمح بزواج المرأة إلاّ من أحد أفرادها[26]، وإلاّ فإنها ستبقى عذراء محبوسة في بيتها حتى تموت؛ فالعذريّة الجبريّة نوع من أنواع سلطة الرّجل الشّرقيّ على نسائه[27]، وليس لها حياة خاصّة أو صديقات أو فعاليّات سوى خدمة الرّجل وإطاعته حتى تشيخ، وهي في العشرينات من عمرها.[28]

لم تكن ذات فدوى في حياتها إلاّ ذاتًا مقهورة في بيتها ومحبوسة فيه بشكل قهريّ[29]، لتصبح صورة من صور الطّابع الواحد المفروض على إناث عائلتها[30]، وإلاّ فستواجه القمع والضّرب والإهانة[31]، وهذا السّجن الحريميّ الجبريّ قادها إلى الانعزال والفرديّة والغربة والانكماش في قمقم ذاتي مغلق[32] في مجتمع "برجوازيّ يراها مخلوقة شاذّة غير اجتماعيّة"[33]، محرّم عليها أن تلبس ملابس قصيرة، أو أن تعزف الموسيقى، أو أن تغنّي، أو أن تضحك، أو حتى أن تفرح.

باختصار إنّ قمعها بهذا الشّكل هو تمثيل لقهر المرأة بوصفه جزءًا من الصّراع الفكريّ والانفصام الذي يعيشه الرّجل في المجتمع الشّرقيّ.[34]

3. الذّات القامعة في (رحلة جبليّة رحلة صعبة):

تتولّد الذّات الجمعيّة في سيرة فدوى عن ذوات قامعة لذاتها ولجنسها؛ فالغريب أنّنا لا نجد المرأة في عالم فدوى تناصر المرأة، وتشفق على ظلمها، بل تتحوّل هي الأخرى إلى ذات أبويّة تجلد المرأة، وتجلد نفسها، وتنتصر للرّجل في كلّ أمره؛ فأمّ فدوى تتنكّر لفدوى، وتحرمها من حنان أمومتها؛ لأنّها لم تكن تريد أن تنجبها أساسًا، وعملت على إجهاضها[35]، وتتشاءم منها؛ لأنّ نفي والدها خارج البلاد تزامن مع ولادتها[36]، ولا تتذكّر أيّ معلومة تخصّها من تفاصيل طفولتها حتى تاريخ ميلادها لا تعرفه[37]، وتساهم في حرمانها من الذّهاب إلى المدرسة لمجرّد أنّها قد حصلتْ على وردة من شاب صغير في الحيّ، ولا تحاول أبدًا أن تساعدها في الخروج من سجنها البيت، على الرّغم من معاناتها الشّخصيّة من هذا الحصار الدّائم الذي كان مفروضًا عليها مثل سائر

نساء الأسرة.[38]

من جهة أخرى نرى العمّة "شيخة" تلعب دور البوليس السرّي في العائلة، فتراقب النّساء بمنطق الرّجال، وتنقل التّقارير السّريّة للرّجال عن سلوك نساء الأسرة[39]، وتحرّض على قمعهنّ لاسيما قمع فدوى التي تغار من اهتمام أخيها إبراهيم بشاعريّتها، وهي من تحمل شعارًا عنصريًّا ضدّ النّساء جميعهنّ يتلخّص في "كلّما طلع للبنت قرن اكسره"[40]، وتثور على فكرة أن تكتب امرأة الشّعر مثل الرّجال.

في السّياق نفسه نجد "شهيرة" ابنة العمّ وأمّها ونساء الأسرة يناصبن فدوى العداء؛ لأنّها تكتب الشّعر، بل إنّ معلّماتها غير القارئات أو المثقّفات كُنّ يلقينها بروح عدائيّة، ويجرحن شعورها في كلّ فرصة مواتية[41]، إذ عندما تقرّر المرأة أن تكتب، أيّ أن تنتج الثّقافة فلا بدّ أنّها ستخلق سلطة لها، وهذه السّلطة مثل أيّ سلطة "تخلق خصومها من داخلها، وتغذّي معارضتها بقدر ما تكبحها".[42]

إنّ خيانة المرأة للمرأة، ووقوفها ضدّها لصالح الرّجل إنّما هي امتداد لنظام ثقافيّ موروث وإجباريّ يضع المرأة ضدّ المرأة[43]، وذلك في صراع منافسة طويل تحكمها "قواعد الرّجل وشروطه".[44]

4. الذّات والصّراع في (رحلة جبليّة رحلة صعبة):

سيرة "رحلة جبليّة رحلة صعبة" هي كما يقول الشّاعر الفلسطينيّ سميح القاسم عنها "شاهد ثقة على الانشطار الهائل بين الحلم الجامح من جهة والواقع المُقعد من جهة أخرى"[45]، وهي تجسيد لهموم المرأة عبر إبراز همومها بكلّ صدق وصراحة وفق كلام رجاء النّقاش[46]، وهي تجسيد لإيمان فدوى بأنّ الكفاح/ الصّراع ما يُعطي للحياة قيمة ومعنى[47]

المسافة بين الذّات والآخر هي من تخلق الصّراع، وتصنع أشكاله وأدواته، وهذه السّيرة من أشكال هذا الصّراع؛ "فالأدب يرتكز في مضمونه على الصّراع، سواء انتهى هذا الصّراع بالفشل أم بالنّجاح".[48]

لقد برزت في سيرة "رحلة جبليّة رحلة صعبة" الكثير من مستويات الصّراع، وهي:

1. الصّراع مع الذّات: "إنّ الشّيء الأكثر أهمّيّة هو ما يحدث فينا لا ما يحدث لنا"[49]، هذا ما تؤمن فدوى به؛ لذلك تشرع تصارع ذاتها المثقلة بالحزن والكآبة والهزيمة بسبب سجنها في بيتها، وتحاول أن تهرب من وحدتها التي غدت جزءًا من طبيعتها.[50]

2. الصّراع مع الأسرة ومع ميراثها الفكريّ[51]،بما فيه من احتقار للمرأة وقمع لها، واستعلاء على عامة البشر[52]، وضدّية لها، ومحاولة لزعزعة ثقتها بنفسها[53]، وتجريحها بسبب شكلها غير الجميل في نظر أسرتها.[54]

3. الصّراع مع المجتمع الفلسطينيّ في مدينة نابلس في الثّلاثينّات والأربعينّات والخمسينّات والسّتينّات من القرن الماضي، بما فيه من قيم انغلاق وخرافات وأبويّة مطلقة.[55]

4. الصّراع مع الموت، فهو من كان يضرب سعادة فدوى في كلّ مرّة[56]؛ لذلك فقد سيطر عليها بشكل دائم، وهو من حرمها ممّن أحّبت، وكانوا أنصارها في الحياة، وعلى رأسهم عمّها وأخوها إبراهيم وأخوها نمر، وأورثها شعورًا دائمًا بالهزيمة والضّعف أمامه[57]، وهي من تراه آخر حلقات الفقد التي الإنسان منه في حياته.[58]

5. انتصار الذّات وتحرّرها بفعل الكتابة:

تُعلن فدوى أنّ فعل الكتابة/ نظم الشّعر هو فعل حرّيتها وانتصارها على كلّ ضعفها ومعاناتها، فهو

كما تقول: "أصبح الشّعر شغلي الشّاغل في يقظتي ونومي في وجداني وضميري، أصبح حبّي الذي ظلّ طيلة حياتي حبًّا صوفيًّا، ليس بالمعنى الدّينيّ، بل بما في هذا الحبّ من شدّة، وبما يبعثه في أعماقي من نشوة باهرة"[59]، وهي من ترى التّحرّر فيه وبه طريقها إلى شتّى أشكال الحرّيّة[60]، وفيه تمارس كلّ ما حُرمت منه في الحياة لاسيما الحبّ والرّجل؛ لذلك كانت تختار رجالها العشّاق من الشّعراء العرب القدامى، وتحاول أن تنسج الشّعر على منوالهم بشكله التّقليدي الرّصين[61]، وبه استطاعت أن تخرج من وحدتها، وأن تتواصل مع الجماهير في فلسطين وفي العالم كلّه [62]، وإن كان الخروج على السّلطة يحتاج إلى ابتكار طريقة له.[63]

فيما بعد تحوّلت الكتابة عندها إلى فعل تسامح؛ فقد شعرتْ بالامتنان لكلّ من خنقها، وعاملها بقسوة، فأجّج بسلوكه مشاعرها، وفجّر شاعريّتها، وجعلها تتشبّث بمطمحها الأدبيّ[64]، وإن بقيت تتألم بشدّة من كلّ لسان يحاربها بزعمه إنّ أخاها الشّاعر إبراهيم هو من يكتب الشّعر لها، ويذيّله باسمها.[65]

وهذا أمر غير غريب في مجتمع ذكوريّ يرى الفحولة الإبداعيّة ترتبط بالرّجل وبعيدة عن المرأة[66]، وإذا كتبت المرأة فمن المؤكّد أنّ الرّجل هو من يكتب لها. بذلك غدا الشّعر هو موقفها تجاه الحياة، فعندما تتأجج الظّروف السّياسيّة والوطنيّة تتأجّج شاعريّتها[67]، وعندما يهزم الوطن تدافع عنه بالكلمة[68]، وهي ترى استمراريتها في الحياة لا تكون إلاّ من خلال استمرارها في فعل الكتابة الذي يساوي عندها فعل الحياة والانتصار؛ لذلك تختم سيرتها بالجملة القراريّة التّالية: "سأكتب، سأكتب كثيرًا، أحسّ أنّني أعيش كلّ دقيقة من زمان المسرحيّة، ويهزّني كلّ فصل من فصولها، فإذا بي أنا نفسي قصيدة ملتاعة، كئيبة، تتطلّع إلى ما وراء الأفق".[69]

بذلك ينقذها الشّعر من السّقوط في التّطرّف والخرافات الذي وقعت عمتها "الشّيخة" فيها[70]، أو من الهروب إلى عوالم أحلام النّوم واليقظة للتّنفيس عن كبتها[71]، أو من السّلبيّة واللامبالاة إزاء أسرتها ومجتمعها[72]، أو الاستسلام للمزيد من البكاء والوحدة والغربة والهروب، وكره النّفس واحتقارها[73]، أو تحقيق أحلامها بسريّة وتكتّم، مثل تعلّم الرّقص والغناء والعزف[74]، والتّستّر خلف أسماء مستعارة للتّعبير عن رأيها[75]، أو اللّجوء إلى الانتحار للهرب من الواقع المرير.[76]

لقد اكتشفت فدوى طوقان الشّعر فيها منذ طفولتها، وهربت إليه من الدّنيا كلّها، فقد كانت شخصيّتها وظروفها تقودها إلى ذلك، إلى جانب أنّ الخاصّية الأهمّ للشعر أنّه انفعاليّ وتدفّقي ومرهون باللّحظة؛ لذلك عليه أن يتزامن مع التّجربة الشّعوريّة، ولا يتخلّف عنها زمنيًّا، مثل النّثر القصصيّ أو الرّوائيّ ■

الإحالات:

* فدوى طوقان (1917-2003): من أهمّ شاعرات فلسطين في القرن العشرين، لُقّبت بشاعرة فلسطين، حيث مثّل شعرها أساسًا قويًّا للتّجارب الأنثويّة في الحبّ والثّورة واحتجاج المرأة على المجتمع، وكُتب على قبرها قصيدتها المشهورة بناء على رغبتها: "كفاني أموت عليها، وأدفن فيها".

من أعمالها النّثريّة: أخي إبراهيم، ورحلة صعبة- رحلة جبليّة (سيرة ذاتيّة) 1985م، والرّحلة الأصعب (سيرة ذاتيّة). من دواوينها الشّعريّة: وحدي مع الأيام، وجدتها، أعطني حبًّا، أمام الباب المغلق، اللّيل والفرسان، على قمة الدّنيا وحيدًا، وتموز والشّيء الآخر، اللّحن الأخير.

■ للاطلاع على بقية الإحالات، مخاطبة كاتبة الدراسة الدكتورة سناء كامل الشعلان: selenapollo@hotmail.com

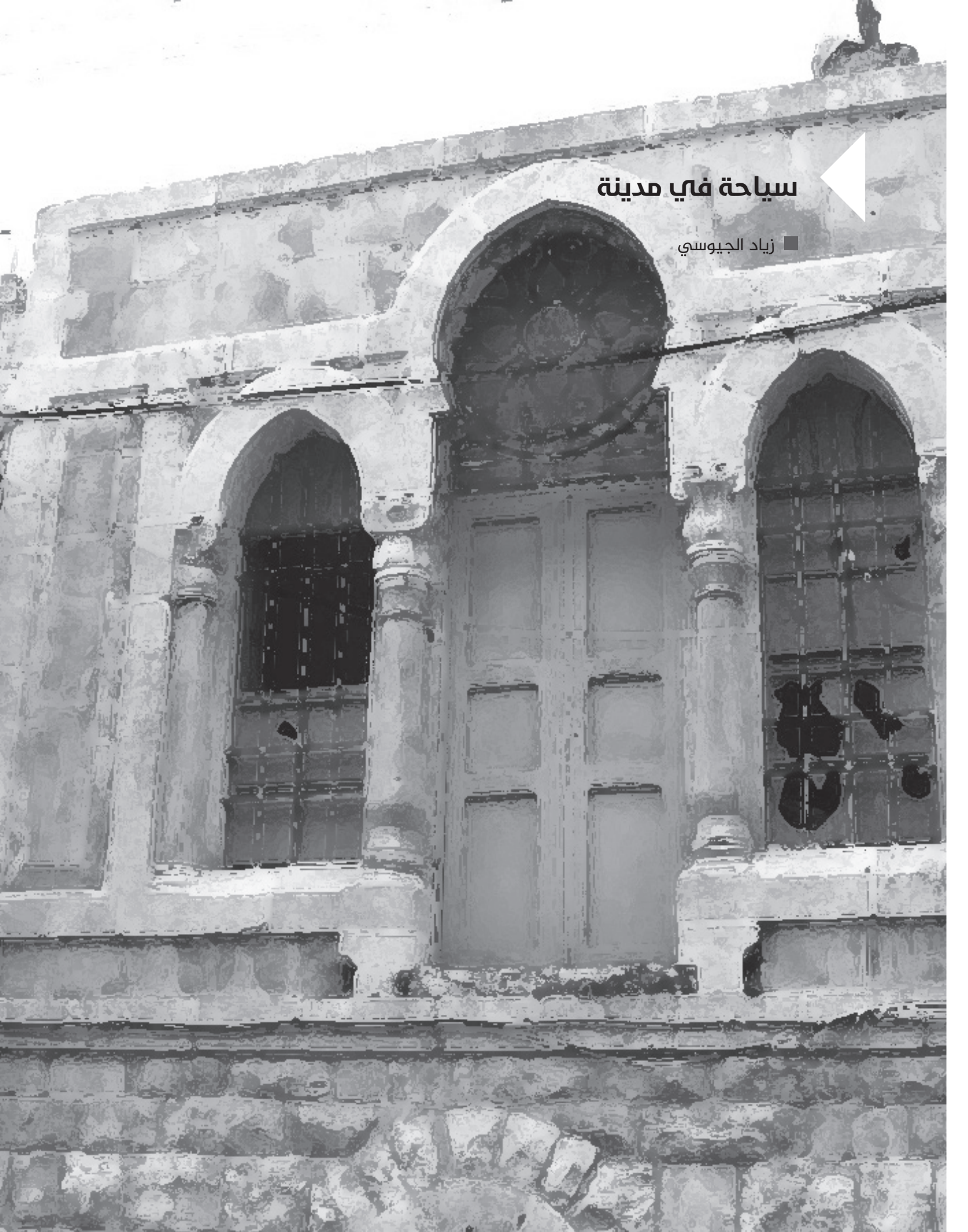

سياحة في مدينة

زياد الجيوسي

في رحاب خليل الرحمن

زياد الجيوسي(*)

منذ عودتي للوطن كانت زيارة مدينة الخليل حلما يراودني، فالحلم كان يجول بين القدس وبيت لحم والخليل ودوما كان الحلم هو البداية ليتحول الحلم إلى واقع، ففكرة أن تعانق روحي مدينة الخليل بعد اشتياق طويل، ليست بالمسألة التي تمر كنسمة عابرة في الروح، فالخليل تسكنني منذ بداية ما احتفظت به الذاكرة الأولى في طفولتي المبكرة في تلك المدينة الجميلة في جنوب الأردن، الكرك، وحين عبرت الخليل أكثر من مرة بمرور عابر، كانت روحي وقلبي تحلقان نحو البلدة القديمة ونحو الحرم الإبراهيمي فيتجدد الحلم.

حين زرت الخليل متفرغًا للتجوال فيها تلبية لرغبة دارا تلك الشابة الصغيرة من عنبتا برفقة الناشطة سوسن نجيب الناشطة في محافظة طولكرم في المجال الثقافي، كانت روحي تسبقني لهناك، فاتصلت مع الأصدقاء الدكتور خالد سدر وكان مدير صحة الخليل في تلك الفترة، ومع زوجته السيدة وصال حمدان لترتيب زيارتنا في تراث الخليل وحكايات التاريخ فيها والجمال، فكان اللقاء في مدخل المدينة وللمصادفة عند مكتبة تحفل رفوفها بكل ما تحلم به الروح من كتب، ومن هناك اتجهنا للبلدة القديمة وما إن أطللنا عليها حتى بدأت روحي تستمع لهمسات الأجداد ترويها الأزقة والدروب والحجارة، فكل حجر يروي حكاية من حكايات الخليل، ومجمل الحكايات تشكل رواية من روايات الوطن التي تروي ملحمة التشبث بالأرض والوطن، منذ ضرب كنعان أول ضربة معول في الأرض الفلسطينية من أكثر من عشرة آلاف وخمسمئة عام في مدينة أريحا، فأوقفنا المركبة في موقف قريب من ميدان الرئيس محمود عباس الذي افتُتح عام 2012 لنواصل المسيرة على الأقدام، وقبل أن ندخل البلدة القديمة المسقوفة كانت الأبنية التراثية تشدني بقوة، فلا أتوقف، ونحن نسير بالأسواق وأولها سوق القصبة الذي ينتهي بقنطرة خزق الفار، وهو واجهة الخليل القديمة، عن التقاط الصور، فالمباني بغالبيتها مبانٍ تراثية تروي حكايات وحكايات، مبنية بالحجر وبغالبيتها ذات نوافذ مستطيلة قوسية من الأعلى مع نقوش جميلة، وبعضها مغطى بالقرميد الأحمر، لنجول أسواقًا مختلفة مثل سوق الحصرية الذي اشتُهِرَ بصناعة الحصر المصنوعة من القش أو النخيل إضافة للبسط المصنوعة من شعر ووبر الحيوانات

(*) باحث - فلسطين

وبيعها، ثم سوق اللحامين وهذه أسواق تعتبر امتدادًا طبيعيًّا لسوق القصبة في طريق الحرم، ومررنا بسوق الزياتين الذي اختص ببيع الزيوت وخاصة زيوت السمسم التي اشتهرت بها معاصر الخليل وزيت الزيتون، اضافة لسوق اللبن الذي اختص بالألبان، وسوق الغزل الذي كانت تغزل وتباع فيه بيوت الشعر، إضافة للبسط المصنوعة من شعر ووبر الحيوانات، فتجولت في الأسواق في هذا العبق التراثي مثل سوق الإسكافية في حارة العقابة وسوق الخضار في حارة المحتسبية وسوق القزازين والمغاربة.

وهذه الأسواق لم تعد متخصصة كما الماضي، فالصناعات الصينية والمستوردة غزتها، مما أثر على الصناعات التقليدية التي اشتُهِرَت بها الخليل وخاصة الصناعات الجلدية وصناعة الأحذية.

وفي كثير من المناطق دخلنا في بوابات وشوارع تحت الأبنية، حيث يكون الممر على شكل عقود وأقواس (قنطرة)، وبيوتات الخليل التراثية متميزة بنمطها المعماري وأشكالها، فهي تختلف عن نظام الأحواش المنتشر في ما يزيد عن 400 منطقة في فلسطين، ويختلف عن بيوتات العقد المنتشرة في بعض القرى، ولعل نمط الأبنية وتميزه يعود لطبيعة الموقع، فهناك الحرم الابراهيمي والمعتقد أنَّ سيدنا ابراهيم وزوجته سارة ويعقوب وإسحق وزوجاتهم دفنوا في المكان الذي مرَّ إنشاؤه بفترات زمنية مختلفة حتى أصبح مسجدًا ومكانًا للعبادة، كل فترة كان لها دورها بالبناء والإنشاء والاستخدام. وكون الخليل القديمة أُنشِئت في وادي الخليل الذي يمر من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي، وهذا الوادي الذي كانت تجري فيه المياه كان جنة للمزروعات وخاصة عنب الخليل المشهور عبر العصور، والفاكهة بأصنافها إضافة للزيتون. وإضافة لواد الخليل ساهمت ينابيع الماء الكثيرة بنمو المدينة ومحافظتها على العمران عبر العصور التاريخية المتعاقبة، على الرُّغم من أنَّ بدء تشكلها بمحيط الحرم الابراهيمي أبعدها عن تل الرميدة الذي كان الأساس للمدينة حين أنشأها الكنعانيون، وكونها مدينة تاريخية اختلفت عن غيرها من المدن التي أُنشئت في الفترة العربية الاسلامية التي كان المسجد فيها هو مركز المدينة، ومن حوله مقر الحاكم ومؤسسات الدولة، ومن ثم التوسع بالبنيان والأحياء بشكل شعاعي، ونلمس في الخليل أنَّ المباني التراثية والأحواش الصغيرة والكبيرة متصلة مع بعضها سواء بالتلاصق أو عبر القناطر، وعامة البيوت التراثية تتكون من طابق أرضي تختلف عدد الغرف فيه إضافة لوجود قبو تحته، وعادة الطابق الثاني لا يختلف كثيرًا، وفي بعض الأحيان توجد العِلِّيَّة فوق المبنى ولها كما نظام المباني التراثية سلم حجري خارجي للصعود اليها. وفي تجوالي في حارات وأحياء البلدة القديمة كنت ألمس بوضوح أنَّ معظم المباني في قاعدتها من الفترة المملوكية، واعتلتها مبانٍ من الفترة العثمانية، وكانت جميعها تُبنى من الحجارة والجير المخلوط بالرماد ومخلفات الزيوت التي تعرف باسم (الزيبار)، وشوارعها مبلطة، وأسقفها كان الخشب مادة أساسية فيها.

ولعل من المسائل المهمة في حارات الخليل المختلفة أنَّ مداخل للبيوت والأحواش تتصل بالشارع الرئيس عبر مدخل فرعي يتصل بساحة تلتف البيوتات والأحواش من حولها، فتمنح البيوت والسكان خصوصية جميلة وعلاقات اجتماعية

جيدة، وهذه العلاقات من مميزات أهل الخليل، فقد شاهدت العديد من العيادات والمراكز قامت على تبرعات أهل الخليل، إضافة لمشاركتهم ببناء المساجد والعيادات حتى خارج الخليل، وقد زرت برفقة الدكتور خالد سدر أثناء تجوالي عيادتين، إحداهما عبارة عن مبنى ضخم تحت الإنشاء من عدة طبقات جرى التبرع بالأرض وتكاليف البناء والإعداد، ليكون مدرسة أطفال وقاعة اجتماعات واحتفالات وعيادات ومسجد المنشر، وكلها بتبرعات خالصة لوجه الله تعالى من أهل الخليل.

وفعليًّا لم يكن الحرم الابراهيمي المركز للبناء، فقد كان في طرفها في البدايات وإن كانت الأحياء التي بنيت اعتمدت أزقتها وطرقها لتكون طريقها نحو الحرم، ومثالًا لذلك نجد الطريق الرئيس والذي يبدأ من عين العسكر مرورًا بحارة القزازين ومن عند قنطرة خزق الفار يتجه شمالًا حتى ينتهي عند الحرم، ومن يجول دروب الخليل وأحياءَها يجد تميزها عن غيرها من المدن، وتتميز الخليل بمحافظتها على الوجود البشري فيها عبر العصور المتعاقبة، وعلى الرُّغم من الاحتلالات المتتالية للمدينة، وعلى الرُّغم من التدمير والتهجير والقتل، إلَّا أنَّ كل القنوات المائية والزوايا والمساجد والبرك والآثار والمباني التراثية تؤكد ذلك.

كلما جُلْتُ في البلدة القديمة متجهًا نحو الحرم الابراهيمي كنت لا أتوقف عن سماع همسات الحجارة وأرواح الأجداد تروي لي عبق التاريخ، فليس أجمل من الاستماع لهذه الهمسات وهي تروي لنا الحكايات، وتروي لنا تاريخ الخليل منذ أنشأها كنعان وحتى اللحظة التي كنا نجول في دروبها، فمدينة الخليل والتي استمدت اسمها الحالي من لقب سيدنا ابراهيم أبو الأنبياء حيث لقب باسم خليل الرحمن، مدينة ضاربة الجذور في تاريخنا، فهي تعود حسب بعض المصادر الى أكثر من خمسة آلاف عام، وحسب مصادر أخرى تزيد عن أربعة آلاف عام، ولكن من المثبت أنَّ الكنعانيين هم من أنشأها، وسُمِّيَت قرية أربع نسبة إلى الملك الكنعاني أربع وفي اللغة الآرمية (كريات أربع) ونجد الآن أقذر مستوطنة أقيمت في الخليل على أراضيها وقرب الحرم الابراهيمي وتضم فيها اشد المستوطنين الغزاة تطرفًا، تحمل نفس الاسم في محاولة لتزوير وسرقة التراث والتاريخ الكنعاني لفلسطين، ونسبته لتراث عبراني مزور ليس له أي ذكر أو وجود، وتفسر بعض المصادر الاسم بأنه يعني التلال الأربعة أو القبائل الأربعة، وأنا أكثر ميلًا لنسبتها للملك الكنعاني أربع، وهو أبو عَناق وكانوا يوصف وشعبه بالجبابرة، فالممالك الكنعانية في تلك الفترة وردت بأسماء حكامها مثل جبعون (الجيب) من قرى القدس نسبة لحاكمها جبعون، وبعدها سميت الخليل حبرون وبعض المصادر تنسب هذا الاسم للحبر وبما يعني التوثيق والكتابة، لكن أعتقد أنَّ الاسم يعود للملك (حبري) الكنعاني، وهو ليس ملكًا حِثِّيًّا كما أشارت بعض المصادر وخاصة التوراتية، فالمملكة الحِثِّيَّة لم تكن في فلسطين، فقد ظهر الحِثِّيّون بعد أن احتلوا مدينة بابل قبل الميلاد بحوالي 1600 عام تقريبًا، وهم مجموعة شعوب خليطة تكونت من مزيج من الشعوب الهندأوروبية، كما كانت لغتهم أيضًا خليطًا من اللغات، ومملكتهم ظهرت في شمال سورية ولم تعمر طويلًا فسقطت وتمزقت، ولا يَرِدُ ذكر الحثيين في فلسطين إلَّا عبر

عدسة زياد الجيوسي

المصادر التوراتية كأفراد وليس شعوب، وما يؤكد كنعانية حبري أو عفرون كما يرد اسمه أحيانًا، أنَّه وحسب المصادر التوراتية هو من باع المغارة الواقعة في الوادي على أطراف البلدة، وليس في تل الرميدة حيث التجمع السكاني للملكة الكنعانية لسيدنا ابراهيم بأربعة شواقل، والشاقل عملة كنعانية، وهنا يبرز التزوير والسرقة مرة أخرى لدى الصهاينة، فالمصادر الأخرى تشير أنَّ الملك حبري وهب سيدنا إبراهيم مغارة (مكفيلا) مجانًا ليسكنها ولم يبِعْها له، والتي أُنشئ الحرم الابراهيمي عليها، والصهاينة يستخدمون الشاقل عملة التداول من سنوات طويلة تحت ادعاء أنَّها كلمة عبرية وعملة إسرائيلية، وهي كنعانية الأصل والمعنى والتاريخ حتى في عهد سيدنا ابراهيم، الذي أتى الخليل قادمًا من مدينة أور السومرية، فوجد أبناء كنعان من يحكمون الأرض من فترة قديمة، وعملتهم الشاقل هي عملة التداول، وهذا يدحض كل الادعاءات الصهيونية أن فلسطين لليهود، مضافًا أنَّ سيدنا ابراهيم كان موحِّدًا ولم تكن هناك أصلًا ديانة يهودية إلَّا في فترة لاحقة.

في تجوالنا زرنا متحف البلدة القديمة الواقع في حارة الدارية قرب خان الخليل، وهذا المتحف كان في الأصل حمَّامًا تركيًّا جرى تحويله إلى متحف بقرار من الرئيس ياسر عرفات رحمه الله، وتجولنا في عبق التاريخ وتراثه، فمن عدد كبير من الجرار الفخارية التي تعود لعصور مختلفة، والتوابيت الحجرية التي تعود للعصر الروماني، مرورًا بالعديد من الأدوات التراثية التي لم يعد لها وجود الآن مثل آلة (جلخ المقصات والسكاكين) والتي أذكرها طفلًا، وقطع صغيرة كثيرة منها العملات القديمة ومكاحل النساء والفوانيس الصغيرة، وأدوات كانت تستخدم للحفر وللأرض، واللوحات والصور التي تروي بعضًا من حكايات التراث، وبعض الملبوسات الشعبية.

وقد رافقنا بالجولة مشرف المتحف يشرح لنا عن هذه الآثار والأدوات التراثية، وأضاف لعبق التاريخ إضافة أخرى طبيعة المكان الذي يعود بناؤه لفترة قديمة، فخرجت من المتحف وقد حلَّقتْ روحي في ماضينا الجميل عبر العصور.

من زقاق إلى زقاق كنت أشاهد وألمس حجم الاستيطان في البلدة القديمة، فهناك بيوتات جرى احتلالها بالكامل، وبعض المناطق غُطِّيت بالأشباك المعدنية كي تحمي المارة من قاذورات المستوطنين الذين احتلوا البيوت فوق المتاجر، إضافة لبوابات تمَّ إغلاقها بالكامل من قبل الاحتلال كي يمنع أبناء الأرض من التجوال في بلدتهم ويتركها نهبًا للمستوطنين، حتى وصلنا إلى التكية الإبراهيمية وهي جمعية خيرية تقدم الطعام مجانا للفقراء والأسر المحتاجة عبر العام وليس كما المعتاد في رمضان فقط، وهذه التكية تم إنشاؤها عام 1279م في

عهد الناصر صلاح الدين، وأنشأها السلطان قالون الصالحي، ولهذا عرفت الخليل عبر العصور بأنَّها المدينة التي لا تعرف الجوع، والتكية تقع بالقرب من الحرم الإبراهيمي، وإن كان الخيال الشعبي يجنح بالقول إنَّ التكية تعود لفترة سيدنا إبراهيم، والذي يقال إنَّه كان لا يأكل إلَّا مع أي ضيف عابر، وإنَّه كان يقدم الطعام لعابري السبيل بكرمه الذي يُروى عنه في نفس المكان المقامة به التكية الآن.

من حارة إلى حارة ومن زقاق إلى زقاق كنت أجول الخليل القديمة، وحيثما سرت كنت أشعر بعظمة الأجداد الذين حفروا الصخر بأظافرهم، وتجولت في عدة حارات منها حارة القزازين وهي الحارة الوحيدة التي حملت اسم صناعة الزجاج الذي تشتهر به الخليل عبر الزمان، وحارة الدارية نسبة لمن سكنها من نسل الصحابي تميم الداري، وحارة السواكنة التي ينسب اسمها الى السيدة الصالحة سكينة ابنة الشيخ سليمان الحسيني، وحارة العقابة أو العقبة وسميت بذلك كونها مرتفعة قليلًا عما حولها، وأسم العقبة منتشر في الكثير من البلدات الفلسطينية مثل القدس ونابلس وغيرها، وحتى إنَّ بلدتي "جيوس" وهي بلدة صغيرة يوجد بها منطقتان تحملان الاسم إحداهما العقبة والثانية عقبة الجيوسي، كما تجولت في حارات المدرسة والحوشية والمحتسبية غرب الحرم وحَمَلَتِ الاسمَ من وظيفة المحتسب وحارة القلعة نسبة للقلعة الصليبية بجوار الحرم الابراهيمي، وزرت العديد من المساجد القديمة ولعل أهمها مسجد ابن عثمان، ويعتبر ثاني أقدم مسجد بالمدينة بعد الحرم الإبراهيمي ويقع في أول حارة العقابة، بالقرب من سوق الإسكافية في طريق الحرم الإبراهيمي، وقد تجولت كثيرًا وأنا أتأمل البيوتات التراثية التي تختلف بمستواها في البناء والشكل حسب الوضع الاجتماعي لمن بنوها.

وقبل أن أنهي الجولة الأولى كنا نزور الأخ عماد حمدان مدير عام لجنة إعمار الخليل، وهو شاب في غاية اللطف استقبلنا بكل ترحاب، وحدثنا عن الدور الذي لا يختلف عليه أحد، عن الدور الرائع والمهم لهذه المؤسسة الرائدة في إعمار البلدة القديمة على الرُّغم من كل المعيقات ودور الاحتلال، فهذه المؤسسة شُكلت بمرسوم رئاسي من الرئيس الشهيد ياسر عرفات في شهر آب 1996من شخصيات المحافظة ومؤسساتها لهدف تحسين الظروف المعيشية للسكان من خلال ترميم البيوت والمحافظة عليها وربطها بالبلدة الحديثة، وإعادة إحياء البلدة القديمة من خلال الترميم وإعادة تأهيل البيوت المهجورة وتأهيل البنية التحتية ودعم السكان للصمود في مواجهة الاحتلال وغول الاستيطان، وقد تحدث لنا الأخ عماد عن بعض من نشاطات المؤسسة وخاصة في مجال إعادة الترميم والمحافظة على روح البلدة التراثية، فقد قامت بإزالة الشوائب التي لا تتناسب مع طبيعة البلدة وتراثها للمحافظة على النمط والتراث المعماري، فتمت إزالة واجهات إسمنتية شوَّهت مشهد البلدة التراثي، وجرت إزالة الكثير من الإضافات التي لا تناسب طبيعة الأبنية الحجرية في بعض الأحياء وفي الحرم الإبراهيمي، وهذا الدور للمؤسسة أعاد عدد السكان الى ما يصل الخمسة آلاف نسمة الآن، بينما كان العدد قد انخفض الى 400 مواطن عام 1996، إضافة للنشاطات الثقافية والتراثية وغيرها بالتعاون مع كل المؤسسات ■

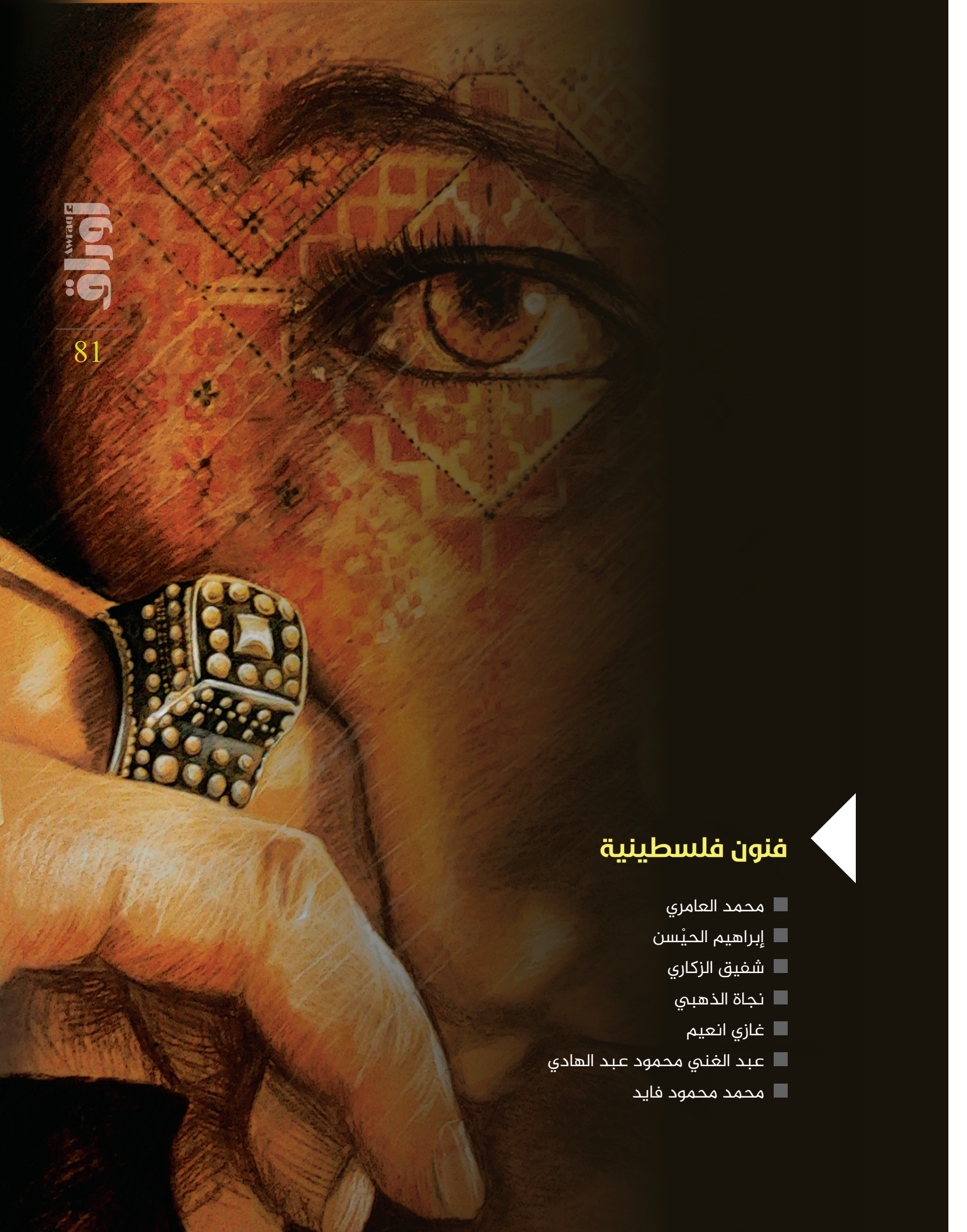

فنون فلسطينية

- محمد العامري
- إبراهيم الحيْسن
- شفيق الزكاري
- نجاة الذهبي
- غازي انعيم
- عبد الغني محمود عبد الهادي
- محمد محمود فايد

الفن التشكيلي الفلسطيني:
ريشة بلون الدم

محمد العامري(*)

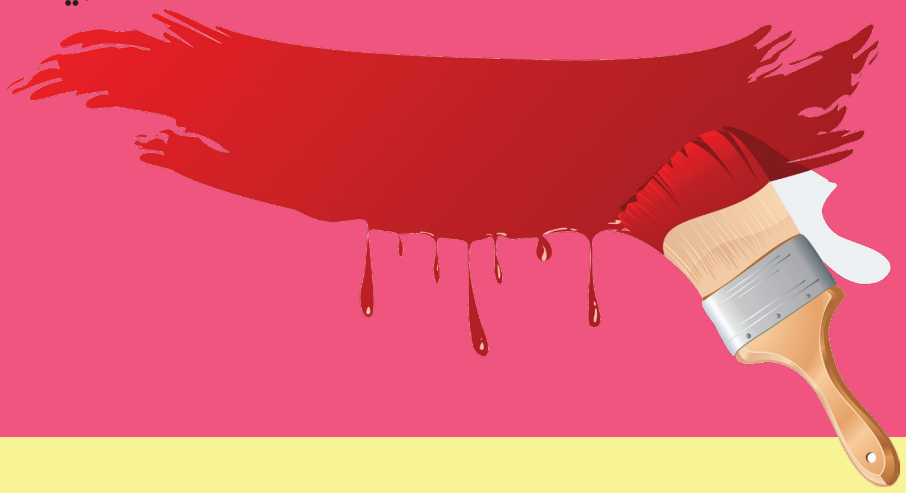

لعب الفن التشكيلي دورًا أساسيًّا وهامًّا في المقاومة الفلسطينية ضدَّ الكيان الصهيوني المحتل، من خلال نقله الواقع الذي يعيشه الفلسطينيون وصولًا إلى تأريخ الحياة الفلسطينية والتهجير المتواصل من قبل الاحتلال، إضافة إلى دوره التعبوي والتوعوي بعدالة القضية الفلسطينية وضرورات المقاومة كخيار ثقافي شامل بدءًا من المزارع وانتهاءً بحمل السلاح، بكون المقاومة هي فعل شمولي يتنامى ويتراكم في ذاكرة الأجيال اللاحقة، أي العمل على توريث حالة المقاومة كحالة يومية وتاريخانية.

يأتي هذا الملف كصورة أخرى من صور المقاومة وتعرية بشاعة الاحتلال وسلوكياته غير الانسانية تجاه اصحاب الأرض والحق.

ولا تكاد تخلو لوحات التشكيليين الفلسطينيين من فعل مقاوم عبر أكثر من موضوعة وتقنية منها الأعمال التركيبية "انستليشن"، والأعمال الأدائية "بيرفورمانس" والغرافيك والنحت والكاريكاتور والتصوير والرسم وصولًا إلى البوستر الذي شكل مناخًا مقاوِمًا فاعلًا وجماهيريًّا.

فقد سادت مجموعة من المفردات التشكيلية في مجمل أعمال الفلسطينيين كصورة الأمكنة وطبيعة العمائر التي شكلت تراثًا خاصًّا بأهل فلسطين، وكذلك مفردة الشهيد والكوفية في إشارة إلى الهوية الفلسطينية والتي أصبحت علامة بصرية على المستوى العالمي، واللون الأحمر إشارة إلى دماء الشهداء، وكذلك عنصر القيود والسجون والشمس وشجر الصبار والحمامة البيضاء والقبضة القوية والبرتقال والصرخات التي تنز من قماشة اللوحة

(*) تشكيلي وناقد - الأردن

والقدس بقبتها الذهبية وغيرها مما له صلة مباشرة بالمقاومة ومعاناة الشعب الفلسطيني الذي سطّر صورة استثنائية في الثبات على حقه في المقاومة لتحرير أرضه من ربقة الاحتلال.

وقد كان التشكيليون الفلسطينيون ولوحاتهم أحد أهداف الاحتلال، فقد تعرضوا للاعتقال والتنكيل بهم، بل وصودرت أعمالهم الفنية في أكثر من معرض لقناعة الاحتلال بقوة العمل الفني في التغيير والمقاومة.

لم يألُ الكيان الصهيوني جهدًا إلَّا ومارسه على الفنانين الفسطينيين من منع للسفر وكذلك مصادرة بعض الأعمال التي تكشف سوْأتهم، تلك الإجراءات التي تعبر عن خوف دفين في ثقافة الاحتلال، خوف من نقل الواقع الأليم للمجتمع العربي والدولي، كل ذلك لم يمنع الفنان الفلسطيني من تسجيل ألوان المعاناة والعذاب للتاريخ.

وقد احتلت النكبة الفسطينية مساحة شاسعة في التشكيل الفلسطيني كما تحتل جرائم اغتيال القادة الفلسطينيين مساحة أخرى.

إنَّ الشعب الفلسطيني الذي مازال يرزح تحت الاحتلال ويعاني كل يوم من ظلمه وبطشه ساهم في تدوين ما يجري بالريشة والوسائط الفنية العديدة التي يتفاعل معها العالم أجمع بوصفها لغة عالمية مفهومة.

لذلك يشكِّل الفن التشكيلي مساحة رئيسة لشحذ الهمم وإنارة الطريق للناس عدا كونه يعكس واقعًا مؤلمًا، وانعكس ذلك في التعبير عن وجدان وشعور وتفكير المواطن الفلسطيني وواقع المعاناة ومحاولات اقتلاع الإنسان وسبل المقاومة بشتى الطرق.

وثائق بصرية تكشف سوْأة الاحتلال:

يكاد يتفرد الفن التشكيلي الفلسطيني بصفات غير موجودة في مساحات الوطن العربي، كما لو أنه اختُصَّ بمفاهيم المقاومة ومعاندة العدو، حيث لعب الفن التشكيلي دورًا نهضويًّا لارتباطه بقضايا الوطن والإنسان، وبات الفنان الفلسطيني على قناعة بأن ممارسة الرسم تعني مزيدًا من حب الأرض والتمسك بها، فقد شكّل شجر الصبَّار والزيتون والمسجد الأقصى وقبة الصخرة والكوفية والعلم الفلسطيني وخريطة فلسطين وشجر البرتقال وغيرها أيقونة تسري في ضمائر الفنانين.

فالواقع أن الفنانين الفلسطينيين، سواء كانوا يعيشون في مدن عالمية أو مخيّمات للاجئين، أو الأراضي المحتلة، في العالم العربي أو الغرب، ذلك كله لم يثنهم عن الانشغال بهموم الوطن وايصال رسائل متتابعة في كل مكان في العالم، بكون فلسطين ضميرًا جمعيًّا لا بد من التساوق معه، حتى لحقهم في ذلك كثير من الفنانين العرب والأجانب.

فقد تطورت نظرية تطور اللغة المرئية في التعبير الفني الفلسطيني على مدى الأعوام المئة والخمسين الماضية، مما أعطاها زخمًا متفردًا في التعبير والموضوع وسخونته.

تبقى القضية الفلسطينية من القضايا التي لم تزل تسري في الإبداع الفلسطيني خاصة والإبداع العربي والعالمي بعامة، وعلى الرُّغم من النهب والتدمير والمصادرة الذي تعرض لها الموروث الفلسطيني من مكتبات ومتاحف وأعمال فنية ووثائق، فما زالت الذاكرة الفلسطينية تزخر بذلك الموروث وتحفظه، وقد أعيد توثيقه عبر مراكز الدراسات الفلسطينية ومؤسسات عديدة أخرى ■

الملصق الفلسطيني
لُغَةُ مُقَاوَمَةٍ أُخْرَى

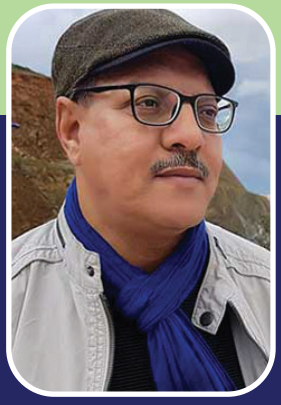

إبراهيم الحَيْسن(*)

توطئة

"هكذا أفهم الصراع:
أن نصلِّب قاماتنا كالرِّماح ولا نتعب".

ناجي العلي

رسام فلسطيني راحل

(1937-1987)

لعب الملصق الفلسطيني، كسلاح ثقافي فاعل، دورًا توعويًّا وتحريضيًّا مع اندلاع الثورة الفلسطينية وانتفاضاتها الجماهيرية وظل يقوم على جاذبية التعبير البصري وبلاغة الخطاب الأيقوني.

يستقي الملصق الفلسطيني ملامحه الأساسية من التحوُّلات السياسية والاجتماعية التي شهدتها فلسطين خلال العقود الأولى للقرن الماضي، وقد ظهر كفنٍّ نضاليٍّ أصبحت توظف فيه الكثير من العلامات والرموز المستمدة (تشكيليًّا وغرافيكيًّا) من ثقافة الصمود والتحدِّي.

وقد تبوأ الملصق الفلسطيني مكانة فنيّة وإعلامية استثنائية وصمد طويلًا أمام امتحان التاريخ كصورة ثابتة في مقابل "الصورة التكنولوجية والصناعية التي حازت على اهتمام وسائل الاتصال نظرًا لسرعة تداولها وقوَّة تأثيرها"[1].

يتزكَّى هذا الصمود على الرُّغم من الزحف التكنولوجي المرئي باعتبار أن الملصق الفلسطيني يحتوي على تعبيرية خاصّة تنطوي على رسالة بالغة التأثير. أليس الوسيط في نهاية الأمر هو الرسالة، كما يقول مارشال ماك لوهان M. Mc Luhan الذي يرى في مؤلفه "من أجل فهم الوسائط" أن الرسالة هي حجرة الزاوية في وسائط الاتصال الحديثة التي لا تنقل الحقائق قدر ما تبعث برسائل وتسعى إلى ترسيخها في أذهان الناس مهما كانت مقاومتهم[2].

الملصق الفلسطيني يظل، على الرُّغم من ذلك، قادرًا على الذيوع والشيوع والانتشار، وقد لعبت فيه الأصالة والصدق التعبيري، إضافة إلى الأسلوب الفني دورًا أساسيًّا في تفرُّده وشعبيته.

المقال الآتي حفر في ذاكرة الملصق الفلسطيني ورصد لتجرب فنية فلسطينية وعربية وعالمية اشتغلت على هذا السند البصري والجمالي الذي جسَّد أبرز أشكال المقاومة الفلسطينية بلغة الفن التشكيلي.

فبعد نظرة موجزة حول تاريخ الملصق ومبدعيه الرواد والمؤسسين، يشمل الكتاب ولادة الملصق

(*) ناقد تشكيلي - المغرب

الفني والتجارب الإبداعية والمعارض والمسابقات، المحلية والعالمية، التي ساهمت في نشره والتعريف به، إلى جانب قراءة تيماتية Thématique في الملصق الفلسطيني في اتصاله بالنضال والكفاح بالتركيز على التراكيب والتقنيات والمفردات التعبيرية التي استعملها الفنانون في إنجاز ملصقات ذات الصلة بثقافة التحدِّي والصمود، ليخلص إلى بورتريهات موجزة لثلة من أمهر الفنانين الفلسطينيين، روادًا ومخضرمين، ممن أبدعوا كثيرًا في إنجاز الملصق الفني الفلسطيني بحسٍّ جمالي نادر..

-1-
نشأة الملصق الفلسطيني

1-1: عروسان على الحدود

عن تاريخ أول ملصق فلسطيني، يذكر الفنان والباحث والكاتب العربي الأمريكي "فائق عويس" صاحب مجلّد "موسوعة الفنانين الأمريكيين العرب" والذي يعدُّ دراسة عن فن الملصقات، "أن أول ملصق سياسي فلسطيني ظهر منتصف الثلاثينيات وكان يعبّر عن وحدة الشّعب الفلسطيني في مواجهة الاحتلال البريطاني والمخطّطات الصّهيونيّة ويظهر بعض الرّموز، منها الهلال والصليب الأحمر تعبيرًا عن وحدتهما."[3].

ويذكر باحثون آخرون أن الملصق الفلسطيني بدأ رسميًّا مع ظهور لوحة "عروسان على الحدود" (1962) للفنان الراحل إسماعيل شموط أحد رواد الحركة التشكيلية بفلسطين، وقد لعب، كسلاح ثقافي فاعل، دورًا توعويًّا وتحريضيًّا مع اندلاع الثورة الفلسطينية وانتفاضاتها الجماهيرية وكان يقوم على جاذبية التعبير البصري وبلاغة الخطاب الأيقوني.

هكذا، ومنذ النكبة عام 1948 وإلى غاية عام 1965، تميَّز الملصق الفلسطيني بحشد وافر من الرموز والدلالات الأيقونية التي تُعَبِّرُ عن الاحتلال والغربة والطرد من الوطن واللجوء. واعتبرت هذه الفترة (في حدود عام 1967) بمثابة البداية الحقيقية للملصق الثوري الفلسطيني، إذ تضمَّنَ تعبيرات رمزية كثيرة كالنار والديك والحصان والحمامة والشمس والقدس والشهيد والمخيم والأسلاك الشائكة وشارة النصر وسنبلة القمح..إلخ.

وبعد معركة الكرامة[4] شقَّ الملصق الفلسطيني طريقًا جديدًا ونهج أسلوبًا نوعيًّا، إذ أصبحت توظف فيه عديد من العلامات والرموز المستمدة من ثقافة

◆ عدنان الشريف (فلسطين)

الصمود والتحدِّي، كالكوفية والرشاش والفدائي وقبَّة الصخرة والعلم الفلسطيني والحمام وغصن الزيتون إلى غير ذلك من المفردات الرمزية التي يتخذها المقاومون والفدائيون الفلسطينيون رمزًا للثورة والنضال..

عقب ذلك، وامتدادًا لغاية منتصف السبعينيات وما بعدها، اهتم فنانو الملصق بالجانب التشكيلي، وأمست صياغة الملصق الفلسطيني تضمُّ تعبيرات إيحائية أخرى أفرزتها المرحلة، كالعبوات والزجاجات الحارقة (المولوتوف)[5] والحجارة التي أعطت وأيقظت جيلًا استثنائيًّا من الفلسطينيين أطلق عليه اسم "أطفال الحجارة"، وفي ما بعد سيتأثر الملصق الفلسطيني بكثير من التحوُّلات والأحداث السياسية التي ألقت بظلالها وظلامها على القضية الفلسطينية دوليًّا وعربيًّا، أبرزها حرب الخليج ومؤتمر مدريد عام 1991 حول السلام بين العرب وإسرائيل وغير ذلك من الظروف التي استوحى منها الفنانون الكثير من العناصر والمكوِّنات الفنية والتشكيلية في إبداع الملصقات، كما هو الحال في أعمال مصطفى الحلاج التي تؤرِّخ أيضًا لبداية ظهور الملصق الفلسطيني، قبل أن تبرز تجربة الفنان عبد الرحمن المزين الذي يعتبر رائدًا في مجال إنجاز الملصقات وبخاصة تلك التي تتسم بكثير من الرمزية إلى جانب أسماء أخرى كزكريا شريف، جمال الأبطح، أمين عريشة، خيرالله شيخ سليم، عبد المعطي أبو زيد، هشام منصور، جهاد منصور، زهدي العدوي، محمود خليلي، عماد عبدالوهاب،عبد الرحمن مرضعة، محمد المزين وغيرهم. لكن منذ عام 1971، وبعد الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، ازداد الاهتمام بإنتاج الملصقات، حيث نظم عقب ذلك بأربع سنوات أول

◆ محمد المزين (فلسطين)

معرض لفن الملصق (الأفيش)، وقد ضمَّ الكثير من النماذج التي عالجت موضوع الهوية والذات العربية والتراث القومي والأرض والثورة بأهم عناوينها..كما أنه مع ازدياد حركة التنظيمات الفلسطينية وبروز تجمعات مدنية عملت على إشاعة هذه القضية والدفاع عنها، ظهرت في بيروت ملصقات جميلة من تصميم وضاح فارس اعتمد فيها على أعمال للفنانين كاظم حيدر ومحمد غني حكمت وضياء العزاوي[6].

والواقع أن "القضية الفلسطينية استقطبت بشكلٍ مبكر -بحكم خصوصيتها- عددًا كبيرًا من الفنانين الفلسطينيين والعرب والأجانب الذين أسَّسوا لفن الملصق الفلسطيني، الذي أصبح أحد أهم الأدوات التعبيرية والإعلامية الفعالة التي وثقت لمختلف المناسبات الوطنية (الانطلاقة، يوم الأرض، يوم

الأسير، العمال، المرأة..)، والاحتفاء بشكلٍ خاص بشهداء الثورة، وعمليات المقاومة، ولعب الملصق دورًا مهمًّا في الدعوة إلى الوحدة الوطنية والالتفاف حول منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الوطن المعنوي للفلسطينيين، وكسب الرأي العام الداخلي والخارجي، وخلق التواصل بين الشعب الفلسطيني وقضيته والشعوب الأخرى، والمطالبة بحق العودة.. إلخ. ولابُدَّ من الإشارة إلى روح المنافسة الشديدة التي أثارها فن الملصق بين فصائل المقاومة التي اعتمد إعلامها بشكلٍ واسع على هذا الفن البصري، لأنه يكثف ويختزل الكثير من الأفكار، ويصل إلى المتلقي ويتفاعل معه في كل مكان"[7].

لقد برز الملصق الفلسطيني كحاجة ملحّة تعبِّر عن حجم الآلام والآمال لأبناء الشعب الفلسطيني الذين يتوقون إلى الحرية والاستقلال والتخلص من الظلم والغطرسة والجبروت والاضطهاد وغير ذلك من الممارسات اللا إنسانية التي تُمارسها "إسرائيل" على أبناء الشعب الفلسطيني بمعية قوى استعمارية عنصرية.

2-1: ملصقات فلسطينية بأنفاس سياسية

قام الملصق الفلسطيني على القضية الفلسطينية التي شكلت الهمَّ الأول لكل الفنانين والمبدعين الذين ناضلوا في سبيلها، وقد اكتسى، وبالتحديد الملصق السياسي، "أهمية في الفن الفلسطيني المعاصر وخاصة بعد انطلاقة الثورة الفلسطينية المسلحة ونمو النضال المسلح على طريق فلسطين، وقبل انتشار الملصق استخدمت اللوحات المتميزة بوضوح المحتوى وبساطة الشكل كملصق، وخاصة لوحات فناني الأرض المحتلة، وفي مقدمتهم الفنان الكبير سليمان منصور، ومنذ مطلع الثمانينيات، برز الملصق في عديد من تجارب الفنانين الشباب، وهنا نصل إلى تجربة الفنان غازي انعيم الذي قدم مجموعة كبيرة من الملصقات المتميزة إلى جانب مجموعة من أعمال الحفر، ولقد كان "غازي" وما زال واعيًا بتقنية الملصق وطبيعته، فالملصق الناجح لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يحتمل التأويل في المعنى، ولا بُدَّ أن يكون في منتهى الوضوح والصراحة ليصل المتلقي بسهولة وبساطة وسرعة ودون مشقة، إلَّا أن تحقيق البساطة في الشكل ليست مسألة سهلة، لأن هذه البساطة يجب أن تتسم بقوة التعبير. ونتيجة لبحثه الدائم وممارسته المستمرة استطاع غازي أن يصل إلى ملصقات ناجحة تتسمُّ ببساطة الشكل ومتانة وقوَّة التعبير، مستخدمًا

◆ سليمان منصور (فلسطين)

◆ إسماعيل شموط (فلسطين)

عدة تقنيات من رسم وتلوين وتصوير ضوئي وإعادة تركيب للصورة الضوئية واعتماد أقل عدد ممكن من العناصر التشكيلية والرموز الواضحة والمتداولة فلسطينيًّا وعربيًّا وعالميًّا، كما قام بتوظيف ألوانه توظيفًا تعبيريًّا ورمزيًّا واضحًا، يخدم محتواه، هاجسه في التعبير عن قضيته الأساسية، القضية الفلسطينية، وعبر مجموعة من الملصقات التي تنطلق من الأحداث، فتمجد الشهداء وتتغنى بالثورة والأبطال وتدين وتعرّي الغزاة الصهاينة وتكشف عن بشاعتهم وتعطشهم للدماء وتربط عن أحكام بينهم وبين الامبريالية الأمريكية، والشيء الهام في هذه المجموعة يكمن في التأكيد على حقيقة أن نضال الشعب العربي الفلسطيني مستمر على الرُّغم من حجم الآلام والأحزان والمجازر..والبندقية هي الطريق الأساسي للتحرير، للعودة إلى فلسطين ونشر السلام، ولأن الفدائي أصبح رمزًا للثورة ورمزًا للشعب المناضل فقد صوره "غازي" صلبًا، متينًا، وصور أساطيره الفلسطينية الحديثة التي صنعها بدمه وعبر مواجهته العدو الصهيوني وفي عمق الأرض المحتلة، وفي بعض الأعمال استخدم "غازي" الكوفية كرمز للثورة والأبطال والشعب المقاتل"[8].

الخلاصة أن الملصق السياسي الفلسطيني استطاع أن يلعب دورًا أساسيًّا في تحريض الجماهير العربية وأن يجسّد أشكال النضال الفلسطيني عبر مراحله المتنوِّعة إلى الوطن العربي والعالم من خلال تعبير صادق ورصد حيٍّ وحقيقيٍّ للأحداث تاركًا أثره في وجدان كل المتعاطفين مع القضية الفلسطينية وأن يستقطب عددًا كبيرًا من الفنانين من أقطار مختلفة ليرسموا للثورة الفلسطينية ويمجّدوا أبطال الانتفاضة الشعبية، فقد "جاء الملصق الفلسطيني فارضًا نفسه على الشارع العربي والمشهد الفني العالمي بأن خلق وغير وبدل قناعات كانت سائدة حول الثورة الفلسطينية والقضية الفلسطينية، وبذلك لعب دورًا دعائيًا وتحريضيًّا عبر مسيرته الفنية"[9]..

وبحسب الكاتب غسان مفاضلة، فإن عودة الملصق بروحيَّة ونَفَسٍ جديد إلى واجهة الحدث الفلسطيني "ترتبط بروحيته الجديدة إلى واجهة الحدث الفلسطيني، بالطور الانتقالي الذي شهده مع الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987، إذ ظلّ قبل ذلك يستعير أدواته وتعبيراته بشكل مباشر من المدارس التشكيلية المعاصرة، ويدور في فلك الأفكار المعلّبة والمنجزة سلفًا. فيما التغييرات الجذرية التي طالته بعد الانتفاضة، على مستوى التعبير والتكوين، جعلت منه جزءًا رئيسًا من الميديا الحديثة، وأصبح منذ ذلك الحين مسرحًا للأفكار الجريئة

التي تعاملت مع المرجعيات الثقافية والسياسية والاجتماعية بحسّ نقدي، وانفتحت على مخيلة خصبة في التقاطها لتفاصيل المشهد الفلسطيني. التداعيات البصرية التي صاغتها ملصقات غزة وهي تتعقب التجليات الرمزية والتعبيرية على أرض الواقع وعبّرت عنها من خلال الخط واللون والكلمة والصورة الضوئية والتقنيات الرقمية، بلغة بصرية تتسمُّ بالاختزال والوضوح، ساهمت في الكشف عن بشاعة الجرائم الإسرائيلية، وعزّزت روح المقاومة والتحدّي على أوسع نطاق، وقدّمت على نحو غير مسبوق خطابًا بصريًّا عابرًا للحدود"[10]. مضيفًا بأن "ملصقات غزة الطالعة من أتون الحرب، استفادت من معطيات الفن التشكيلي، والفن الفوتوغرافي، والغرافيك، والتقنيات الرقمية المتنوِّعة، ومن تراكم الخبرة والتجربة، ومن الموروث الفلسطيني بمكوِّناته البصرية والشفوية وعناصره التاريخية، فجعلت من الملصق الذي وسمته بالتفرُّد والثراء، علامة راسخة في اختبار الزمن وتقلباته، وانتقلت به إلى مرتبة السيرة الساردة لعلاقة الإنسان الفلسطيني مع ذاكرة المكان وجسده الجريح، منذ النكبة الأولى، وحتى آخر جملة في الدّرس المفتوح على سُبات الضمير وليله الطويل"[11].

-2-

الملصق الفلسطيني، فنٌّ نضاليٌّ

2-1: روافد وتيمات

يستقي الملصق الفلسطيني ملامحه الأساسية من التحوُّلات السياسية والاجتماعية التي شهدتها فلسطين منذ سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، وقد ظهر كَفَنٍّ نِضَالِيٍّ -وقد مُنحت له هذه الصفة خصوصًا بعد عقد الندوة الشهيرة التي تلت معرض الملصقات المقام قبل سنوات بجامعة بيروت العربية- تجسيدًا لتيمات مختلفة عاكسة لصمود ونضال الشعب الفلسطيني عبر العصور..وما عاناه ويعانيه من مضايقات وممارسات استعمارية وحشية لا إنسانية وصلت إلى حدود الفاجع، ليقدم شهادة حيَّة على أن أبناء هذا الشعب قد قاسوا الكثير، ولكنهم لا يزالون قادرين على البذل والتضحية على الرُّغم من كل ما يكابدونه من كل أشكال الحصار والتضييق المؤلمين. إضافة إلى ممارسات أخرى ظل المستعمِر (وما يزال) ينهجها سبيلًا في طمس وتشتيت كل المعالم الدينية والحضارية المميزة للشخصية الفلسطينية..

◆ يوسف عبدلكي (لبنان)

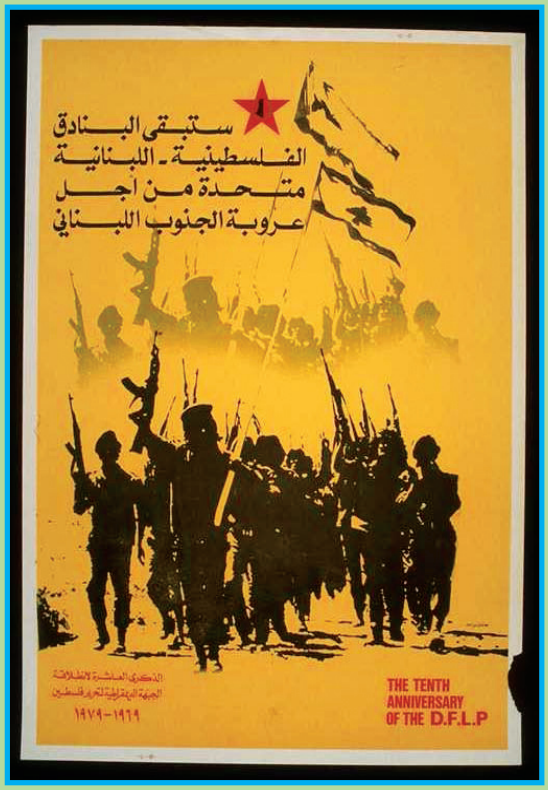

◆ توفيق عبد العال (لبنان)

والملصق الفلسطيني بتعريف المبدع والباحث الفلسطيني عبد الله أبو راشد، هو "الوجه الحضاري والسياسي والعاكس الحقيقي لكفاح الشعب الفلسطيني في أجمل صورة وأكثر جدوى، ودعوة تحريضية للتعاطف والمساهمة والاندماج في إذكاء نار المقاومة الموجهة للاحتلال الصهيوني في جميع بقاع الأرض وورقة عبور لرص الصفوف وتشكيل جبهة عالمية لمقاومة الغزوة الصهيونية، لما للملصق من دور مُميز في تشكيل الروافع البصرية المناسبة لهذا النضال بما يُمثله الملصق "البوستر" من دعوة إيديولوجية كفاحية عبَّرت عن المرأة والطلاب والعمال، في فترات زمنية متباعدة، يشكل الخط والعبارة المكتوبة واللون المجال الحيوي لتقديم الفكرة والمحتوى الشكلي والمعنوي والهدف السياسي وراء كل ملصقة من الملصقات الفلسطينية، حيث كانت الملوّنات منتمية بشكل ما أو بآخر لرموز نضالية مُتعارف عليها من واحة الكفاح الفلسطيني مثل الكوفية والفدائي وشارة النصر والحصان والأشجار والورود الملوَّنة بملونات العلم الفلسطيني والمُعشبة بشخوص المقاومين والشهداء والرموز الكفاحية الفلسطينية عبر عشرات السنين تقص مسيرة شعب في نصوص وسرديات بصرية متنوِّعة الأساليب الفنية والمُعبرة عن حقيقة الواقع الفلسطيني المعيش بجميع مكوِّناته النضالية وتاريخه المتصل اتصالًا مباشرًا بما جرى ويجري في جبهات القتال الممتدة داخل فلسطين المحتلة وخارجها".

فالتقتيل والتهجير والإبادة والتنكيل وتدمير المساكن والاغتصاب والغارات المتعددة وتجاهل المواثيق والصكوك والأعراف الدولية من لدن قوات وحكام صهاينة مجرمين، يقابلهم الصمود والنضال والانتفاضة والمواجهة والتحدِّي والتحمُّل والدفاع عن الحرية والكرامة والهوية والسلم من قبل شعب أعزل، هي بلا شك عناوين بارزة تتصدَّر مواضيع الملصقات الفلسطينية لتترجم بذلك هذه المعاناة التي أصبحت تشكل جزءًا من المعيش اليومي الفلسطيني الذي أصبح فيه الحجر المواجه للسلاح لغة مشتركة بين أجيال عقدت العزم ألا تعيش التخاذل أبدًا..أبدًا[12].

تجدر الإشارة في ذات السياق إلى أن الملصق "هو إعلان عن موقف، وهو عمل فني تشكيلي يحمل مقوِّمات العمل الفني ولا يفقد أي شيء من قيمته الفنية، ففيه كل الصفات التي تجذب الجمهور

ويؤدِّي دوره كلوحة إضافة لدوره كملصق ويحمل قيمة أخلاقية أكثر منها مادية. وفي الوقت الراهن، يدخل فن الملصق مرحلة هامة على الرُّغم من مسيرته القصيرة نسبيًا، وهي تجاوز الحدود المحلية مؤكّدًا بذلك عدم انفصاله عن سائر أشكال التعبير التشكيلي. شهد الملصق فترة نضوج وازدهار من حيث الطباعة والتصميم والإخراج، كما عبَّر عن مواقف فكرية واجتماعية وسياسية، وكان لمضمون الملصق بحكم طبيعته الجارية وسرعة انتشاره وقوة تأثيره دوره الهام في خلق الوعي باتجاه التقدُّم ودعم النضال الوطني والإنساني والقومي.

وعلى الرُّغم من قلَّة إنتاج الملصق المعبِّر عن الانتفاضة، إلاَّ أنه يساهم في خلق الوعي الثوري بهذا الحدث المهم لسرعة انتشاره وقوَّة تأثيره، ويكون قد حقق هدفه عندما يبعث صورة الانفعال والحرارة، لذا يجب أن تتحوَّل مضامينه لتخاطب جميع الفئات وبكل اللغات"، كما يقول الفنان والباحث الفلسطيني الراحل عبد الكريم السيد.

لقد نما الملصق الفلسطيني وتطوَّر لاحقًا مع بداية الحرب على قطاع غزة وانتشر داخل الساحات والفضاءات العمومية، فضلًا عن مواقع التواصل الاجتماعي وارتبط ظهور الجديد والانتقالي مع الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987.

2-2: مواقف إنسانية نبيلة

إضافة إلى الملصقات والبوسترات الاعتيادية، امتد التعاطف الدولي مع القضية الفلسطينية ليشمل نوعًا آخر من الملصقات تمثل في المبادرة التضامنية التي قامت بها حركة المقاطعة البريطانية المناهضة لإسرائيل [13] (BDS) حين ألصقت عديدًا من المنشورات في مترو أنفاق لندن منددة بذلك بالسياسة "الإسرائيلية" ضِدَّ الفلسطينيين في الأراضي المحتلة.

زد على ذلك، الموقف التضامني الإنساني لجنوب إفريقيا التي قامت بفرض وضع ملصق تجاري على البضائع الواردة من المستوطنات "الإسرائيلية" في الأراضي الفلسطينية لتمييزها عن تلك المصنوعة في "إسرائيل"، وهو ما أثار حفيظة المسؤولين الإسرائيليين الذين رفضوا هذا القرار واعتبروه أمرًا "غير مقبول"!! في الوقت الذي أشار فيه المتحدِّث باسم الحكومة الجنوب إفريقية جيمي ماني في لقاء صحفي أن قرار بلاده "ينسجم مع موقف جنوب أفريقيا التي تعترف بحدود العام 1948 التي أقرَّتها

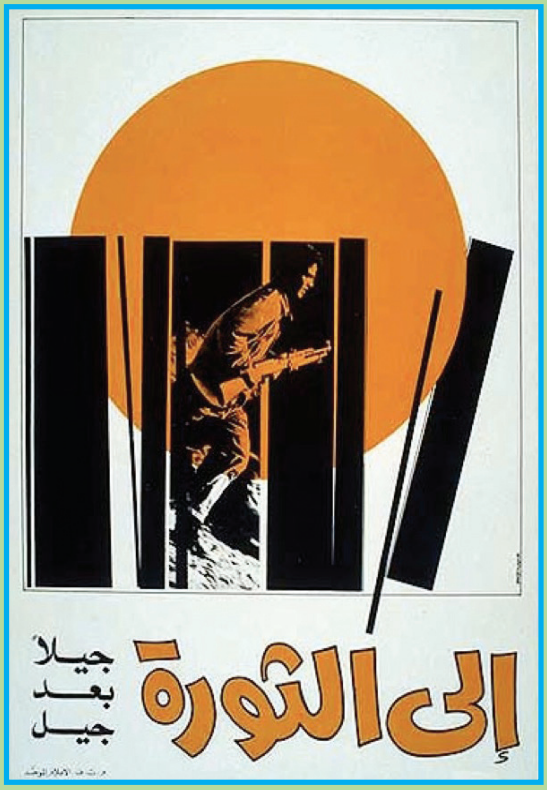

◆ حسيب الجاسم (العراق)

الأمم المتحدة، ولا نعترف بالمناطق التي تقع خارج هذه الحدود كجزء من دولة إسرائيل". وقد نضيف إلى ذلك عديدًا من ملصقات وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين UNRWA على الرُّغم من طابعها الإرشادي السلمي.

-3-
اشتغال الرمز في الملصق الفلسطيني

فنيًّا، يُعَدُّ الرمز لغة تشكيلية يستخدمها الفنان للتعبير عن أحاسيسه وانفعالاته نحو كل ما يُحرِّك مشاعره، وهو وحدة فنية يختارها الرسام من محيطه لكي يزين بها إنتاجه الفني ويكسبه طابعًا خاصًّا بشرط أن يكون الرمز محمَّلًا بقيم المجتمع الثقافية والفكرية. الرمز قد يكون شكلًا لطير يهواه الفنان، أو نبات يعتز به الناس، أو حيوان محبوب أو وحش تخشاه الجماعة. وقد يكون شكلًا لشيء شائع الاستخدام أو خطوطًا هندسية أو مصطلحات أخرى لها معنى وقيمة تنتشر بين الجماعة وتستمر كرمز متفق عليه[14].

في التجربة الفنية الفلسطينية، أمسى توظيف الرمز في الملصقات الفلسطينية مرتبطًا بواقع وظروف الاحتلال واغتصاب الأرض. فهو إبداعٌ فنيٌّ صادقٌ يرسم دروب آلام الشعب الفلسطيني وسندٌ دعائيٌّ وتحريضيٌّ لأنماط النضال الوطني داخل فلسطين وفي مناطق الغربة والاغتراب العربية والعالمية.

هذا السند الجمالي ذو الطبيعة الأيقونية مليء -في أكثر من شكل وصيغة- بعديد من الرسائل والرموز التعبيرية المنسوجة من محن وأوجاع الشعب والوطن، من قبيل: الفدائي، الكوفية، غصن الزيتون، الشمس، القمر، البندقية، الغزال، الماء، الأشجار.. فضلًا عن التطاريز المميّزة للّباس المحلي والزخارف النباتية Florales وغيرها من المفردات والرموز والدلالات الأصيلة المعبِّرة عن الذات والهوية والوطن.

لقد جعلت هذه الرموز الملصق الفلسطيني فنًّا مقاوِمًا منتصرًا لقضية فلسطين وإبداعًا تشكيليًّا وغرافيكيًّا يلجأ الفنانون في صياغته برؤى مضمونية إلى الاستعارات التاريخية وإلى الذاكرة الشعبية، وأيضًا إلى ثقافة النضال الساعية بفضل جهود أبناء الشعب الفلسطيني الأبيّ إلى التغلب على مختلف عوامل النكوص والإحباط والتشظي.

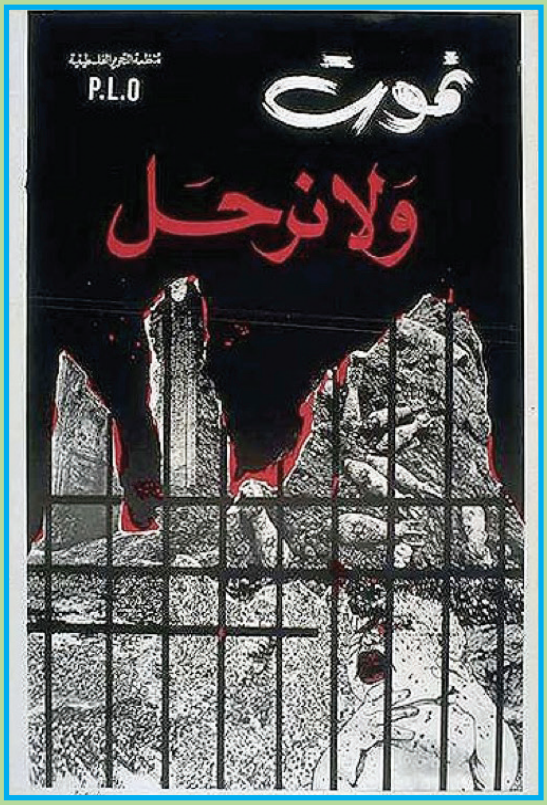

◆ فائق الدحدوح (فلسطين)

من عمق الملصق الفلسطيني تنبعث رسائل كثيرة بمعانٍ عميقة ساكنة في وجداننا القومي المجروح، ومجسِّدة حالات إنسانية ومواقف نبيلة ممتدة للنضالات والتضحيات الجسام التي رسمتها قوافل الشهداء في مسيرة التحرير والعودة وتأكيد الكينونة والوجود. ومن عمقه أيضًا، نستشف قدرة الفنان الملتزم على الانخراط في المسار الكفاحي الفلسطيني بإبداعات فنية راقية منفَّذة بأساليب وتقنيات صادقة وفاضحة لمؤامرات ودسائس عنصرية وحاقدة ساعية إلى القضاء على فلسطين المسلوبة وإنهاء وجودها كشعب وكهوية.

-4-
تيمات الملصق الفلسطيني

مهما تنوَّعت وتعدَّدت مواضيع الملصقات الفلسطينية، فإنها تتوحَّد في كونها تسعى إلى إظهار عدالة القضية الفلسطينية وإبراز أنماط النضال والكفاح لأبناء الوطن المحتل، منها النماذج الفنية الآتية:

ففي ملصق "ذكريات الحصاد" (1977) للفنان عبد الرحمن المُزين تستحوذ الصورة على المجال البصري للمشاهد ويظهر بورتريهًا لفتاة فلسطينية في مقام الصورة الأول Premier plan بلباسها التقليدي الموشَّى بتطاريز محليَّة بهيَّة، في لحظة تأمُّل وهي تحمل وردة وسنبلة، ومن خلفها يظهر مزارعون فلسطينيون منهمكون في عملهم اليومي، بينما نجد الفنان المصري أحمد حجازي يرسم "شجرة فلسطين" بأسلوب تشخيصي هندسي إقلالي Minimal يُبرز فلسطينيين، رجالًا ونساءً وأطفالًا، في

◆ حلمي التوني (مصر)

وضعية مصطفة وفي جذع الشجرة كتب عبارة "وحدة شعبنا ضمانة انتصارنا".

وفي ملصق آخر لرسام الكاريكاتير ناجي العلي، يظهر ساعد يحمل حجرًا تسيل منه قطرات دم على وردة نابتة، بل صامدة وسط أحجار يخطو فوقها الصبي حنظلة[15] وقد أرخى الليل سدوله، حيث القمر يتضامن معه بعد أن تحوَّل إلى علامة حمراء. وفي أسفل الملصق كتب ناجي العلي عبارة "ومن حجر سننشئ دولة العشاق". هذا الساعد يظهر متعدِّدًا في ملصق للفنان الرائد اسماعيل شموط (1968) الذي رسمه مختزلًا ومصطفًّا يحمل بنادق المقاومة في قبضة قويَّة تعبِّر عن العزم والاستعداد والإقدام لطرد قوى الاحتلال، وفي الأسفل نقرأ عبارة "آلاف

◆ فائق الدحدوح (فلسطين)

السواعد والطريق واحد".

بنفس الأسلوب تقريبًا، مع بعض التمايز، أبدع الفنان عدنان الشريف في رسم ملصق الكرامة (1978)، تتمركزه بندقية فلسطينية شكّلت حرف الألف لكلمة الكرامة وبجانبها نقرأ تعبير "بداية الانتصار"، وفي الجزء الفوقي للملصق تدوين لسنوات -1968 1978.

بينما نجد الفنان اللبناني يوسف عبدلكي يسرد لنا واقع الاحتلال ويصرخ من أجل الحرية للمعتقلين الفلسطينيين، إذ رسم يدين مكبّلتين بأصفاد الغدر وفي وسطهما توجد حمامة السلام[16] مصاغة بأسلوب رسم مندمج في تضامن "إنساني" نبيل يعكس رمزية هذا الطائر الأثير الذي يرمز إلى السلم والسلام.

كما دعا الفنان الفلسطيني جمال الأفغاني إلى إسقاط الاحتلال من خلال ملصق بالأسود والأبيض نفذه بتقنية التنقيطية Pointéllisme يتضمَّن أربعة وجوه مندهشة خلفها ألواح متراصة لشهداء داخل مقبرة بها كرسي رُسمت بالقرب منه عين ترمز إلى الضمير. وفي أسفل الملصق كتب عبارة "يسقط الاحتلال" باللغة العربية والعبرية واللغة الإنجليزية.

في ملصقات أخرى عبَّر الفنان السوري برهان كركوتلي عن المرأة الفلسطينية، لاسيما الأم المقاتلة دومًا على طريق التحرير، قدَّمها في قمَّة الاستعداد لخوض الكفاح بلباسها التقليدي المطروز حاملة بندقية الصمود، في حين جسَّد الفنان مؤيد الرّاوي

صمود الأهالي بقلعة الصمود (1980) بواسطة ملصق تتصدَّره صورة شاب فلسطيني يحمل بندقية وهو في حالة تأهُّب واستعداد لمواجهة العدو الإسرائيلي المحتل لأرضه. وفي أعلى الملصق، رسم دائرة مقسَّمة أفقيًّا بلونين أحمر يعبِّر عن الدم وأخضر يرمز إلى الأمل.

الملصقات الأخرى التي نفذها الفنانون الأجانب بالغة التعبير هي الأخرى بالنظر إلى بلاغة الفكرة التي تنهض عليها وفق تقنيات تعبيرية متطوِّرة (صباغية وغرافيكية) تنمُّ عن حِرفية متقدِّمة في الصّنعة والتقنية، لاسيما لدى فناني أوروبا الشرقية المتخصِّصين في فنون الحفر والنسخ الفني.

على هذا المستوى، كان الفنان البولندي جاك كوالسكي J. Kowalski أبدع ملصقًا تعبيريًّا (يُنظر غلاف هذا الكتاب) تتوسَّطه قبضة يَدٍ ترمز بعزم إلى الصمود على الرُّغم من أنَّها مقيَّدة بأسلاك حديدية مثبَّتة بمسامير على شكل نجمة داوود الرامزة إلى "إسرائيل" القوَّة المحتلة لفلسطين.

أمّا مواطنه الفنان ج. بارزيشيك، فقد رسم ملصقًا بعنوان "الانتفاضة والمقلاع" (1980) وفق أسلوب تعبيري واقعي/ رمزي يتكوَّن من مقلاع يشغل جميع السند على المستوى الأول ومن وسطه يرفرف العلم الوطني الفلسطيني في إيحاء متكامل إلى تجدُّد النضال والمقامة لدى الفلسطينيين على اختلاف الفئات والفصائل والأجيال.

وقد شكلت المقاليع سلاحًا للمقاومة الشعبية السلمية، إلى جانب "المُغِّيطة" و"النُّقيفة" التي تُصنع من أنابيب مطاطية وقطع خشبية الأسلحة المتاحة والفاعلة لأطفال الحجارة منذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987 ضِدَّ الجيوش والعساكر "الإسرائيلية" المدجَّجة بأحدث الأسلحة الفتّاكة والدروع الواقية، بينما اكتفى الفنان الهنغاري سيمون كوباني (1979) برسم نجمة داوود بالأسلاك الشائكة وفي وسطها كلمة فلسطين باللغة اللاتينية في تعبير صارخ عن اغتصاب أرض فلسطين.

خلافًا لذلك، اختار الفنان الإسباني بيدرو ليبيرال أسلوبًا سهلًا، لكنَّه عميق المعنى والمبنى في صياغة ملصق مختزل تتمركزه حمامة بيضاء ذات شكل هندسي إيجازي محاطة بكتلتين لونيتين سوداء في الأعلى وخضراء في الأسفل وقد كتبت في جانبها الأيسر باللغة الإنجليزية عبارة "فلسطين، الوطن المرفوض" (1979).

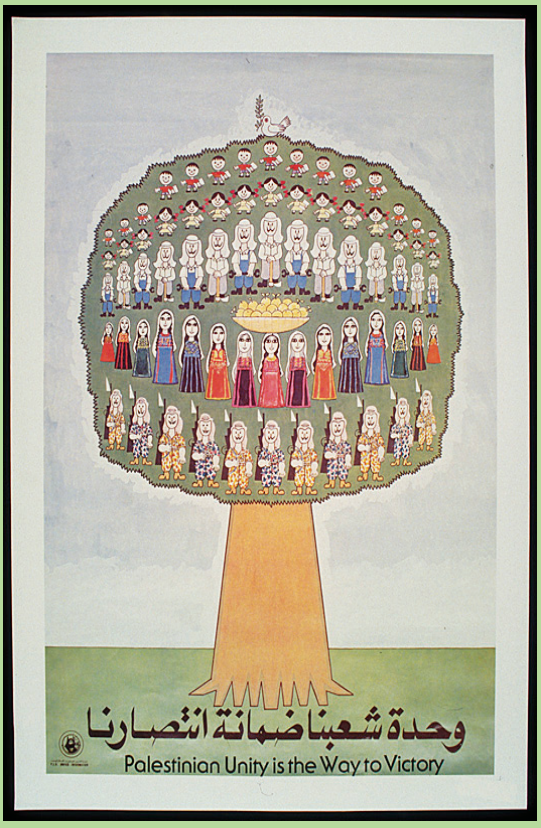

◆ أحمد حجازي (مصر)

-5-

فنانو الملصق الفلسطيني

برز في ساحة الفن التشكيلي الفلسطيني فنانون مبدعون من جيل الرواد والمخضرمين وأبدعوا كثيرًا في إنتاج المطبوعة والملصق الفني بحس جمالي وتعبيري نادر، نذكر من بينهم -مثالًا لا حصرًا- الأسماء الآتية ضمن بورتريهات مقتضبة، ويتعلق الأمر بإسماعيل شموط، مصطفى الحلاج، عبد الرحمن المُزين، كمال بُلّاطة، سليمان منصور وناجي العلي.

إسماعيل شموط

إسماعيل شموط (1930-2003): من مواليد مدينة اللد الفلسطينية ويعتبر المؤسس الفعلي للحركة الفنية التشكيلية الفلسطينية. بعد هزيمة عام 1948، سيلجأ الفنان إسماعيل شموط رفقة عائلته إلى مخيم اللاجئين في خان يونس في قطاع غزة، قبل أن ينتقل إلى القاهرة لدراسة الرسم والتصوير بكلية الفنون الجميلة وبعدها (1956) بأكاديمية الفنون الجميلة بروما. عقب ذلك، سيرحل إلى لبنان وهناك تمكن رفقة مجموعة من زملائه المبدعين من تأسيس أول اتحاد للفنانين التشكيليين الفلسطينيين عام 1969، قبل أن يشغل منصب الأمين العام لاتحاد الفنانين التشكيليين العرب.

تميَّز الفنان الراحل إسماعيل شموط- الحاصل على درع الثورة للفنون والآداب وعلى وسام القدس وعلى جائزة فلسطين للفنون- مصوِّرًا واقعيًّا ينقل معاناة اللاجئين الفلسطينيين بصدق إبداعي نادر. توفي مريضًا بألمانيا عائدًا إليها من العاصمة الأردنية عمان، وقبلها الكويت، عن سن تناهز 76 حولًا. ويعتبر معرض "الذاكرة الفلسطينية" آخر نشاط فني قام به الراحل..كان ذلك بالمتحف الوطني بدمشق/ سوريا.

مصطفى الحلاج

مصوِّر ونحَّات وخزَّاف من مواليد قرية سلمة في يافا سنة 1938. يُعدُّ واحدًا من أمهر فناني الغرافيك الفلسطينيين والعرب، اهتم بالثقافة الكنعانية والمصرية وجسَّد عديد من مظاهرها في قطعه الغرافيكية بمهارة عالية تظهر علو كعبه في هذا المجال.

أبدع الفنان الحلاج كثيرًا في فن الملصق الثوري، وبرز نحّاتًا يبدع في الطين، وأمسى رسامًا يصوِّر ملحمة النكبة من خلال ألياذة تصويرية اختلطت فيها الأسطورة والحقيقة. لقد كانت النكبة أسطورة مخادعة في قرن عنوانه الحرية والعقل والثورة، وكان على الحلاج أن يعيش الأسطورة كحقيقة. كما كان تصويره رسمًا رصينًا يأنف (ديماغوجية الألوان)، وفكرًا يرفض الكلمة ولا تكفي الصورة لاستيعابه، وطرحًا يحمل آلاف التفاسير[17].

عبد الرحمن المزين

من مواليد سنة 1943 ببلدة القبيبة- الرملة. شغل منصب رئيس الاتحاد العام للفنان التشكيليين الفلسطينيين وله عدَّة مؤلفات عن الكنعانية. من أهم الفنانين العرب المتخصصين في المطبوعة وفن الملصق وأعماله التشكيلية موسومة بأسلوبين فنيين يقوم أحدهما على التصوير بواسطة الزيت على القماش، ويقوم الآخر على الغرافيك بواسطة الحبر

الأسود على الورق.

ارتبطت أعمال الفنان عبد الرحمن المزين عمومًا بالموروث الثقافي الوطني وبحياة الكفاح من أجل استقلال الوطن، أغلبها تطغى عليها التطاريز اللونية والزخارف الغنائية ذات الألوان الريفية الخاصة.

ومنذ مطلع الثمانينيات، ازداد اهتمامه بالصباغة الجدرانية التي ينفذها بألوان وخطوط قويَّة تمتد لشخصيته الرزينة. وبرأي الفنان الرائد مصطفى الحلاج، فقد "أخذ عبد الرحمن المزين الجانب الشعبي من الحياة الفلسطينية، وتقع أعماله ما بين التسجيلية للفلكلور والأجواء السريالية النابعة من حركة الحدوثة"[18].

كمال بُلّاطة

من مواليد القدس سنة 1942. اكتسب مبادئ الرسم والتلوين بمرسم الفنان المقدسي خليل حلبي الكائن بحي باب الخليل، واهتم في بداية مشواره الفني برسم البورتريه، مرورًا بالحروفية العربية، قبل أن يستقر فنُّه على اللوحة التجريدية المكسوة بسطوح لونية تكثر فيها الشفوف والبناءات الهندسية الاختزالية.

درس الفنان بُلاطة في أكاديمية الفنون الجميلة بروما (1960- 1965)، كما تابع دراسته لاحقًا في واشنطن (1968 - 1994).

ساهم في تصميم عديد من الملصقات وأغلفة المجلات الثقافية والفكرية، أبرزها مجلة "مواقف" اللبنانية و"شؤون فلسطينية" في بيروت. وله أيضًا كتاب موسوم بـ"استحضار المكان- دراسة في الفن التشكيلي الفلسطيني المعاصر"، صادر بتونس سنة 2000 بترشيح من وزارة الثقافة الفلسطينية وبدعم من المنظمة العربية للتربية والعلوم التابعة للجامعة العربية، وهو الإصدار الرابع في رصيده آنذاك، بعد كتب "المناصرة" (1975)، "شموط" (1989)، و"محظية" (1979)[19]، وله الكثير من المقالات والمتابعات النقدية أغلبها حول الفن التشكيلي ببلده فلسطين.

مارس الفنان بُلاطة التجريد اللوني بكثير من النُّور، كما عكست ذلك عديد من معارضه الفنية الحديثة، أبرزها معرضه "وكان النُّور" الذي احتضنه رواق بيرلوني Berlony في لندن خلال شتنبر 2015.

سليمان منصور

مصوِّر ونحَّات ورسَّام كاريكاتير سياسي، من مواليد بير زيت- رام الله سنة 1947. يستخدم في قطعه الفنية عدَّة مواد وخامات من قبيل الطين والخشب والحناء والفخار الأثري والخيش إلى جانب الأصباغ المائية والزيتية إلى غير ذلك من المواد التي يستعين بها في تشكيل اللوحات والمجسَّمات الناتئة بالجبس والأعمال الطينية التي بدأ في إبداعها منذ سنة 1989 وفي رصيده عدَّة معارض فنية بمدن فلسطينية وعالمية، كنيويورك وموسكو وباريس وستوكهولم.. إلخ..

في مجال التأليف، شارك الفنان سليمان منصور في بعض الإصدارات المحلية، من بينها كتابين، هما: "الملابس الشعبية الفلسطينية" و"دليل التطريز الفلسطيني" (1985 - 1987) اللذين أصدرتهما جمعية انعاش الأسرة التي كان عضوًا في مجلس إدارتها، إلى جانب مساهمته في مجال التدريس الفني وكذا مجال الصحافة من خلال إنجاز الرسوم الكاريكاتيرية والرسوم الإيضاحية Illustrations في الكتب العلمية

وغيرها. في رصيده عدَّ جوائز، منها: الجائزة الأولى في معرض الربيع الأول (فلسطين، 1985)، جائزة فلسطين للفنون التشكيلية (1989) والجائزة الكبرى في بينالي القاهرة التاسع (1998)[20].

ناجي العلي

عانق ناجي سليم حسين العلي -المزداد عام 1937 بقرية الشجرة بالجليل الشمالي الواقعة بين طبرية والناصرة- الرسم لأول مرة بمخيم عين الحلوة الذي أقامه الفلسطينيون جنوب لبنان، قبل أن يخوض تجربة بيروت حيث عمل كرسام للكاريكاتير في مجلة "الحرية" اللبنانية، مرورًا بتجربة الكويت التي تميزت باحترافه فن الكاريكاتير بمجلة "الطليعة"، قبل أن يراوده حنين العودة إلى بيروت، بعد حرب أكتوبر 1973، حيث اشتغل بصحيفة "السفير" اللبنانية..

دخل ناجي العلي[21] الكاريكاتير من المسرح مزوَّدًا بثقافة ثورية واسعة اكتسبها من واقع الاحتلال والنكبة التي عاشها وهو صغير السن رفقة الفلاحين والكادحين من أبناء بلده: "كان لدي توجه في بداية شبابي لأن أتعامل مع المسرح، كنت أريد أن أصرخ بالكلمة التي تنقل مشاعري وإحساساتي، دفعتني الظروف للعمل في المجال الصحفي، واكتشفت أن الكاريكاتير هو الأداة المناسبة للتوصيل"، الكلام للفنان ناجي العلي[22].

ناجي العلي -الملقب بضمير الثورة- تجربة واسعة في الرسم الكاريكاتيري ومثال نادر في المقاومة والصمود والدفاع عن الهوية..إنه تاريخ مليئ بالنضال والدفاع عن قضية وطنه العادلة وفضح الأنظمة المتخاذلة والمتواطئة مع المشروع الصهيوني[23]. ولقوَّة فنِّه وإبداعه، فقد أنجزت حول الرسام ناجي العلي عديد من الأفلام والأشرطة السينمائية، أبرزها الفيلم الذي أخرجه عاطف الطيب عام 1991 ولعب البطولة فيه الممثل نور الشريف بمشاركة ليلى جبر، مجمود الجندي، أحمد الزين وتقلا شمعون.

ناجي العلي، اختزال لقضية طويلة، لقصة طويلة مع الحصار والاحتلال، ومخاض ظروف خاصة عاشها كإنسان وكرسام..حياة مثيرة ومليئة بكل أشكال التضييق انتهت بفراقه للحياة في 29 أغسطس 1987 على إثر عملية الاغتيال الغادر الذي تعرض له يوم 22 يوليو من نفس السنة بأحد شوارع العاصمة البريطانية لندن، وهو منهمك في فرز رسم كاريكاتيري من رسوماته الساخرة.

تيسير البطنيجي

فنان فلسطيني من مواليد من مواليد حي الشجاعية شرق مدينة غزة في سنة 1966، وهو عضو رابطة الفنانين التشكيليين الفلسطينيين، وعضو الجمعية العالمية للفن التشكيلي (AIAP) لدى منظمة اليونسكو في العاصمة الفرنسية باريس.

دأب الفنان البطنيجي على طرح قضايا سياسية تتعلق بالهوية والانتماء والجذور والذاكرة والاحتلال من خلال أعمال تشكيلية معاصرة ترومر مقاومة الزمن بدلًا من الانصياع للأحداث، كما في بعض معارضه السابقة، كمعرض "الذاكرة دومًا خضراء" الذي احتضنه "غاليري صفير زملر" في بيروت. وفي بعض تجاربه التجهيزية والأدائية، سبق للفنان تيسير أن احتفل بذاكرة الماء باعتباره إكسير الحياة ومادة حيوية لا محيد عنها أقيمت حولها حضارات عريقة كالسومرية، البابلية بالعراق على نهري دجلة والفرات، والحضارة الفرعونية بمصر على ضفاف نهر النيل،

ثمَّ مملكة سبأ باليمن حول سدِّ مأرب المشهور..إلخ، حيث سبق له سنة 2008 إنجاز عرض أدائي معبِّر بعنوان "كما الماء"، أثناءه كتب على الأرض بواسطة الماء الكلمات الـ 109 عن المياه في قواميس اللغة العربيّة بعضها استعمله الشاعر محمود درويش في ديوانه "ذاكرة للنسيان" (1982). وقد سعى الفنان إلى إبراز دلالة الماء سياسيًّا من خلال الصراع العربي-الإسرائيلي، وسيتواصل احتفاؤه الإبداعي بالماء لاحقًا، شاهد ذلك عمله "ذاكرة المياه" الذي نفذه سنة 2014.

أعماله عمومًا عبارة عن توليفات متنوِّعة الخامات، إلى جانب أخرى مطبوعة بتلوينات تعبيرية منفذة على ورق الجدران المزيَّن بمفردات تعبيرية ورمزية متعاودة قدَّم بعضًا منها السنة الماضية بمنطقة الألزاس شمال فرنسا، وذلك خلال معرضه الفني "رؤية مزدوجة" الذي أقيم بفضاء الفن المعاصر "أندريه مالرو" في مدينة كولمار. أمَّا من الوجهة التيماتية، فقد قارب الفنان البنطيجي خلال هذا المعرض مواضيع وأحداث موجعة لا تزال موشومة في الذاكرة السياسية العربية، كمشاهد تعذيب العراقيين بسجن (أبو غريب)، صور الذبح التي ارتكبها الإرهابيون ضِدَّ العرب والمسلمين، ومشاهد انتفاضة الشعوب العربية الأخيرة في وجهة الأنظمة الديكتاتورية..وغير ذلك كثير.

سبق للفنان التشكيلي تيسير البطنيجي أن نال جائزة أفضل بوستر للنكبة في ذكراها الـ"58" وهي عبارة عن 500 دولار أمريكي، وذلك خلال الاحتفال الذي أقيم بالتعاون مع الائتلاف الفلسطيني لحق العودة، ومركز بديل الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين في مدينة خانيونس جنوب قطاع غزة. وقد تضمّن بوستر البطنيجي صورًا لأقمشة حفظت فيها مفاتيح، وقد ظهر على هذه الأقمشة صدأ المفاتيح، ويدلّ هذا الإبداع على إصرار اللاجئين على الاحتفاظ بمفاتيح بيوتهم التي هُجّروا منها عنوة، وتضمَّن البوستر فضلًا عن ذلك عبارة "إمَّا العودة وإمَّا العودة" ■

مراجع:

- المرجع البصري للملصقات المرفقة، موقع أرشيف ملصق فلسطين:
www.palestineposterproject.org
- عز الدين المناصرة: موسوعة الفن التشكيلي الفلسطيني في القرن العشرين- قراءة توثيقية، تاريخية ونقدية (مجلدان)- عمَّان، 2003.
- ضياء العزاوي: لون يجمع البصر/ نصوص وحوارات في الفن التشكيلي- منشورات تاتش، المملكة المتحدة- أكتوبر 2001.
- أكرم قانصو: التصوير الشعبي العربي- عالم المعرفة/ العدد -203 الكويت 1995.
- عفيف البهنسي: رواد الفن الحديث في البلاد العربية- دار الرائد العربي- الطبعة الأولى، 1985.
- عبد العالي معزوز: فلسفة الصورة- الصورة بين الفن والتواصل. منشورات أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2015.
- ابراهيم الحَيْسن: الجمالية والإيديولوجيا- العلاقة المتشابكة بين الفن والسياسة. منشورات اتحاد كتاب المغرب- الرباط 2013.
- M. Mc Luhan: Pour comprendre les médias- Trad. Paris (J.)- Ed. Mame- Seuil. Tours-Paris, 1968.

التشكيل في خدمة القضية الفلسطينية

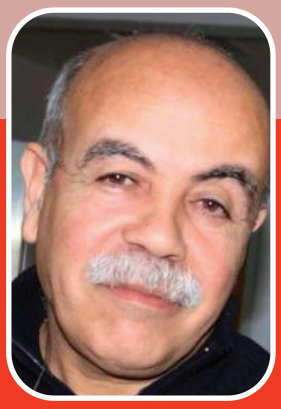

شفيق الزكاري(*)

إن الحديث عن القضية الفلسطينية اتخذ منذ احتلال فلسطين أشكالًا تعبيرية متعددة، شملت الشعر والرواية والقصة والسينما والمسرح والتشكيل، بيد أنَّ التعبير عن هذه القضية اختلف من جنس لآخر حسب مستويات متباينة على مستوى الحساسية من حيث جودة الإبداع وأهمية الطرح، استنادًا إلى مرجعيات وجودية مرتبطة بالهوية، انتصارًا لقضية مصيرية بأبعادها القومية، جعلت من الإبداع في عموميته مصدرًا لتراكمات ارتبطت بإلهام كل مبدع على حِدَة.

إن أهمية الاهتمام بهذه القضية المصيرية التي شغلت الرأي العام العربي، تكمن في كونها اتخذت أبعادًا فكرية وثقافية كوسيلة لصدِّ ومقاومة طمس الهوية الفلسطينية التي تعتبر من بين مكونات ضمان صيرورة الوجود الفلسطيني وحقه في استرجاع أراضيه، كما تعتبر شكلًا من أشكال النضال لتعميم حقيقة الوضع السياسي، والانفتاح على الضمائر الحية لمواجهة الكيان الصهيوني، في كل بقاع العالم، مما أدى إلى تراكمات إبداعية شملت كل الأجناس التعبيرية ومن بينها التشكيل، كلغة كونية كسرت الحدود الجغرافية، وجعلت من الجمال وسيلة لكبح جماح العنف والتمييز والعصبية والعنصرية والترامي على أملاك الآخرين كما هو الحال عليه في الأراضي الفلسطينية المغتصبة، التي أصبح بعض أشباه المؤرخين المأجورين الخونة والمهرولين من بعض الفنانين الذين يبررون بتحليلاتهم وحضورهم في المعارض المنظمة في "إسرائيل" وجود هذا الكيان الغاصب والتطبيع معه والأمثلة على ذلك عديدة.

لقد عرفت القضية الفلسطينية في بدايات أوجها فورة ثقافية وفنية لدرجة تسببت في تهديد واختطاف ومقتل عدد كبير من السياسيين والمثقفين أمثال محمود درويش الذي نوقشت أشعاره بالكنسيت الإسرائيلي، ومقتل الروائي غسان كنفاني بخمس كيلوغرامات من الديناميت، و"كأنهم سينسفون عمارة" على حد قول أحد الكتاب، ومقتل الرسام الكاريكاتوري ناجي العلي بالرصاص بأحد شوارع لندن وغيرهم كثير.

فإذا كان الطرب والموسيقى في خدمة القضية الفلسطينية من خلال الشعر كتجربة الفنان مارسيل خليفة والشاعر محمود درويش من لبنان وفلسطين، وتجربة العواد والملحن حسن شيكار مع الشاعر صلاح الوديع والمطرب العواد سعيد المغربي مع

(*) تشكيلي/ ناقد جمالي من المغرب

الشاعر الزجال عبد الله ودان... فإن أهمية هذه الثنائيات الإبداعية نابعة من عمق الإيمان بهذه القضية إلى جانب قضايا أخرى اجتماعية وإنسانية، ثم بأهمية المرجعيات الثقافية لهؤلاء المبدعين والمثقفين والإنذار بخطورة الوضع الذي يهدد كيان الأمة العربية.

فما انطبق على الموسيقى والشعر امتد إلى التشكيل والشعر، من خلال معارض شخصية وأخرى ثنائية وجماعية عبر خمسة عقود زمنية، متراوحة بين الطرح المباشر وغير المباشر في التشكيل، فكان العمل الفني التشكيلي الشعري الموسوم بـ "النشيد الجسدي" كنموذج، من بين هذه المساهمات الراقية في التعامل مع هذا الموضوع الشائك، لما تحمله هذه التجربة من حس جمالي وثقافي في نفس الآن، تجمعت حوله طاقات إبداعية كمشروع على المستوى التقني والنضج الفكري، للتحسيس بأبعاد هذه القضية والتنبؤ بمصيرها الذي تحول في أيامنا الأخيرة من قضية عادلة لقضية أرادوا بها ظلمًا وعدوانًا محو الخريطة الحقيقية لأرض فلسطين، تحت ضغط المساومات في ظل انهزام وجشع القوى العربية وتخلفها، لضمان الكراسي والامتيازات على حساب شعب لا يمكن المساومة عليه، ومن بين الأعمال الأساسية والهادفة التي عرضت في الغرب وتركت صدى وغيرت نسبًيا وجهة نظر الغرب نحو القضية الفلسطينية، هو العمل الموسوم بـ "صبرا وشاتيلا" للفنان العراقي ضياء العزاوي المقيم بلندن، فكان هذا العمل بمثابة لوحة جورنيكا للفنان الإسباني بابلو بيكاسو، التي كانت صرخة في وجه النازية والاستبداد، والتي قال عنها الشاعر بول إيلوار في مقطع شعري ما يأتي:

...تحت سماء "جورنيكا" الصافية
عاد رجل كان يحمل بين ذراعيه
حملًا يئن وفي قلبه حمامة
يغنى من أجل الرجال الآخرين
أغنية الثورة المجيدة
التي تقول للحب مرحى
وتقول للظلم لا
تقول إن "جورنيكا" مثل "هيروشيما"
هي عاصمة السلام الحي
"جورنيكا" إن البراءة يا "جورنيكا"
ستستخلص حقها من براثن الجريمة.

فما انطبق على هذه التحفة، كان من مصير ما قيل عن أعمال الفنان الفرنسي من أصل بولوني فلاديمير فيليكوفيك، الذي قال: "أنا أرسم ما يفعله الإنسان للإنسان"لأنه عاش عنجهية وظلم النازية بقريته، فبقيت تلك المشاهد الطفولية المروعة راسخة في ذهنه، إلى أن ترجمها عبر تقنيات التشكيل في أعماله اللاحقة الموسومة بـ "مأدبة الغربان" وتمزقات الأجساد، أو بما قدمه الفنان الكولومبي فيرناندو بوتيرو من أعمال حول شراسة التعذيب بـ "حبس أبو غريب" أيام الاجتياح، أو فيما قدمه الفنان المغربي محمد القاسمي من أعمال تشكيلية عن موضوع يحكي فيه عن "شهرزاد والحرب"، وعن المغتصبين من العيون الزرق على حد قوله، فكانت كل هذه الأعمال بمثابة مرآة لمعاناة الشعب الفلسطيني من خلال لوحة "صبرا وشاتيلا"، التي تعكس وبنفس المضمون والرؤية، الظلم والاستبداد في الأراضي الفلسطينية المغتصبة.

اعتبر الفنان (ضياء العزاوي) انحيازه الفني لما سمي بالقضايا الحيوية في بعض حواراته، موقفًا أخلاقيًّا،

جنين/ ضياء العزاوي – العراق

شكل خلافات في علاقاته بالمؤسسات السياسية العربية حسب قوله، سواء الحزبية منها أو الرسمية، باعتباره فنانًا صادقًا يعمل على مواجهة تحديات البحث الفني في بعده الأخلاقي، ليثبت ضرورة اتخاذ المواقف الواضحة، بما أنَّ الفنان جزء لا يتجزأ من التركيبة المجتمعية التي ينتمي إليها، حيث إنَّه لم يكن بمعزل عن كل هذا التراث بروافده التاريخية والثقافية والفنية، ولم يكن بعيدًا عن القضايا الراهنة في ارتباطها بهذا الموروث الإنساني، الذي حاول الكيان الصهيوني طمسه ليظهر الشرق في موقف ضعف من خلال تجريده من ذاكرة كانت وما زالت مصدر قوته وصموده.

ولكون الفنان (ضياء العزاوي) ملتزمًا من حيث المعنى والشكل بجرأته المعهودة، وبمواقفه الثقافية والفنية والسياسية والقومية، كانت نصرته للقضية الفلسطينية من بين انشغالاته وأولوياته الإبداعية، فكانت جل إنتاجاته الإبداعية تصب في هذا المنحى من خلال مجموعاته الفنية لمحفورات gravures

ورسوم اتخذت من الكلمة والصورة عنوانًا لها، من بينها: "أرض البرتقال"، "سنوات الذبح الفلسطيني"، "النشيد الجسدي"، ورسوم وقصائد لقصص غسان كنفاني وعن "تل الزعتر".

فـ"صبرا وشاتيلا" هي اللوحة التي لم يحضر فيها الحرف بشكل لافت، بل حضرت الصورة فيها بطريقة مهيمنة توزعت على مساحة السند ضمن تكوين توزع على مشهدين أفقيين ثنائيين، اشتمل على عناصر تركيبية متناثرة كالكراسي والوجوه والأيادي والطيور. وتقاطع فيها التجريد بالتشخيص ليشكل نافذة كبيرة مشرعة على حدث في بعده السردي لمأساة الشعب الفلسطيني بالمخيمات، في قالب تحكمه وحدة متناغمة مرئية، جعلت من هذه اللوحة تذكيرًا في بعده الرمزي بلوحة "الجورنيكا" كما سلف الذكر، بما تحمله من أشكال وأحداث تعبر وتصب هي الأخرى في نفس الوقائع وتتقاطع في نفس الفكرة، التي تتكرر وتعيد نفسها في حلقة تاريخية مغلقة.

وبما أن الحديث قد يطول عن العلاقة التاريخية التي تربط القضية الفلسطينية بالتشكيل، فإن المحطات النضالية على المستوى المرئي، كانت دائمًا حاضرة في الوجدان العربي البعيد عما هو رسمي، كمساهمات فنية تخضع لشرط الإيمان بهذه القضية، ليس من طرف التشكيليين الذين لا يحملون إلا الهم الجمالي والتزييني، بل ممن لهم مرجعيات ثقافية عميقة تطل على كل الأجناس الإبداعية الأخرى من شعر وقصة ورواية ومسرح وسينما. وقد صادف أن اشتغلت شخصيًّا صحبة الفنان نور الدين في أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات على أعمال موقَّعة ثنائيًّا بتقنية السيريغرافيا أو ما يسمى بـ الطباعة الحريرية، بمناسبة ذكرى أطفال الحجارة، ثم على أعمال زيتية من الحجم الكبير تحيل على مشاهد من غزو الحفاة والعراة لأراضٍ ليست ملكهم.

إذن، وإن اعتقد بعضهم بأنَّ القضية الفلسطينية خاسرة سياسيًّا في هذه الآونة، فإنها ستظل على عكس ذلك، حاضرة في وجدان كل عربي أصيل وصامدة في وجه الغزو الصهيوني الغاشم إلى أن ترجع الأمور إلى نصابها، من خلال الذاكرة الجماعية العربية عبر الثقافة والفن ■

◆ صبرا وشاتيلا/ ضياء العزاوي – العراق

هاني زعرب و بشار الحروب
وجهان تشكيليّان لقضيّة الإنسان الفلسطيني

نجاة الذهبي(*)

الإنسان هو القضيّة

تسكنُ القضيّة الفلسطينيّة في أماكن قريبة جدًّا منّا، نجدها في الموسيقى والمسرح وفي الروايات والكتب واللوحات والمتاحف. يحرّك جوهرها الحركات الفنيّة التي يعبّر عن طريقها الفنانون الفلسطينيّون عن مظاهر مقاومتهم المستمرّة. ليست القضيّة مجرّد حكاية سياسيّة لشعب يواجه الاحتلال، بل هي سِيَرٌ لحيوات وتجارب مختلفة، **"الفلسطينيون كلّهم شعراء** -يقول جبرا ابراهيم جبرا- **قد لا يكتبون شعرًا، ولكنّهم شعراء، لأنّهم عرفوا شيئين اثنين هامين: جمال الطبيعة، والمأساة، ومن يجمع بين هذين لابدّ أن يكون شاعرًا"**. لقد كتب حسين البرغوثي "الضوء الأزرق" السيرة الذاتيّة الأكثر "عبقريّة"، حسب قول محمود درويش، لينقل إلينا قلقه الوجوديّ العميق ليس فحسب لكونه فلسطينيًّا وإنّما بوصفه إنسانًا متقلّبًا ومزاجيًّا وربّما مجنونًا. لقد كتب عن اليوميّ والهامشيّ فيه، عن الرؤى والعوالم الموازية التي نسجها في مخيّلته، وعن التسميات المُحرجة التي رافقته في نشأته كالأهبل والسطل والمعتوه. تحدّث عن الحيوانات التي تشبه روحه كالبغال والحلزون والأرانب والصراصير والكلاب والحيتان. كما كتب البحر والغرق والصحراء والعطش، كتب الموت والولادة كما السجن والحريّة.

أعتقد أنَّ الفنّان الفلسطينيّ لا يكتب أو يبدع مباشرة آثارًا فنيّة حول**"القضية الفلسطينيّة"**، ذلك أنَّ موضوع "الوطن" أمر محسوم فيه مسبقًا بوصفه الجزء الراسخ في الكلّ، ولكن **"الإنسان في نهاية الأمر هو القضيّة"** كما يقول الروائيّ الفلسطينيّ غسّان كنفاني، إنَّ القضيّة الفعليّة هي الذات كما تتجلّى في الفنّ. يلتقي العديد من المبدعين الفلسطينيّين حول فكرة البحث عن إنسانيّتهم المفقودة غصبًا. لذلك يكتب الشعراء عن الحبّ والحياة والنساء، ويسرد الروائيون قصصهم حول التّرحال والتهجير والغربة والأسر، ويقدّم الرسّامون آثارًا فنيّة تعالج مسائل جوهريّة وعميقة كالهويّة والانتماء والذاكرة. فنجد معارض للفنّ التشكيليّ المعاصر لفنانين فلسطينيين تحت عناوين من قبيل "بلا هويّة" للنحّات والرسّام إياد صبّاح، و"الحرب والرغبة" و"خرائط الذات" للفنّان المعاصر بشّار الحروب، و"درس في الطيران" و"زفت لاند" للرسّام هاني زعرب، والقائمة تطول.

(*) تشكيلية/ ناقدة - تونس

الترصيف، البياض ومعبد السكّر المهدّم

حين سُئِل الفنّان الفلسطينيّ بشّار الحروب عن عنوان الكتاب الذي يعود إليه دائمًا، أجاب مباشرة **"غرباء عن أنفسنا"** للمفكّرة البلغاريّة جوليا كرستيفا. اختزل الفنّان في عنوان هواجسه الفكريّة إزاء "الغربة الوجوديّة" التي يعيشها الإنسان كونيًّا. يؤكّد أنّ كونه فلسطينيًّا لا يعني أنَّه ملتزم بالقضية الفلسطينيّة كما تُطرح سياسيًّا أو اجتماعيًّا، على العكس تمامًا، فقضيّته تتجاوز التفكير العاديّ للاحتلال لتصل إلى مواطن غير مرئية، وتدرك تلك العزلة الأبديّة التي يعيشها الفنّان والتي تَسِمُ كلّ تجاربنا الجوهريّة، يقول **"لم أعد أنتظر شيئًا. فقط أعمل لأشعر بأنّي ما زلت موجودًا"**.

عندما سنحت لي فرصة اللّقاء ببشّار الحروب السنة الماضية، فهمت أخيرًا معنى أن تحمل شقاءك إلى كلّ مكان. جعلني "معبد السكّر" الذي رصّفه بشّار في شكل مكعّب يتسرّب من داخله زيت السيارات الأسود، أفكّر عميقًا في اللّعبة الخطيرة التي يدعونا إليها هذا الفنّان، لعبة والترقّب المتواتر إزاء الزمن الهدّام. إذ يقدّم في مكعّبه تناقضات المرئيّ والمخفيّ، فبين الترصيف والبياض تتقابل فكرتَا الموت والحياة وتتكاثف معانٍ كالتنافر والتضاد والصراع. يحيلنا المعبد إلى كلّ تلك القوالب التي تحتجزنا داخلها وتحمل لامحالة فناءنا معها. هو يُمعن في السخرية من هذا الوجود ومن العدمية. يعبّر عنها بالحفر عميقًا في البياض. يزدري بشّار الحروب والأزمنة الوهميّة ويكشف اختلال الواقع الذي يُذَوَّبُ تدريجيًّا ليتلاشى كالسحر، تمامًا كبياض "الملح" أو "السكّر" أو الكفن، الكلّ ناصع

هاني زعرب

لوحة: هاني زعرب

ولكنّه يحمل "السواد" القاتل. يأخذنا الفنّان إلى طرق للنظر بعمق في الظلام والعتمة، وعبر الأبيض بالذات والحلاوة بالتحديد يقدّم لنا فكرة الدين/ الفخّ، ومفهوم المقدّس المسكون بالشرّ.

هناك مقاربة صادمة في العمل ضدَّ الطهارة المطلقة التي تتبناها الأديان والمقدّسات. يكفل الزمن بتعرية الحقائق البشعة وكشف النوايا السيّئة. تمامًا مثل **"نقطة الحبر التي تلطخ الرداء الأبيض بسهولة وتلوّث كأس الماء بسلاسة على الرُّغم من حجمها الصّغير** – يقول الكاتب السوريّ محمود أغيورلي- **فكذلك يحدث مع الآراء والاتجاهات، ولِكَوْن "نقاط الحبر" كثيرة فليس أسهل من تلويث قُدُسِيِّة أيّ رأي وطُهْرِه"**. يطلب منا بشّار الحروب الوقوف هناك في انتظار لحظة الانهيار التامة لكلّ معتقداتنا الراسخة. يجعلنا نستعيد فترات ضعفنا الاجتماعيّة والفرديّة، ويستوقفنا في مراحل انهيار البناء على لحظات الشكّ التي تنتابنا في الإيمان المطلق بالقوانين والحواجز. الأهمّ من كلّ ذلك أنَّه يشكّك في فكرة "الصمود" والأساليب المعتادة للمقاومة. يعالج بشّار الحروب عبثيّة التشبّث بالشعارات الفارغة عبر تقديم فكرة "النسيان" والذاكرة والعمى. ليس أسوأ من الكذب الأبيض سوى مواصلة التصديق والتعايش في تراكم الأشياء الصغيرة المغشوشة، يقول جبرا إبراهيم جبرا: **"إذا لم يكن الفنّ متّصلًا بجحيم النفس، فإنَّه لن يتصل بفراديسها، الفنّانون الذين يستجيبون دائمًا لما يريد النّاس طرّاشون، صبّاغون، بغايا، سمّهم ما شئت"**.

لا يشبه بشار الحروب في فنّه أحدًا، فهو ضدّ

القوالب الجاهزة والنماذج المتعارف عليها، ضدّ السجن المجتمعي وضدّ الموروث والمعتاد والسائد والتقاليد. يتعامل الفنّان مع مواد وتقنيات متنوّعة، ويختار خامات أعماله بوصفها حاملة لمضمون الأثر الفنيّلا مجرّد وسيلة في الممارسة. تتراوح أعماله بين الرسم والتصوير الفوتوغرافي والتنصيبات والفيديو والطباعة والعروض الجسدية. يحمل الفنّان مشروعًا غير منتهٍ حول التفكير في سبب الوجود. يبحث عن إثارة الريبة والشك في نفس المتلقي ويطرح إشكاليّات إنسانيّة قويّة كمفهوم التهجين والاغتراب والعزلة والخوف والتهوّر والفوضى والعبثيّة. تلاحقه فلسطينيّته في كلّ ذلك عبر كوابيس التهجير والغربة وفي أحلام العودة والحريّة.

"زفت لاند"
الطرق المعبّدة نحو الهلع

هاني زعرب هو الآخر فنّان فلسطينيّ معاصر يعالج قضايا الشعوب العربيّة الراهنة. لقد قدّم الفنّان معرضًا كاملًا بعنوان "زفت" ليعبّر بالكلمة وبالمواد واللوحات عن سلطة "الأسود" داخل مجتمعاتنا بوصفه المضاد لكلّ الألوان. يقول: **"أردت اكتشاف كيفية تحويل شخصية الفضاء المقدس إلى زِفْتْ. لتقليل المسافة بين الموضوع والمفهوم، للتركيز على التدمير المستمر لهذه الأرض.. الأعمال في "زفت لاند" ما هي إلّا مقاربات مفاهيمية لحجم الدمار والحريق والألم. لأجد نفسي في مواجهة معنى الاشتباك بين المقدّس والملعون، سواء على الأرض أو في العمل الفني. وهنا وجدت نفسي أسأل، هل ثمة من فرق"؟**

بشار الحروب

يلعب زعرب على مفردة "زفت" على اعتبار أنَّها ذلك القطران الأسود الذي يملأ ذاكرته وماضيه. هو يشتغل على المادة لكونها الخامة الحمّالة للمتناقضات الماديّة والدلاليّة، بدليل أنَّه يقرنها بكلمة إنجليزيّة "لاند"، مستحضرًا أهمّ خرافات الذاكرة الطفوليّة «Alice in the Wonder land». يطرح هاني زعرب هو الآخر لعبته الجماليّة الذاتيّة المرعبة، فهو لا يكتفي بجعل الأرض مشتعلة وإنّما يستبدل بطرقات الحالمين أرضًا وعرة. يلطّخ قماشاته بمادة الزفت ليصوّر الحركة والسمك والحرارة مستعيدًا صورة المادة السوداويّة. يحتفي بمعنى الضياع

لوحة: بشار الحروب

والهلاك والموت ويقدّم معنى أن لا تكون هناك من طرقات أو سبل للخروج من مأزق اللاّ وطن، ليس ثمة سوى الغبار والرماد والروائح القويّة. يذهب الفنّان بالزفت والأرض إلى معنى العوالم الغيبيّة المسمومة في الأشياء المفقودة كالوطن والسلام والبناء والطرقات، يقدّم لنا صورة نحو اللاّوجهة ونحو المجهول "الأسود"، نحو اللاّعودة.

يحذّرنا هاني زعرب من مغبّة الأحلام الزائفة. يدعونا إلى النظر بواقعيّة إلى "أراضينا" المغتصبة والمُستنزفة. "زفت لاند" هي كلّ تلك الخرافات المفخّخة وهي السموم المعبّدة التي تعمينا عن رؤية أكاذيبنا وحقيقتنا عارية. ليست أرض المنفى وطنًا ولا يحمل الوطن وعد الثبات أو الرسوخ، كما أنّ "اللاّند" التي كتب عنها البريطانيّ لويس كارول لا تمثّلنا فنحن متّسخون بزفت الذكريات ومرارة الفقد. نحن ملطّخون بالخوف، وبالارتياب ومسكونون بالهلع، **"أضحك وأبكي في الظلام وأكتب في الظلام.** يقول الكاتب محمّد الماغوط - **وكلّما قُرع باب أو تحرّكت ستارة، سَترْتُ أوراقي بيدي كبغيّ ساعة المداهمة. من أورثني هذا الهلع"؟**

الطّوابع الفلسطينية
جبهة من جبهات الصراع بين الفلسطينيين والصهاينة

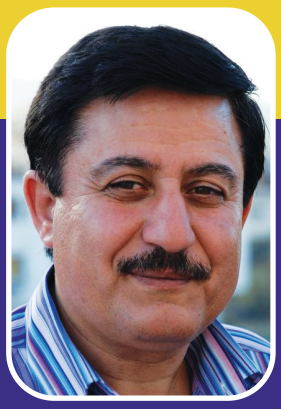

غازي انعيم(*)

تُبرز طوابع البريد تراث الدولة وتقاليدها وعاداتها، ومراحل تطوّر تراثها، وإحياء ذكرى معاركها وانتصاراتها وأعيادها الوطنية، وتعكس آمالها ومسارات حياتها من خلال الرسومات التي تختار وضعها داخل إطار الطّابع. هكذا يمكن اعتبار طوابع البريد أكثر علامات الدّولة حيوية على الإطلاق.

ولذلك يعتبر طابع البريد الأوفر حظّا والأقل وزنًا، والأصغر حجمًا، ومن صفاته أنّه يحمل شعارات ورموزًا، ويشير إلى مكان وزمان الإصدار، والدّولة المصدرة. وهو بعدة أشكال فمنها ما هو مربع أو دائري أو مثلث أو مستطيل، والشيء المشترك بينها وبين جميع طوابع العالم هو حوافها المسنّنة.

وقد ساعد تطور المواصلات في استخدام وانتشار الطّوابع البريدية ومنها الطابع الفلسطيني الذي ظهر قبل الطّوابع التركية، حيث كانت الخدمات البريدية في القدس ما بين 1840 و1846م، ينطلق مرة في الأسبوع إلى يافا، وحيفا، وعكا، وصور، وصيدا فبيروت، ثم يعود أدراجه؛ وكان هناك ختم لكل مدينة من مدن فلسطين له شكله الخاص والمميز.

في عام 1840 م، بدأ البريد المنظم في فلسطين، لكنه كان بريدًا بلا طوابع إذ كان الختم على الرسالة هو الدليل على دفع الرسم المقرر لإرسالها، وحين استُخدم طابع البريد لأول مرة في فلسطين عام 1865 م، ظل خاتم البريد هو رمز فلسطين، وليس الطّابع، ذلك أنّ الطّوابع التي استُخدمت آنذاك، هي ذاتها طوابع الدّولة العثمانية، لكنها تأخذ فلسطينيتها من الخاتم الذي يطبعه مكتب البريد على الطّابع، حاملًا اسم المدينة التي صدر منها، وقد بدأت مكاتب البريد الفلسطينية بتسع مدن، هي القدس، ونابلس، والخليل، وغزة، ويافا، وبيت لحم، وطبرية، وحيفا، ثمّ أصبح عددها في نهاية القرن الثامن عشر 22 مكتبًا.

وأختام ثلاث من هذه المدن – القدس، ويافا، وحيفا – هي الدّليل على فلسطينية نوع آخر من الطّوابع، هي "طوابع القنصليات". وهي طوابع أوروبية، تحمل صورًا لملوك أوروبا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

وما بين 10 شباط / فبراير عام 1918 م، وأوّل تموز / يوليو عام 1920 م، أي بعد سقوط الدولة العثمانية، عمل البريد الفلسطيني تحت الإدارة العسكرية البريطانية التي أصدرت طوابع زرقاء ليستعملها المدنيون في المناطق المحتلة، كتب

(*) تشكيلي/ ناقد - الأردن

عليها "خالص الأجرة"، وميزت بثلاثة حروف انجليزية هي (E – E – F) وهي اختصار لعبارة " قوات الحملة المصرية " وهو الاسم الذي أطلقه الجيش البريطاني على قواته في فلسطين.

وفي أيلول عام 1920 م، أصدرت سلطات الاحتلال البريطاني طوابع خاصة موشحة بكلمة "فلسطين". وقد تمّ هذا تنفيذًا لأمر أصدره أول مندوب سامٍ بريطاني صهيوني في فلسطين، وهو هربرت صموئيل. وأثار القرار معركة سياسية وقضائية، إذ نص الأمر على أن يُكتب اسم فلسطين بثلاث لغات "فلسطين" في الأعلى، وPalestine" " في الوسط، وفلسطين بالعبرية في أسفل الطابع. على أن يتبع الاسم بالعبرية، الحرفان (أ – إ) وهما اختصار لكلمتي "أرتز إسرائيل" أي "أرض إسرائيل"، ليكون في تلك الإضافة تطبيقًا رمزيًا لوعد بلفور!

وثار العرب على ذلك،، فرفع جمال الحسيني، سكرتير اللجنة العربية العليا لفلسطين، قضية ضد الحكومة مطالبًا بحذف الحرفين من الطوابع، لكن المحكمة حكمت بعدم اختصاصها، وثار العرب مرة ثانية مطالبين بطباعة العربية بحجم أكبر من الكلمتين الإنجليزية والعبرية، لكن الإدارة البريطانية لم تسمع لهم، وهكذا كتبت كلمة فلسطين العربية بعرض 8 مليمترات، والانجليزية بعرض 14 مليمترًا ونصف، أما العبرية فكانت بعرض 15 مليمترًا.

وفي 6 ديسمبر 1920 م، صدر طابع من طوابع "خالص الأجرة" وهو من فئة خمسة مليمات، لونه مائل للاصفرار، وهو نادر ومختلف عن أمثاله من الطّوابع، إذ إنّ المسافة العمودية بين كلمة فلسطين باللغة الإنجليزية، ونفس الكلمة باللغة العبرية هي 6 ملليمتر فقط بدلًا من 7 ملليمتر، وهو خطأ لم يحدث سوى في طابع واحد من 240 طابعًا استخدمت معظمها عائلة فلسطينية من حيفا لإرسال بطاقات دعوة لحضور عرس ابنها البكر. ويعتبر هذا الطّابع من أثمن الطّوابع الفلسطينية.

وفي أول حزيران / يوليو ـ عام 1927 م، صدرت أول مجموعة طوابع مصوّرة، تحمل اسم فلسطين، وهي تتألف من 14 طابعًا، وتحمل رسوم أربعة أماكن دينية، وتكشف عن مؤامرة التّهويد التي لم تتوقف بحق الأرض الفلسطينية، حيث اختيرت تصميمات هذه الطّوابع وفقًا لسياسة الاحتلال البريطاني في إبراز الوجه اليهودي الصّهيوني إعلاميًّا، وتهويد ما يمكن تهويده، فالرسوم التي حملتها الطّوابع ورسمها الرسام البريطاني ف. تيلور، تضمنت قبر راحيل، وهو رمز ديني يهودي، و"قلعة القدس – باب العمود"، وهو الذي أطلق عليه الصّهاينة "برج داود"، من

باب التهويد، أمّا التصميمان الآخران فيمثلان "قبّة الصّخرة" في القدس و"جامع مدينة طبرية"، وهكذا اختار الاحتلال الانجليزي رمزين إسلاميين ورمزين يهوديين. وحين تقرر تسعير الطّوابع، اختيرت الأسعار الرخيصة والأكثر شيوعًا في الاستعمال للطّوابع اليهودية، بينما حددت فئات عليا للطّابعين الآخرين، حيث تقل فرص تداولهما.

آخر مجموعة لفلسطين تحمل صورة الحرم الشريف، ومدن فلسطينية، مؤلفة من 22 طابعًا، وأعيدت طباعة جزء منها بفئات مختلفة أكثر من مرّة.

وفي عام 1927 م، أصدرت دائرة البريد في فلسطين "بطاقتين" واحدة باللون الأحمر الوردي الغامق، والأخرى باللون الأحمر الغامق، وفي السنة ذاتها وشّحت مطبعة الروم الأرثوذكس في القدس البطاقات بسطر إضافي باللغتين العربية والعبرية، كما أصدرت حركة التحرر الوطني الفلسطينية عام 1934 م، طابعًا بريديًا بمناسبة المعرض العربي الثاني الذي أقيم في القدس، ويحمل الطّابع عناصر تراثية كتعبير عن رفض الاحتلال البريطاني ومشروع التّهويد. وفي عام 1936م، إبّان الثورة الفلسطينية الكبرى صدر طابعان كانا يباعان لجمع التبرعات لرجال المقاومة. صدر الأول باسم "بيت المال العربي" – الجهاز المالي للهيئة العربية العليا – وصدر الثاني باسم "صندوق الأمة العربي" – وهو المؤسسة التي كانت تعمل لإنقاذ الأراضي الفلسطينية من الوقوع في يد الصّهاينة.

وفي هذين الطابعين شكلت خارطة فلسطين ومسجد قبة الصخرة وكنيسة القيامة الرموز الأساسية للطوابع، والتي نجدها كثيرة الاستخدام في ملصقات الثورة الفلسطينية المعاصرة.

وفي ظل ازدياد المواجهة مع قوات الاحتلال والصّهاينة وعمق الإحساس بالخطر الاستيطاني اليهودي صدرت مجموعة ثالثة عام 1938 م، تحمل شعارات سياسية نضالية مباشرة، تقول: "فلسطين للعرب". وقد طبعت في يافا، واستُخدمت في المناطق التي كان يسيطر عليها الثوار. وتضمن الطابع رسمًا يمثل مسجد قبة الصخرة وكنيسة القيامة.

وكان العرب أيضًا، حريصين على مساندة الحق

الفلسطيني، فأصدروا منذ عام 1945 م، طوابع بريد تحمل اسم فلسطين، وقد بدأت بطوابع أصدرتها مصر ثمّ تلتها سوريا والأردن والعراق ولبنان حيث كان ريعها لدعم المقاومة الفلسطينية عام 1947 م.

كان منطقيًّا أن تنشب الحرب بين الفلسطينيين والصّهاينة على جبهة الطّوابع، كما نشبت على جبهات أخرى متعددة، فالفلسطينيون الذين ثاروا ست ثورات عنيفة بين الاحتلال الانجليزي وإعلان الدولة الصّهيونيّة، كانوا حريصين على عروبة وطنهم، ومدركين لخطر التّهويد الذي لم يترك شيئًا في فلسطين إلّا وحاول سرقته.

بعد انتهاء الاحتلال الإنجليزي لفلسطين في 15 أيار / مايو 1948 م، بقيت الطّوابع تحمل اسم فلسطين إلى جانب أسماء بعض الدول العربية المتضامنة مع فلسطين، ومن هذه الإصدارات، طابع بريدي أصدرته مصر في 4 أيار 1957 م، لمناسبة احتلال غزة، والطّابع الذي يحمل صورة خارطة غزة وُشِّح بشعار "غزة عربية". وبعد عام صدر طابع بريدي يحمل اسم الجمهورية العربية المتحدة / مصر، ووُشِّح بكلمة فلسطين بالعربية والإنجليزية، وشعار يقول: كفاح الشعوب والأفراد في سبيل الحرية، ويحتوي الشعار على قيود حديدية تقطعها الكرة الأرضية مع سرب لطيور الحمام.

وفي عام 1960 م، أصدرت الجمهورية العربية المتحدة طابعًا بريديًا بمناسبة سنة اللاجئين الدّوليّة، وتضمَّن الطّابع الذي يحمل اسم فلسطين رسمًا يمثّل امرأة فلسطينية مع طفلها وهي تشير له بإصبع يدها إلى خارطة فلسطين التي كتب في وسط حدودها كلمة "عائدون".

كما أصدرت العديد من الدول العربية طوابع تضامنية مع الشعب الفلسطيني وقضيته، تحمل في الأساس ملامح النكبة من خلال تصوير جموع اللاجئين الفلسطينيين وحياتهم المختلفة. وذكرى مذبحة دير ياسين، وذكرى افتتاح الصّخرة المشرّفة، والأسبوع العالمي الفلسطيني، وطوابع تروي قصة الدّمار التي لحقت بالبيوت الفلسطينية والأماكن المقدسة، غير أنّ هذه أخذت في موضوعاتها تتأثّر بتصاعد النضال

الوطني الفلسطيني وتحمل معاني الدعم والمساندة لهذا النضال، وتتضمن الرموز المناسبة. ونذكر من هذه الدول المتضامنة على سبيل المثال لا الحصر: الأردن، سوريا، لبنان، مصر، العراق، السعودية، الإمارات، الكويت، اليمن، السودان.

في عام 1969 م، أصدرت فصائل الثورة الفلسطينية قسائم بشكل طوابع بريدية، تمثل أحداث فلسطين المؤلمة، برسوم متقنة غالبًا، بعضها تحمل قيمة إسمية وبعضها لم تذكر عليها القيمة، وكانت تُقَدَّم إلى المواطنين في البلاد العربية، لمن يشاء أن يساهم بدعم المقاومة، وكانت هذه القسائم تُلصق بجانب طابع البريد، ومنها ما كان يختم بخاتم بريد البلد المصدر.

وبعد اتفاقيات أوسلو صدر في مايو / أيار 1994م، أوّل طابع فلسطيني يحمل شعار السلطة الوطنية الفلسطينية وهو النسر، وكانت قيمة الطابع بالمليم، وهي العملة التي كانت متداولة زمن الاحتلال البريطاني، حيث طبعت لتذكر العالم بأنه كان للفلسطينيين وطن وعملة وطوابع، ولكن لم يَرُقْ ذلك للمحتلين أن يتذكر العالم ذلك، فأعيدت كل الرسائل التي ألصق عليها طوابع بريد بقيمة المليم، حيث إنَّ العدو الصهيوني لم يعترف بتلك الطوابع من باب أنَّ المليم لا يمت بصلة للعملات المعتمدة للسلطة الفلسطينية (الدينار، الدولار، الشيكل)، فتم شطب المليم عن الطّابع وتوشيحه بالفلس، بعد ذلك توالت إصدارات الطّوابع بالفلس، بأشكالها وفئاتها المختلفة، وقد كان أول إصدار للطّابع الفلسطيني في ألمانيا.

لقد شكّلت طوابع هذه المرحلة وما تلاها من مراحل وسيلة إعلامية وتحريضية هامة وكتذكارات وطنية، وجدت تعاطفًا كبيرًا من الجماهير الفلسطينية، فهي تعكس نضالهم من أجل الحرية والعودة لوطنهم والعيش بسلام.

هذه الرحلة مع الطّوابع الفلسطينية هي جولة مع فصل من فصول المعركة المتعددة الجبهات بين الفلسطينيين والصهاينة، وهو فصل يدور على مساحة ضيقة من الورق الملون، المختوم والموشح، لكنه –مع هذا– يتفجر بكلّ الدّلالات الحضارية للصراع بين الحق والقوة، وبين المقاومة والمؤامرة، وبين أصحاب التاريخ، صّناع الأثر، ولصوص الماضي سُرَّاق الوطن، لذلك حملت الطّوابع بصمات المتآمرين وعرق أصحاب الحق، كما حملت عواطف المخلصين وتضامن المساندين في كل أنحاء العالم ■

المراجع:

1 - ميشيل سمعان اسطفان: فلسطين طوابع وأختام 1860 – 1990 – الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار – المركز الجغرافي الفلسطيني (ب. ت).

جداريات فلسطينية تحاور باللون الأسود للفنان د. عبدالرحمن المزيّن

عبد الغني محمود عبد الهادي(*)

شكلت جدران غزة وما زالت أرشيفًا أنعش، وما زال ينعش، ذاكرة الشعب الفلسطيني المكافح والمتحدي للاحتلال الغاشم منذ سبعة عقود مضت وحتى اليوم، فقد تم رصد ما يزيد عن (120) لوحة جدارية تمثل الهاجس اليومي لقضية الشعب الفلسطيني. يمكن حصرها بشكل رئيس في مجموعتين أساسيتين الأولى:

1. الجغرافيتي أو الخرابيشي فن قديم توارثته الأجيال، ويرجع إلى قبائل ما قبل الميلاد التي استوطنت شمال جزيرة العرب عاد وثمود والصفويين. وقد نشط الحديثون من هؤلاء الفنانين مع العقد السادس من القرن العشرين، حيث مثلوا بذلك آمالهم وأحلامهم وتطلعاتهم.

وتطورت هذه الظاهرة عالميًا، فاعتبرت عاصمتها الحديثة مدينة فيلادلفيا شمالي الولايات المتحدة، حتى عرفت بمدينة (الجداريات)، إذ تعهد الجغرافيين باعتبار فنهم وسيلة لنقل الثقافة والتقاليد من الجغرافيين جيل لآخر. وصارت فيلادلفيا محجًا للفنانين من أنحاء العالم على الرُّغم من انتشار هذا النوع من الفنون في العالم مثل إيرلندا الشمالية والهند وغيرها من عديد المدن.

فلوحة (الغورنيكا) للرسام العالمي بيكاسو، تعتبر أهم عمل فني في القرن الماضي، رسمها بيكاسو عام 1937 احتجاجًا على الحرب الأهلية الإسبانية. لتغطي مساحة تقدر بحوالي (30م) في غضون خمسة أسابيع.

2. كما اعتبرت الرسوم الجدارية في قرية (كريسان) الفرنسية وثيقة تاريخية نادرة ترجمت للحملة الصليبية الثانية (1149-1146م) إذ نقشت برسوم جدارية ملونة (فريسك) جنوب غرب فرنسا محافظة (الشارانت) منطقة (لانغومية) في قرية كريسان على جدران كنيسة صغيرة بناها فرسان المعبد (الداوية) منتصف القرن 12 تكريمًا لأحد أسياد المساهمين في تلك الحملة.

وتتألف هذه الجدارية من شريطين بطول 16م لكل منها، وتبين انتصارهم على نور الدين زنكي في معركة (سهل البقيعة) 559هـ/1163م.

3. المجموعة الأولى للدكتور الفنان المرحوم إسماعيل شموط عميد الفنانين التشكيليين الفلسطينين وزوجه السيدة تمام الأكحل. وقد بلغ تعداد جدارياته (60) تم رصدها ضمن فعاليات مهرجان الفن الجديد (2011م) تحت عنوان: الكتابة على جدران غزة تحت إشراف الفنانة السويدية ميا غروندهل، زينت

(*) قاص/ باحث - الأردن

جدران غزة وحيطان حاراتها وأزقتها المتورمة بالناس والغضب والمشاعر المختلطة، عكست عباراتها مختلف اتجاهات الشعب الفلسطيني وقناعاته ويومياته ومعاناته ورموزه ودلالاته، وأشهر جدارياته (خان يونس) و (إرادة الحياة أقوى).

4. المجموعة الثانية، تمثل (70) جدارية ذات بعد تاريخي وطني ديني وزعها أمين عام اتحاد التشكيليين الفلسطينيين د. عبدالرحمن المزين خليفة زميله د. شموط على خمس مجموعات، رُسمت بالحبر الأسود الصيني على خلفية بيضاء من الورق. فجاءت على النحو الآتي:

* **الجدارية الأولى:** وتضمنت سبع لوحات تشكيلية، سنة 2001م وقد عرفت بجدارية (إيل) التاريخية. وإيل هذا معبود أسطوري في بلاد الشام منذ ما قبل 3000 ق.م. لقب بـ: أبو الآلهة الكنعانية، أبو البشر، أبو الرجال، الملك، الحكيم، الطيب، ذو الفوائد، المستشار، ترتبط به شجرة النخيل المثمرة رمز الخير والعطاء، عثر له على تماثيل عديدة في مناطق من بلاد الشام يظهر في العادات والتقاليد الشعبية: في الفرح والترح الفلسطينيين، لذا اختاره الفنان المزين لارتباطه بالرمز الكنعاني.

* **الجدارية الثانية:** وتشمل (12) لوحة تحت عنوان صبايا فلسطينيات سنة 2005م وقد ركز الفنان على الصبايا لاعتبارهنَّ رمز الوطن وهويته التاريخية الأثرية الأسطورية والإنسانية والأماني، فاعتمدت الثوب الفلسطيني لأنَّه يمثل الديموغرافية والعنوان وكذلك الأفراح والأشعار الغنائية الشعبية التي قيلت في الغزل بالصبايا، كونها تعود به كما قال إلى ذاكرة الطفولة والشباب التي عاشها مع ليالي الفرح، وكانت تقام سبعة أيام بلياليها.

* **الجدارية الثالثة:** جدارية الواردات (حاملات الجرار).

كذلك يركز الفنان على الفتاة الصبية بزيّها الفلسطيني المتميز لونًا وزخرفًا ومضمونًا، وهذا الموروث يمثل زادًا تشكيليًّا كما يقول. ويلحق به الجرّة والإبريق والتطريز وكل ذلك يتصالح معًا ليشكل بالتالي لوحة حضارية ومشهدًا يعود إلى آلاف السنين. ومن أغاني الصبايا، أغنية عتابا خاصة بحاملات الجرار من الصبايا.

على عين المية محبوبها وردها
وبيدو رفع الغرة وردها
نسيم الصبح يا ملوح وردها
بالله تجيبلي منها جواب

* **الجدارية الرابعة:** جدارية صمود بيت حانون وتشمل (اح) لوحة بيت حانون (7 كلم شمال شرق غزة) و(حانون) اسم قائد أو حاكم كنعاني.

وقد شهدت البلدة معركة شهيرة انتصر فيها المسلمون على الفرنجة 637هـ وقع فيها أكثر من 2000 منهم ما بين ملك وقائد وجندي وفارس مقابل عشرة من المسلمين فقط. مما جعل المنطقة تتغنَّى بتلك الموقعة وحتى اليوم.

* **الجدارية الخامسة:** ذكريات من الوطن - (دلعونة).

اتخذ الفنان المزيّن من الفتاة الصبية الجميلة رمزًا للوطن الفلسطيني المحملة بالرموز المختلفة المتنوعة من أسطورية تاريخية وتراثية جمالية ودينية

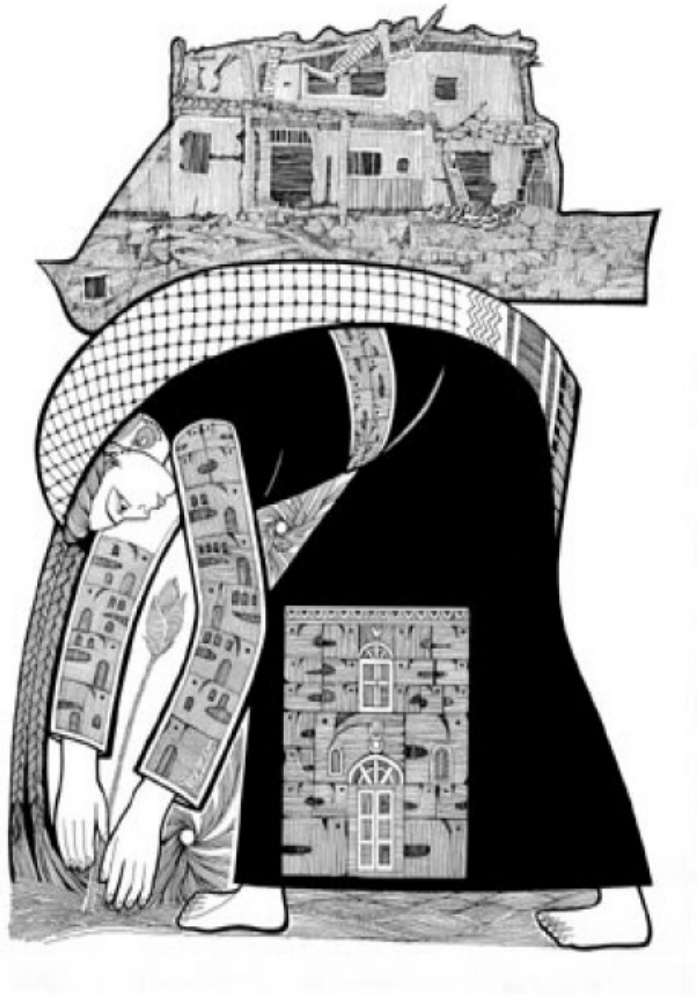

إنسانية، مما يمثل له حالة الفرح.

أما حالة الحزن فيمثلها الطفل بما حرم منه من إنسانية وألعاب وفرح. فجاءت في 16 لوحة تشكيلية رسمها 2008م.

بقي القول إن المقارنة بين المجموعتين من هذه الجداريات تُعنيان بذاكرة الشعب الفلسطيني وإرهافه وحضوره تحديًا وإصرارًا على عدالة قضيته وحضورها المستمر منهما طغت عوامل التعتيم والطمس والعدوان الغاشم.

من جهة أخرى ناحية الأسلوب الفني المنفذ، فجداريات الفنان شموط نفذت بالتعبيرية الواقعية التي ناغت الواقع واحتفلت به في الجميع المواقف من فرح أو ترح.

بينما نفّذ الفنان المزين جداریاته بالحبر الأسود محاورًا الواقع مسقطًا عليه الرمز التاريخي بأبعاده الأسطورية والماثلة. والأسلوبان استكملا البعد المطلوب ومحققين أروع آيات الإبداع، ارتقاء بالقضية الفلسطينية إلى العالمية من أوسع أبوابها، ولعل هذا يذكرنا بلوحة الجرنيكا لبيكاسو 1937 والتي ما زالت حديث اليوم على الرُّغم من مرور ثمانية عقود عليها! مما يؤكد لنا أهمية الفن كسلاح فاعل في تحديد المصير، وتبني قضايا الشعوب العادلة ■

فلسطين في الموسيقي العالمية

محمد محمود فايد(*)

على الرُّغم من كل ما تمر به فلسطيننا من صراعات دائمة وآلام محتدمة، إلَّا أنَّ ذلك لم يمنع صفوتها المبدعة من التعبير عن هويتهم الوطنية، واتصالهم بالمجتمعات الإنسانية، والبعث برسائل حضارية راقية، قوامها لغة موسيقية مشتركة تصرخ بالآلام، فتحرك الوجدان، تجيش بالآمال، فتنبه العالم، لتشكل بذلك، قوة ناعمة، تؤكد: أهمية السلام، والقيم الأخلاقية، والحقوق الفلسطينية المشروعة، وأنَّ الإنسان الفلسطيني، مثقف متحضر، وفنان واع، يتواصل فنيًّا ويتعامل حضاريًّا، ضاربًا المثل والقدوة، بإبداعه المزيد.

ولا غرو، فالموسيقى ليست لغة عواطف فحسب، بل لغة فكر وفهم كذلك؛ تسمو بسمو الإنسان وترق برقيه؛ فالمجتمعات الإنسانية، تعبر موسيقاها عن عواطف تسمو عن الشهوات الحيوانية، والأغراض الذاتية. فإذا أردت، وفقًا لكونفوشيوس، "أن تتعرف على حضارة أمة، فاستمع لموسيقاها". ففن الموسيقى لم يكن يومًا إلَّا جزءًا من الكبرياء القومي عند كل شعب". (د. أحمد عبد ربه موسى: مدخل إلى علم الموسيقا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2008م، ص7) وفلسطين لديها الكثير من الإبداعات في الموسيقى الكلاسيكية العالمية، أبدعتها مجموعة من الأساتذة والخبراء العباقرة، فأثروا الحياة الفنية عمومًا، والساحة الموسيقية خصوصًا، فضلًا عما أفادوا به الإنسانية من تنظيرات تقدمية. ولم تزل طاقة الحب والجمال، حاضرة. ولم تزل الرغبة في حياة أفضل، هدف مشروع، وحلم غير مستحيل.

متتاليات موسيقية

أبدع الوالد: "لاما"، الكثير من المؤلفات، منها أعمال كورالية للأرغن، ومقطوعات غنائية للكورال، وبعض القداسات، والمقطوعات الآلية. فضلًا عن تتلمذ الكثيرين عليه، وتأليفه العديد من المؤلفات الموسيقية الكلاسيكية للمناسبات المختلفة والتي نشرت بعضها في أوروبا.

ويعتبر الابن: أوغسطين لاما (1902 - 1988م) أبو الموسيقى الفلسطينية، وأحد الأساتذة الذين برعوا في الموسيقى الكلاسيكية، فمن إبداعاته: موسيقى "بوست لوديو" عام 1948م وهو عمل للأورغن، يعبر عن الانتماء الوطني، ويجسد آلامه العميقة، كموسيقي، بعد تمزيق فلسطين وتحطيم القدس. ولإبداعاته الرائدة، أهدته الفاتيكان عضوية فخرية، ومنحه الملك عبد الله ملك الأردن وسام الاستقلال.

(*) باحث في الثقافة الشعبية والفنون - مصر

تتلمذ عليه الكثير من المؤلفين الموسيقيين.

أما الحفيد: باتريك أوغسطين لاما (1940م - ...) فأبدع العديد من المؤلفات التي نالت شهرة واسعة غربًا وشرقًا. فضلًا عن مؤلفاته المبنية على قصائد لبعض الشعراء، مثل: بدر شاكر السياب، وشوقي عبد الأمير، ومحمود درويش. عام 1999م كتب أوبرا "كنعان" وهي من أوائل الأوبرات باللغة العربية، حيث قدمت عام 2000م في ألمانيا. وللموسيقار نشاط كبير في جمع وتوظيف الفلكلور الموسيقي. ألف كتاب: "الموسيقى الشعبية الفلسطينية"، وكتب العديد من المؤلفات الموسيقية، أهمها: العمل الأوركسترالي "أور سالم"، والذي أهداه إلى القدس.

غنائية "بطاقة هوية"

أبدعها، سلفادور عرنيطة (1919 - 1985م) أحد العباقرة المجهولين الذين أنقذوا الموسيقى الفلسطينية من الغرق في المحلية، فعلى يديه أسمع وأمتع العالم بروائع استلهامه للفلكلور الفلسطيني في الموسيقى الكلاسيكية. تميز "بتقنيات عالية في التأليف والتوزيع والتفكير الموسيقي والتطوير اللحني الدرامي والمنطق الموسيقي، سواء في الكتابة للبيانو أو الأرغن أو للأوركسترا أو للكورال. ويمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لمدرسة الموسيقى القومية العربية السيمفونية. (سليم سحاب: سلفادور عرنيطة موسيقار فلسطين الأكبر، مجلة شئون عربية، العدد 133، جامعة الدول العربية، ربيع 2008م، ص164) وفيما عدا الأوبرا، لم يترك نوعًا إلَّا وكتب فيه، لتبلغ مؤلفاته حوالي 204، أشهرها "بطاقة هوية" التي رفعت شاعرها محمود درويش إلى مصاف أشهر الشعراء. وهي تحفة موسيقية رائدة؛ لعمقها الفكري والانفعالي والوجداني والفلسفي والدرامي في تاريخ

◆ الموسيقار باتريك لاما

الموسيقي؛ وبين كل الكتابات للأوركسترا السيمفوني في الوطن العربي، بالإضافة للحرفية العالية في استخدام الأوركسترا. قدمت هذه القصيدة عام 67، فأحدثت دويًّا هائلًا، مع أوركسترا القاهرة السيمفوني، وكورال الأوبرا المصرية، وسوليست باريتون جربيس بويجيان وهو مغن أوبرالي لبناني أرمني الأصل، ومادتها الموسيقية غنية إلى جانب استخدام طريقة Liet motif والألحان الشعبية، والتفكير الموسيقي الشمولي، والاستخدام المبهر للتيمة القائدة التي ابتكرها فاجنر، وهي عبارة عن رمز لشخص أو فكرة

معينة تأتي في السياق السردي والدرامي، وكأنَّ لكل شخصية تيمتها الخاصة. استخدم سلفادور هذه الطريقة ليرمز بالتيمة إلى الكلمة الأولى من جملة "سجل أنا عربي ورقم بطاقتي خمسون ألف"، فاستعملها حوالي عشرين مرة على كل الآلات، أما دورها الدرامي، فترمز للإصرار على المقاومة.

ولم ينس التعبير عن الطبيعة الفلسطينية الجميلة وتلحين بعض المقاطع على ألحان فلكلورية عند كلمات: "أنا لا أكره الناس ولا أسطو"، مستخدمًا طريقة Recitativo كخلفية موسيقية ل"ع القهوجي" الفلسطينية في عبارة: "لا إله إلَّا الله" بعد الاستراحة الريفية الجميلة، ثم يرجع للتوتر الدرامي المتصاعد للذروة: "حذار من جوعي ومن غضبي"، يغنيها الكورال بمصاحبة كل الاوركسترا في غاية الإعجاز الموسيقي والجمالي، إلى أن تتفجر لآخر مرة بانفعال وجداني غير مسبوق في التأليف السيمفوني العربي.

التأليف السيمفوني

يعتبر العالم الموسيقي يوسف خاشو (1927 - 1997م) أغزر مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية باعًا بسيمفونياته الاثنتي عشرة، وهو من تلميذ بارع لأوغسطين لاما. دعاه الملك حسين عام 1966م لإنشاء معهد الموسيقى الوطني بالأردن، فكان أول مدير له. ساهم أيضا بدور كبير في تأسيس أول فرقة اوركسترا في حلب. كما قام بوضع مناهج جديدة لتعليم الموسيقى في ليبيا.

أشهر سيمفونياته: سيمفونية القدس التي عبر من خلالها عن عروبة القدس، ومزج فيها بين الإطار الغربي، وبين الروح الشرقية، وهي تحتوي على أربع حركات:

الأولى: تمثل تلبية المسلمين للصلاة بنداء الله أكبر.

◆ الموسيقار يوسف خاشو

الثانية: تعبر عن حالة فلسطين المضطربة إبَّان عام 1948م، وحتى نكبة 67.

الثالثة: تمثل كفاح الشعب الفلسطيني عام 67 ضد جيش الاحتلال.

الرابعة: تعبر عن أحزان الشعب الفلسطيني.

في سياق العمل، يشعر المستمع بالتأثير العميق للانفجارات المفاجئة، والفترات العصيبة، والانتفاضات الفلسطينية.

ويعتبر الأخوان نيكوديم من التلاميذ النابهين، أيضًا، لأوغسطين لاما. قدم فرانسوا نيكوديم (1935 - 1976م) الكثير من الحفلات على الموسيقية، وحاز شهرة واسعة بمعزوفاته، على البيانو، لموتسارت وبيتهوفن وغيرهما. وسرعان ما ذاعت شهرته العالمية. تعلم القيادة والتأليف الموسيقي، وحول مؤلفاته الصغيرة إلى أعمال أوركسترالية ضخمة، فكتب: سبع افتتاحيات، وثلاث سيمفونيات، والعديد من المؤلفات لموسيقى الحجرة وآلات البيانو والفيولين، وخمس عشرة مقطوعة للبيانو منها الرقصات الشرقية.

أمَّا ويليام نيكوديم (1947 - ...) فذاعت أعماله الموسيقية، محليًّا وعالميًّا، منذ العام 1972م، ومنها: "دموع أم"، وأربعة أجزاء قداسات بمصاحبة الأرغن. فضلًا عن بعض المؤلفات التي يخاطب، من خلالها، الإنسانية بلغة عالمية راقية من الجمال والرومانسية.

فن الأوبرا

عام 2009م شهدت دار الأوبرا الفلمنكية بمدينة أنتويرب البلجيكية، عرضًا أوبراليًّا مبتكرًا، يصور مدى المعاناة التي يعيشها الشعب الفلسطيني تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي. وهو أوبرا "شمشون ودليلة" التي بُنِيت على الأوبرا الأصلية التي أبدعها، لأول مرة، الموسيقار الفرنسي شارل كاميل سان صانص عام 1877م، وتدور أحداثها عام 1150 ق. م. أمَّا الأوبرا الحديثة فإخراج مشترك للمبدعين: أومري نتسان (الإسرائيلي)، وأمير نزار نجار (الفلسطيني). وهي تصور ما حدث/ يحدث في غزة من معاناة واضطهاد، لاسيما أنَّ المعنى المقصود، يتضح منذ المشهد الأول، حيث يدعو "شمشون" الفلسطينيين للكفاح ضد الجيش الإسرائيلي في هذا العرض. بينما كان "شمشون" في الأوبرا الأولى يهوديًّا تخدعه عشيقته "دليلة" وتقص شعره مصدر قوته الخارقة، فيهدم المعبد عليه وعلى أعدائه، بعد أن دعا الرب، أن يعيد له قوته للحظة واحدة. قام المخرجان بتوظيف الكثير من المشاهد والصور المعاصرة التي التصقت بالذاكرة الإنسانية من خلال الصور التي جسدت الاعتداءات الإسرائيلية، مثل: صور الصِّبْية الذين يواجهون الدبابات بالحجارة، ومشهد الطفل "محمد الدرة" الذي اغتيل بين ذراعي والده، فكان بمثابة الرمز أو التيمة المتكررة في العمل المستلهم ببراعة.

تبلغ الأوبرا ثلاث ساعات تقريبًا. وخلال أيام عرضها، امتلأت شوارع المدينة البلجيكية، بملصقات الأوبرا التي حملت صورة طفل فلسطيني يقذف قوات الاحتلال بالحجارة. حيث أحدثت، ضجة كبيرة تثبت أنَّ: للفن رسالة إنسانية مهمة يمكنها أن تلعب أدوارًا متزايدة الأهمية، بحيث تسهم في تشكيل رأي عام عالمي موحد تجاه القضايا الكبرى. وذلك من خلال تنوير تلك الفنون العالمية المشتركة، وتبصيرها للشعوب والمجتمعات، بالحقائق الميدانية، ودعوتها الدائمة لقيم: الحق، والعدل، والجمال.

ويبدو أنَّ انتشار هذه القيم النبيلة، هو ما تخافه "إسرائيل"، فقد هاجمت دار الأوبرا البلجيكية. وهي الأداة المنهجية التي دأبت على استخدامها، داخل وخارج فلسطين. ذلك لأنَّها، تدرك جيدًا أنَّ: المبدع، آخر من ينهزم، وأول من ينتصر ■

◆ سلفادور عرنيطة

دراسات أدبيّة

- كمال أبو حنيش
- تحسين يقين
- محمد عارف مشّة
- ذكريات حرب

الكتابة والسجن

كميل أبو حنيش(*)

ولدت فكرة هذا المشروع الكتابي أثناء اعتكافي وإحجامي عن الكتابة مدة أسبوع في شهر أوكتوبر من هذا العام (2020) وذلك لأول مرة منذ ولوجي عتبة الأسر. وكان هذا الإحجام نابعًا من إحباط مؤقت مررت به في ظل الحالة العربية البائسة، وفي ظل حالة فلسطينية متردية ما تزال تدور في ذات الحلقة المفرغة. حيث ساورني الشك في جدوى الكتابة ونحن نعايش كل هذا الانحطاط.

وقد تلبستني العديد من الأسئلة: لماذا تكتب؟ ولمن تكتب؟ ومع الأيام أخذت تنقشع الغمامات السوداء من رأسي وتحسن مزاجي بالتدريج، وأثناء التأمل في رحلتي الكتابية التي تواصلت زهاء عقدين من الزمن، وجدت أنَّ الكتابة من قلب السجن تُعَدُّ معجزة إذا ما قورنت بالكتابة من أي مكان آخر. أستطيع قول ذلك من تجربتي الشخصية ومن تجارب أخرى مماثلة، إذ إنَّ الأسير الكاتب يحيا في قلب دوامة من الهواجس والتوترات والمنغصات لم يألفها أي كاتب آخر في أي مكان في العالم، الأمر الذي يستحق الكتابة عنه.

ومن هنا ولد هذا المشروع، لقد أسميته مشروعًا لأنَّه ما فتئ يتخلق وينمو، وأردتُ أن أنجزهُ على هذا النحو من الحلقات، كي أُشرك القارئ في النقاش وإبداء الرأي. وبالتالي يساهم القارئ المهتم بالشأن الاعتقالي في تطوير هذا المشروع وإثرائه إلى أن يكتمل.

لقد طويت حتى الآن ما يقارب الثمانية عشر عامًا في السجن في رحلة طويلة قاسية ولا أعرف متى ستنتهي. ومنذ الأيام الأولى من رحلتي الاعتقالية شرعتُ في عملية الكتابة اليومية حتى صارت طقسًا مقدسًا، بل وإدمانًا وحالة مرضية لا شفاء منها. وأنجزتُ حتى الآن ما يربو على خمسة عشر كتابًا متنوعًا في حقول السياسة والأدب والفكر، فضلًا عن نشر عشرات المقالات والدراسات السياسية والأدبية وقصائد الشعر التي تناهز (190) مقالة ودراسة وقصيدة شعرية. بيد أنَّ هذا الاحتفاء الكتابي لا ينطوي على التفاخر بالإنجاز بقدر ما يعكس ألوانًا من المعاناة. فقد كانت هذه الرحلة الكتابية مضنية وصعبة ومكتظة بالهواجس، إذ لم أخطط سلفًا بأن يكون لي مشروعٌ في الكتابة من قلب السجن، وإنَّما أخذت هذه الأعمال تتطور وتنمو إلى أن وجدتُ نفسي كاتبًا منهمكًا في الكتابة والخوض في حقول لم أتصور يومًا بأنني سأكون كاتبًا في أي حقل منها: الرواية، الشعر، الدراسة الأدبية، الدراسة السياسية، المجال النقدي..

(*) أسير وروائي - فلسطين

وفي مواضيع أخرى متنوعة.

إنَّ ما أخطُّه في سطور ليست مذكرات شخصية كأيِّ كاتب يروي سيرته الأدبية أو الفكرية حتى وإن بدت كذلك في ظاهرها، وإنَّما أروي وجهًا من تاريخ الحركة الأسيرة في واحدة من محطاتها الخطيرة، في ظل مشروع تنتهجه مصلحة السجون "الإسرائيلية" منذ سنوات في استهداف للوعي والإرادة والثقافة.

وعندما أروي عن رحلة المعاناة والعقبات التي واجهتني أثناء الكتابة، إنَّما أروي عن حقبة مهمة في معركة التحرر الوطني الفلسطيني، وعن معاناة أعداد من الأسرى الكتَّاب، الذين واجهوا مثلي هذه العقبات وشهدوا المخاضات العسيرة لولادة إنتاجاتهم الأدبية والثقافية والسياسية.

في قادم الايام سوف أتطرق إلى كل كتاب ومؤلف أنتجته، منها ما رأى النور وصدر بعد جهود وصعوبات كبيرة، ومنها ما لم يصدر بعد أو قيد الطباعة، ومنها ما وافته المنية وأجهض قبل اكتماله من قبل السَجان وإجراءاته التعسفية. لقد صار من واجبي أن أروي عن هذه الكتابات التي رافقتني وشكلت جزءًا مهمًا من حياتي ومن هويتي كمناضل وكاتب وأسيرٍ مثقف يؤمن برساله الكتابة، إذ بتُّ أشعر أنَّ هذه الأعمال كما البشر لها حياتها وحقوقها وكرامتها وأنَّ لها أرواحًا تستجدي الحياة وأنَّ من الواجب الأخلاقي إنصافها والحرص على حياتها، والحديث عن رحلتها، بعد أن باتت لها حياة مستقلة عني. كما أنَّها مثلي تعرضت للقمع والتنكيل والملاحقة والاحتجاز، غير أنَّها كانت أيضًا عنيدة مثلي مصرة على الولادة والانعتاق، إذ على الرغم من احتجازها لأشهر أو ضياعها تظل تصرخ وتتحدى ولها نداؤها السِّرِّيُّ الذي كان يحثني أن ألاحقها، إلى أن تعود إليَّ من جديد، لأعيد إنجازها وتسريبها خارج الجدران.

سألني العديد من الأصدقاء: كيف تكتبون؟ وكيف بوسعكم إخراج كتاباتكم خارج الأسوار؟ وكان يتعين عليَّ الإجابة عن هذه التساؤلات، بإجابات مقتضبة وبما تسمح به ظروفنا والتي تضمن عدم انتهاكي لأحد الأسرار. وها أنا بعد سنوات أحرر بعض الإجابات عن كيفية الكتابة خلف الأبواب الموصدة. غير أنَّ الإجابة عن سؤال الكتابة في السجن، قد يحتاج إلى دراسات أكثر عمقًا تأخذ في حسبانها البدايات الأولى للكتابة الاعتقالية منذ أكثر من نصف قرن، إلى أن صار متاحًا إخراجها بوسائل متطورة. بعبارة أخرى أن تبحث هذه الدراسات الوسائل التي اعتمدها الأسرى في تهريب كتاباتهم منذ الكبسولة وحتى تصويرها على المحمول.

منذ اندلاع الانتفاضة الثانية، شددت إدارة مصلحة السجون من إجراءاتها ضدَّ أيَّة مادة مكتوبة يجري تسريبها للخارج، وتعاملت مع الأمر من زاوية أمنية. فقد كانت وسيلتنا في البداية في تسريب كتاباتنا إمَّا عبر ما يُعرف بالكبسولة أو من خلال المغامرة وإخراجها مع الأسرى المحررين. وفي هذه الحالة تكون هذه الكتابات خاضعة لأمزجة إدارات السجون، فإمَّا أن يجري السماح بإخراجها وإمَّا أن تجري مصادرتها إلى الأبد. حيث اختلفت هذه السياسه من مرحلة إلى أخرى ومن سجن لآخر أو حتى من ضابط لآخر. في السنوات الثلاثة عشرة الأولى من أسري اعتمدتُ وسيلة إخراج كتاباتي مع الأسرى المحررين، فخرج بعضها بينما جرت مصادرة بعضها الآخر.

وفي السنوات الأربعة أو الخمسة الأخيرة صار مُتاحًا إخراج هذه الكتابات عبر الهواتف المهربة، وهذه الوسيلة شكلت اكتشافًا مذهلًا، ونقلةً نوعية

في تطور أعمالي الكتابية.

ولإزالة أي التباس، أود التوضيح أنَّه لا يوجد هواتف شخصية في السجن إلَّا في حالات نادرة، فهي في معظمها مُعَدَّة للاستخدام العام، يحصل بموجبه الأسير على وقتٍ محدد يتراوح بين دقائق أو ساعة في أحسن الأحوال. ويتعين على الكاتب أن يتدبر أمره في هذا الوقت اليسير. وهذه الهواتف بدائيةٌ وليست حديثة، ويجري استخدامها في حالة الأسير الكاتب من خلال تسجيل المواد. حيث يقرؤها الأسير على السماعة وفي الطرف الآخر يجري تسجيلها. ومن الجدير الإشارة هنا إلى كون هذه الأجهزة مهربة إلى السجن وليست مسموحًا بها، وهي ملاحقة على الدوام وجرى إنشاء وحدات متخصصة للتفتيش عنها ومصادرتها.

وقد تطورت هذه الوسائل في بعض السجون وصار بالإمكان تصوير الأوراق المكتوبة، لكن وكما أسلفت، فإنَّ معظم أعمالي الكتابية قد جرى تسريبها بطريقة تقليدية أي من خلال الأسرى المحررين، وتعرضت أكثر من مرة للمصادرة. لذا صار يتعيَن عليَّ أن أروي معاناتي مع الكتابة.

لدى ولادة مشروع (الكتابة والسجن) تشاورت مع عدد من الأصدقاء وأذكرهم بصورة عامة: الصديق المحامي حسن عبادي، والأصدقاء الأعزاء رائد حواري وفراس الحج حمد، والدكتور عادل الأسطه والدكتور عقل صلاح وناصر أبو خضير، والصديقة العزيزة عفاف خلف، والشاعرة نداء يونس. وكلهم رحبوا بالفكرة وشجعوها وأمدوني بالمزيد من المقترحات التي من شأنها تطوير الفكرة.

وبهذا ولد المشروع وآمل أن يتواصل ويتكلل بالنجاح، وسأروي من خلال حلقاته تجربة الكتابة في السجن، وعن مؤلفاتي وأعمالي الأدبية والسياسية بعد أن باتت معروفة خارج الأسوار ■

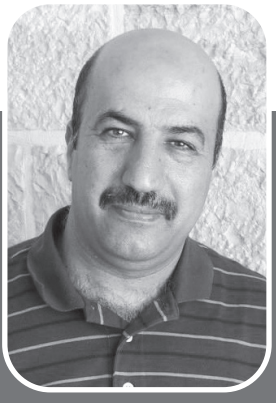

اتجاهات الرواية الفلسطينية خلال العقدين الماضيين: ما استمر من مضامين وما جدّ وما غاب

تحسين يقين(*)

مفتتح:

"حتى نكون جادين، ونضيف لدرس الرواية الفلسطينية، وبشيء موضوعي، فإنَّ نتيجة أي بحث في الرواية وعنها، ستقودنا الى نتيجة، بأنَّ التحولات والاتجاهات في الرواية الفلسطينية، لم ترتقِ كتيار روائي، للأحداث والزمن، ولعل الفترة الزمنية، موضوع الدراسة، وهي العقدان الأخيران، لا تخرج عن ذلك؛ فهناك روائيون يتطورون فعلًا، ولكننا ما زلنا بحاجة ماسّة وطنيًّا وقوميًّا وأدبيًّا لحركة روائية حقيقية. ولا أود ذكر أسماء محددة أعدها استثنائية، وفعلًا تقدم الصوت الإنساني الخاص لا ما هو سائد أو متوقع، ولا مكرر، خاصة في طغيان تكرار أسلوب التعبير عن الهم العام والرأي والحكم والمشاعر والأفكار، لكن القراء هنا سيجدون ذلك بأنفسهم/ن. لذلك فإنَّ أرض الرواية هنا ما زالت بكرًا، وبإمكان الروائيين الإبداع شرط امتلاك صوتهم أولًا، والسيطرة فعلًا على النص المسرود مضمونًا وتقنية ثانيًا، والبناء على المنجز العربي والعالمي ثالثًا".

لم يخرج الروائيون والروائيات هنا عما هو كائن في السرديات الفلسطينية حول الزمان والمكان أيضًا؛ حيث شكل الزمن التاريخي والسياسي عبر مرحلتي النكبة والنكسة، وما بعدها من أحداث وصولًا للانتفاضة الأولى وما تلاها، حيث شكل ذلك خلفية لأحداث الروايات. كما تجلى أكثر من زمن أيضًا قديم ووسيط، تم توظيفه لربط الماضي بالحاضر، حتى ولو كان الماضي بعيدًا. وسيجد القراء ذلك مفصلًا في النصوص النقدية للروايات المبحوثة هنا.

لذلك يرتبط "المشهد الروائي في فلسطين خلال العقدين الأخيرين"، بشكل خاص بالمشهد الثقافي بعد أوسلو، أي ثمة ربط بين العقدين موضع الدراسة، بالثلاثة عقود، وأكثر، مرورًا بمحطة أوسلو 1993، ومدريد1991، بل والانتفاضة الأولى 1988، بل لربما سيأتي من يجعل الخروج من بيروت1982 سنة أخرى للاستناد. وهكذا ستقترب الحقب التي ما زلت تلقي أثرًا علينا كمواطنين وكتّابٍ وفنانين، وصولًا لهزيمة عام 1967، ثم وصولًا لعام 1948، ونكبة فلسطين.

تُرى ما السياق التاريخي الذي ما زلنا نعيشه آخر عقدين (2000-2020)؟ وما القضايا التي ظهرت هنا تلك التي اشتبك معها الرواة- الروائيون والروائيات؟ وكيف كان ذلك مثلًا على مستوى المضمون؟

من المهم دومًا، تذكُّر الزمان المحدد والمطلق،

(*) ناقد - القدس / فلسطين

والمكان، كذلك عمر الكاتب، حيث إنَّ السرد الروائي في فلسطين زاد عن القرن، جيلًا وراء جيل؛ بمعنى أنَّه خلال العقدين الأخيرين دخل الى المشهد الروائي روائيون جدد، وخرج آخرون، أولئك من غيَّبهم الرحيل، فيما استمر روائيون ممن كانوا في السابق، على (تعددية السابق، تبعًا للعمر). وأظن أنَّه، للأمانة البحثية والنقدية، ينبغي أن تحوي الدراسة كل ذلك، مميزة بين ما استمر من مضامين، وما جد من مواضيع أخرى، وطنية وإنسانية، أتى بها الجدد، أو عرف عليها السابقون. وبالطبع فإنَّ موقع الكاتب، وبالتالي منظوره، يختلف ويتشابه تبعًا للمقيم في فلسطين التاريخية، على اختلاف التقسيمات: الضفة الغربية وقطاع غزة وفلسطين المحتلة عام 1948، وكذلك من هم خارج الوطن، ولعلنا هنا نخصّ من هم على ضفتي النهر أكثر.

أثناء رصد الباحث للخصائص والسمات العامة في اتجاهات الرواية الفلسطينية خلال العقدين الماضيين، سيجد كيف استمر الوطن حاضرًا ومؤثرًا على الأجيال، وكيف اشتبك الكتَّاب أيضًا مع التحولات السياسية والاقتصادية، والتكنولوجية، في الشارعين الفلسطيني والعربي.

اتجاهات المضمون

بداية، مرت الرواية والروائيون بعدة مراحل واتجاهات تأثرًا بالتاريخ والأحداث، بل وتأثرًا بكتابة النصوص الروائية نفسها؛ فهي حديثة، وهذا يجعل رصدها أكثر سهولة، كذلك يمنح الروائيين الجدد الفرصة للتجديد أيضًا.

لقد مرت الرواية، بل الشخصيات فيها بما مرت به المذاهب، فهي وقد تأثرت بالتاريخ الحديث والمعاصر، فقد تأثرت رومانسيًّا وواقعيًّا ورمزيًّا (بشكل محدود)، في سياق النظرة الفردية والجماعية معًا.

إنَّه مضمون الإنسان الفلسطيني كإنسان أولًا يعيش هنا، وكفلسطيني تحت الاحتلال، يجرب تأثر المجتمع والأفراد بمنظومة الحكم التي تأسست حديثًا، بتحولاتها. لكن ذلك أيضًا لم يمنع تأمل آفاق الصراع هنا.

وكما ذكرنا وأكَّدنا في غير مكان في هذا الكتاب، فثمة اهتمام بخلاص الإنسان هنا على أكثر من مستوى، ومدى. من هنا عاد الرواة-الروائيون إلى الوراء، لتفسير ما آلت إليه مصائرهم. لذلك لعلنا معا نلحظ المظاهر الآتية:

الاحتلال واللجوء

ظل الاحتلال ربما من أهم المواضيع التي تحرك الكثير من أحداث الروايات، وهو قديم منذ عام 1948، حيث نجد أنَّ الروائي صافي صافي (من كتاب الثمانينيات) والذي كتب عدة روايات، كاليسيرة والكوربة والحاج اسماعيل. وهو هنا في رواية "تايه" 2019، يتحدث عن الأم وابنها اللذين ظلَّا في حالة انتظار بعد نكبة عام 1948، وصولًا لهزيمة عام 1967، والتي ربما ترمز إلى حالة التيه الفلسطيني بين هزيمتين، حيث اتخذ من اسم البطل دلالة، وهي هنا دلالة حالة الإهمال، وثمة تنبؤ ودعوة لإعادة الاعتبار على الذات، والاتجاه نحو المقاومة الذكية الواعية على أهدافها.

نترك رواية اللجوء لنأتي على رواية الواقع الآن، فمن الجيل الجديد، تناولت الكاتبة الشابة أماني اسماعيل في روايتها "هاملت فلسطين" 2017، الانتماء للوطن

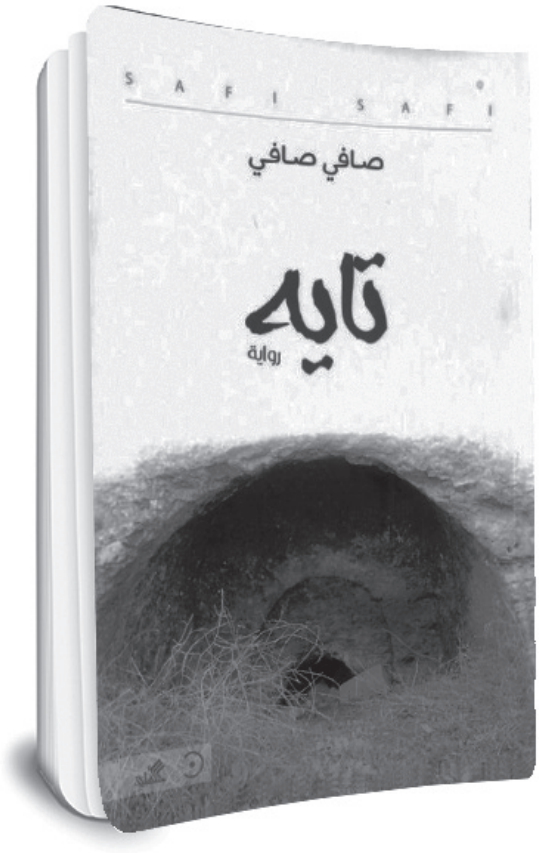

شقيقها "علي" من قبل قوات الاحتلال الاسرائيلي.

ودارت في هذا المجال رواية "امرأة عائدة من الموت 2011" لنافز الرفاعي، حيث الإيحاء بأسئلة التحرر والوهم والجنون والإنسانية وسط صراع لا يرحم باتجاه الخلاص. وهي من الروايات التي امتلكت عنصر السرد الإبداعي، للروائي الطموح، حيث قدّم أسئلة التحرر، كمضمون جاد، من خلال قصص الناس العاديين، مؤلِّفًا فيما بين مصائرهم في التحولات الجديدة.

أما الكاتب بهاء رحال، في روايته "سبت ايلا"، 2019، فقد اختار بيت لحم مكانًا لروايته، حيث الحراك الشعبي ضد الاحتلال، من خلال شخصية البطل الذي يرتبط مع سائحة أمريكية، تصبح متضامنة مع

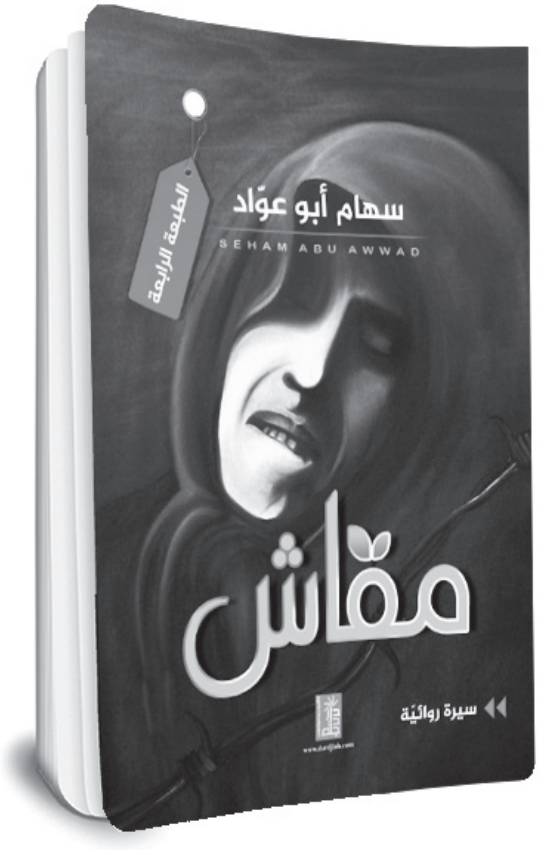

كقضية كبرى، وفي سياقها تناولت إنجاب المعتقلين عن بعد، حيث اختارت فضاء غزة مكانًا، كما اختارت إشكاليات أخرى، بالاستفادة من مقاربة مسرحية هاملت.

وفي رواية مقاش للروائية الفلسطينية سهام أبو عواد، الصادرة في العام 2014، تتعرض الكاتبة لحالة الاعتقال، خصوصًا اعتقال سلطات الاحتلال للأم، وما يمثل ذلك من تجليات على الأسرة، بفقد الأمومة، فيفرغ البيت من الأمومة، ما يجعل الطفلة سهام تنوب عن أمها في تربية أخوتها، فتفقد بذلك طفولتها وتصبح أمًّا لعائلة كبيرة، وتتلخص الرواية في تفسير شكل انتظار العائلة خروج الأم من السجن، ومعاناة الزيارة إليها وهي في قبضة الاحتلال، كما تتعرض إلى قصة استشهاد شقيقها "يوسف" بعد أن زوّجته أمّه فتاة من داخل السجن، كما ذكرت قصة إصابة

الشعب الفلسطيني. ويظهر اتجاه الكاتب في تصوير الشخصيات والعلاقات، والتي يظل مصيرها مرتبطًا بالاحتلال. وهنا ثمة حديث متكلف نوعًا ما عن الهم العام، وخجول ولكن محدود عن الذات، كان يمكن أخذه لمدى إنساني أكثر رحابة.

أمَّا الكاتبة رجاء بكرية، وهي من فلسطين المحتلة عام 1948، فقد ظهر الهمُّ النسوي في ظل الحكم الكولينيالي باتجاه الخلاص، ضمته جوانب رواية "امرأة الرسالة" 2004، حيث كانت مجالًا للبوح برسائل المرأة الإنسانة حول الحب والنفس والصراع والوجود أيضًا، وتنقلها خارج وداخل الوطن، لكن ثمة خصوصية في التعبير عن الكولينالية داخل فلسطين عام 1948، تختلف وتتشابه مع خصوصية الحكم العسكري في الضفة وغزة.

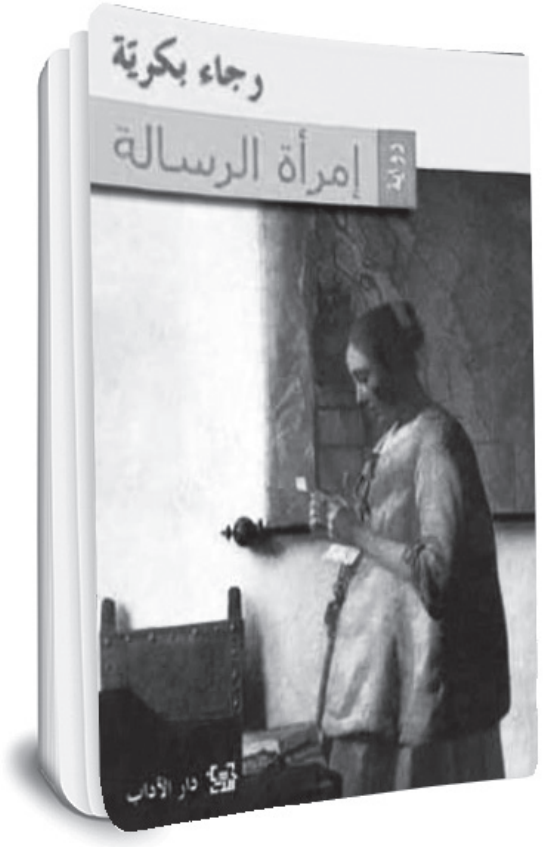

التحولات

كان الكاتب الصحفي حافظ البرغوثي من أوائل من تناول "الربيع العربي" في روايته "سعيد الواحد والعشرون"، 2010 والتي جعل المكان فيها عربيًّا معوَّمًا، دون إشارة لبلد معين بالاسم أو حتى بالإيحاء؛ حيث نحا منحىً ساخرًا في توصيف حالة الحكم، والصدف التي تحكم، من خلال نص مشوق.

أمَّا رواية "بين جنتين" 2018، للدكتور الشاب سرمد تايه، فهي تعبر عن حالة الفلسطيني هنا، وهناك في البلاد العربية، وما ظهر من تحولات، ممثلة بسقوط بغداد، وبذلك، فإنَّنا أمام روائي مسكون بالخلاص القومي، وجد في الرواية مجاله لطرح أفكاره، عبر جمالية اللغة، وجمالية العلاقات الاجتماعية والقومية. ولعله من روائيين آخرين تناولوا موضوع التشظي، وما آل اليه من عنف طائفي واغتراب، في العراق خاصة في الفترة الأولى، ما يعني أنَّ الأدب دومًا ينتصر للإنسانية، التي يسطو عليها المتنازعون جريًا وراء المصالح. لقد اندفع الكاتب من مشاعره، وفكره، قادته الأحداث حينًا، وقادها حينًا آخر، وصولًا لتكرار التعلّق من جديد، عبر تركه لمصير الفلسطيني مفتوحًا في النهاية.

كذلك الحال في "إلى ما وراء عينيك" 2016 للشابة نوال هند، فتمثل المضمون حول الخلاص الفردي والوطني والقومي، من النهاية للبدايات، يظهر ماجد طالب العلوم السياسية، السوري، الذي يدرس في إحدى الجامعات في بيروت، والذي ابتعد عن الحراك والحرب في سوريا، يلتقي المثقف والثوري بطالبة الفنون الجميلة "ألين"، القادمة من حرب غزة، حيث تدعوه الى معرضها الفني، ليرتبطا بمصير شخصي وقومي أيضًا، فيتعرفان معًا إلى تجربة الفقد

المشترك، فهو قد فقد أخاه الصغير قبل سنوات. أمَّا "ألين"، فهي بعدما صارت وحيدة، فقد اختارت السفر خارج غزة، عبر الأنفاق، إلى مصر، حيث احتضنتها أسرة مصرية، ثم لتحصل على منحة دراسة الفنون في بيروت.

فإذا اختار البرغوثي مكانًا عامًّا، وتايه بغداد، وهند بيروت، فقد اختارت الشابة نعمة الله نابلسي في رواية "قطع من الفوضى" 2012 المجتمع الطلابي ووهم الحب والسياسة والأيديولوجيا والبحث عن الخلاص، في المجتمع الفلسطيني، في ظل السلطة الوطنية، وفي الوقت وجود الاحتلال، أي حالة غريبة، متمثلة بتحولات اجتماعية لكن تحت الاحتلال.

أمَّا رواية "كافر سبت" 2012، للكاتب الثلاثيني عارف الحسيني، فكانت دعوة للتفكير في هذه الحالة

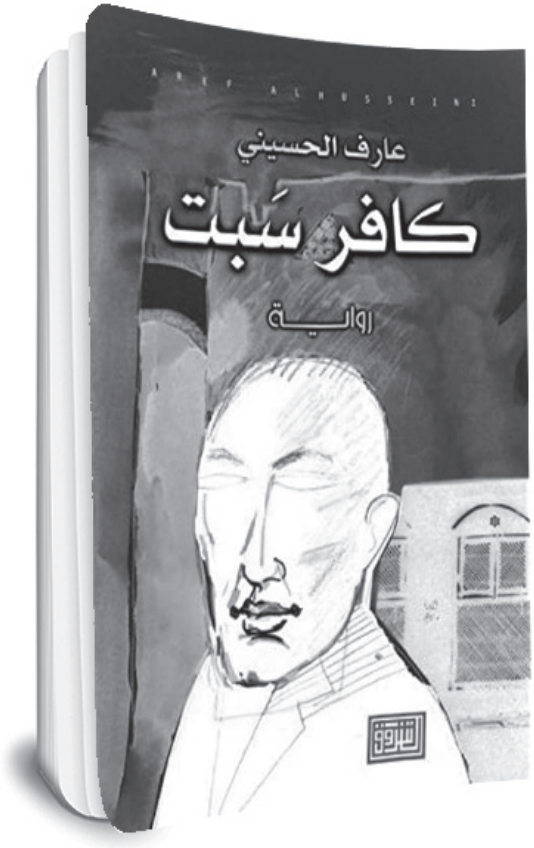

الملتبسة. وهو من الروائيين الذين لفتوا النظر منذ عملهم الأول، بما قدمه من سرد عادي بلغة عادية، حملت رؤية عميقة لمستقبل الصراع. لقد ارتقى الشكل السردي الطبيعي بما حمل من مضمون، ومصداقية كبيرة واقعًا بعيدًا عن ادعاء وتكلف البطولة، باتجاهات رومانسية في قراءة المستقبل. إنَّها تتحدث عن تحولات الباقين في القدس، وكيف يضطرون للتكيف مع الحياة، والعلاقة مع الآخر-المحتل.

في حين نحا الكاتب أسامة العيسة منحىً نقديًّا سياسيًّا، في رواية "مجانين بيت لحم" 2013 (فازت بجائزة الشيخ زايد عام 2015)، عبر الانتصار لرواية المهمشين. وهو من هؤلاء الروائيين الذين بدأوا ناضجين وإبداعيين، حيث ربط مصائر من عرفهم هنا، في المصحة والمجتمع، وصولًا إلى خلاصة مهمة وهي الالتزام تجاه المهمشين، بقصصهم المتقاطعة فيه ومعه وفيه.

لقد اقترب الكتاب هنا، نحو حالة الخلاص الفردي والجمعي، وهو تحد للإنسان والكاتب المعبر عن رحلة هذا الإنسان تحت الاحتلال من جهة، وتحت ظروف تأسيس كيانية وطنية، فيها نزعة السيادة على الأفراد لا على الأرض، وردود أفعالنا في التشبث بالمكان. كما يمكن أن نلمح نقد الرواية للطبقية الفلسطينية الجديدة بل والسخرية منها، والانحياز نحو الشعب، مما يعني أنَّ النقد السياسي هنا لم يكن لذاته فقط. للحياة الاقتصادية والاجتماعية دور في تشكيل شخصية الإنسان، لذلك فإنَّ تأثيرات مرحلة أوسلو لم تقف عند التأثير السياسي، بل امتدت عميقًا في الجذور، فكادت سلوكيات تنتهي، لتحل محلها سلوكيات جديدة، ارتبطت بنخب جديدة،

ذات دخول اقتصادية عالية، أثرت كثيرًا على دوافع المواطنين. فلم يكن سهلًا ألَّا تؤثر علينا الليبرالية الجديدة، وما تبعها من سوق حرّ تحت الاحتلال، جعل ملامح الفقر الباهتة ظاهرة للعيان.

الرواية التاريخية

لعل رواية "الصوفي والقصر" 2017 للروائي المتميز أحمد رفيق عوض، تُعَدُّ من الروايات التاريخية، التي تميزت بالإسقاط على الواقع العربي اليوم، من خلال اختيار القرنين السادس والسابع الهجري، بما حوى من فرقة تشبه اليوم، وكيف تم تسليم القدس بعد تحريرها ثلاث مرات. لقد اختار الكاتب سيرة السيد أحمد البدوي، الصوفي، ليكشف من خلالها أيضًا عن

علاقة النخب بأهل الحكم، وهي علاقة تنافر.

أما الكاتبة الشابة ميرفت جمعة، في رواية "ماميلا"، فقد كانت الرواية تاريخًا جزئيًّا، حيث سار خط الآن في القدس، وآنية حادثة تدمير "إسرائيل" للمقبرة الإسلامية "مأمن الله"، مع ما كان من غزو الفرنجة قديمًا، وذبح المقدسيين، ودفنهم بالجملة هنا. ظهرت مدينة القدس الآن وما تعانيه من تهويد، حيث ربطت الحاضر بالماضي، بجامع التعرض للغزو.

وتوظيف التاريخ كان ظاهرًا في رواية "الخواص" 2005 لحافظ البرغوثي حين "يطنب" الراوي في سيرته الذاتية على الشيخ إبراهيم "الخواص" كي يخلصه من الواقع البائس، عبر توظيف المعتقدات الكنعانية والشعبية والتاريخ لمقاومة الغزاة والفساد. وفيه عرض لدور الريف الفلسطيني قديمًا وحديثًا والذي أهملته كتب التاريخ. في ظل لا جدوى جهود الحاضر، حيث تشتبك الأزمنة والأمكنة، بحثًا عن الخلاص، في ظل مقاربة ومقارنة الماضي والحاضر.

النقد الاجتماعي:

مثلتها رواية "أغويت أبي" 2017، للروائية سهام أبو عواد، "التي علقت جرس موضوع اغتصاب المحارم الذي ينأى عنه الكتّاب والإعلام بصفته فعلًا مستهجنًا عند المجتمعات المحافظة، والنتيجة أن هربت مريم بعد أن قصّت جديلتها ووضعتها على السرير الذي تمت فوقه الجريمة، القابلة أم كمال هي من وجد مريم المختبئة، عرفت قصتها فآوتها إلى أن أنجبت طفلها الأبكم. تتسارع الأحداث وينكشف أمر أبو صالح الذي يسقط ميتًا، فيما كان صالح يستمع إلى الحقيقة التي صدمته، في هذه

الأثناء تخرج مريم من قبوها لتلقي بجسدها داخل بئر مهجورة". ثمة رمز في الطفل الأبكم كثمرة علاقة مشوهة، وثمة دلالة في انتحار المغتصبة كاقتراح بالغياب.

كذلك تركزت رواية "ذاكرة أنثى" للبنى دبابسة 2016 حول الصدمة العاطفية من خلال توازي السرد والوعي في التعبير. ليس في الرواية غير حدث رئيس واحد، وهو تصوير لقصة حب رومانسية ربطت طالبة حقوق برجل بدون ملامح اجتماعية، اقتصر على تقديمه رومانسيًّا فقط، وعابثًا بدون أن يظهر العبث ثانيًا حين انتقل لفتاة أخرى.

خلال ذلك، تربط قضيتها الرومانسية لتجلد الرجل وتنتقده سلبيًّا لعدم وفائه، بقضية المرأة بشكل عام، حين تبذر في النص فقرات كثيرة عن الأدوار النمطية للرجل عاطفيًّا واجتماعيًّا، فلا اطمئنان للرجال، ولا أمانًا لهم. والغريب نوعًا ما أن الشابة الروائية قد اختارت لبنان مكانًا لأحداث الرواية.

قضايا الشباب وهمومهم، كانت ظاهرة في "30 رقما سِرِّيًّا" 2015، لسائد كرزون، فهي قصة طويلة، تنتمي إلى مضامين أدب الشباب الذي يتبلور اليوم في فلسطين كما في البلاد العربية والعالم، بما ينشد من خلاله الأدباء الشباب والشابات مواجهة عوامل الإحباط، وهو أدب طموح يتلمس طريقه عبر البناء على المنجز من خلال توظيف ثقافة العصر وتقنيته.

الرواية والعالم الافتراضي تجلت في رواية "تاج الياسمين" لبشرى أبو شرار2017، لعلها من أولى الروايات العربية، التي تنطلق من المحدود فيزيقيًّا

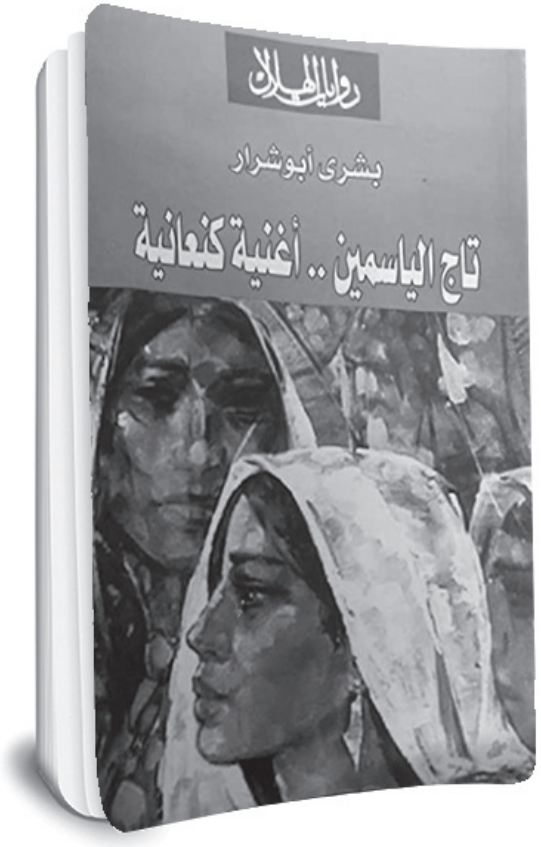

إلى اللامحدود، بالاستفادة من الفضاء الافتراضي، حيث أحضرت الأمكنة إليها، إضافة لاستدعائها الأزمنة أيضًا؛ فكان هذا السحر الشكلي المعبّر عن مضمون إنساني وذاتي. قصص قصيرة منثورة خلال النص الكبير، أعادت الكاتبة تركيبها من جديد في شكل روائي معاصر ومميز أيضًا. حتى لكأنهم جميعًا يكتبون رواية الكاتبة كفرد، وروايتها الجمعية؛ فهي على الحاسوب، معه وبه، من خلال صندوقها المعدني، تنطلق في صناديق معنوية أخرى. لقد أصبح الحاسوب هنا مجازيًّا، حيث تقوم صاحبته بقيادة بنية الرواية وتداعياتها، بسحرها، تقود بشكل غير مرئي، تربط ما بينها وبين نفسها في أزمنة وأمكنة أخرى، وبينها وبين هؤلاء، ضمن المصير الواحد، وعبر أسمى أشكال التعبير: الأدب والفن.

اختتام

وأخيرًا، فقد ساعد تبلور الرواية بعد عام 1967، على أيدي حفنة من روائيّي وروائيات الثمانينيات والتسعينيات، الذين استفادوا من المنجز الفلسطيني والعربي والعالمي، في تبلور الفكر الاجتماعي والسياسي، والوعي على المقاومة، التي اختلفت وتنوعت في العقدين الأخيرين.

نحن إزاء أجيال جديدة، لم تمتلك موهبة الكتابة فقط، بل استطاعت أنسنة السياق النضالي، فابتعدت عن المباشرة والشعار، مقتربة من عوالم النفوس، والتي نظنها قد وصلت إلى المنابر والجوائز العالمية لأنَّها قدمت أدبًا إنسانيًّا، وصف رحلة الفلسطيني كإنسان يعيش جملة هموم واهتمامات، جعلته يرى بعمق نفسه ومجتمعه وقضيته. إنه إذن الاتجاه الجديد الذي ينمو ويتطور على أيدي كُتَّاب وكاتبات التسعينيات وما بعد، وهو الأدب الجديد، الذي يقدم المكان الفلسطيني المعاصر، ولا يقف فقط عند الحنين من جهة، والتراث والفولكلور من جهة أخرى، باتجاه الحداثة وما بعد الحداثة. وهو من ناحية تاريخية يرصد أثر التحولات السياسية التي واكبت اتفاقية أوسلو عام 1993، على الحياة الفلسطينية التي تجلت في الرواية بشكل خاص، حيث يطمح هذا الكتاب تسليط الضوء عليه.

إنَّه الفضاء الإنساني للراوي والمروي عنهم وعنهنَّ، وهو المؤهل فعلًا ليقوِّي أسباب البقاء هنا في ظل كولينيالية عسكرية تلغي الإنسان وتنفيه من أرضه.

ولعل ذلك يشير إلى تفاعل الروائيين والروائيات مع المكان هنا بدوافع الانتماء والوفاء، ومع الزمان الذي يعني فيما يعنيه من وجود الإنسان على هذه الأرض، وما يمنحه ذلك من أمل الاستمرار.

ولعل القراء والكتاب معًا، يتأملون بما حضر من مضامين وما غاب، من أجل الاكتمال، أو النزوع إليه ■

روائيون أسرى في سجون الاحتلال الصهيوني

محمد عارف مشّة(*)

ما زلت أذكر تلك الابتسامة البريئة، والتي لم أر بطهرها ونقائها، لشاب فلسطيني في العشرين من عمره، عندما أصدر القاضي الصهيوني حكمًا بالسجن على الشاب بمئتي عام، فابتسم الشاب وألقى قنبلة انتصاره في وجه هزيمة المحتل، وقال: وهل ستبقون لمئتي عام هنا ؟ ثم زلزلت ضحكة الشاب. شعرتُ كم كان الشاب الأسير بحجم طموح شعب، وكم نحن صغار أمام طموحه وانتصاره، في الوقت الذي تهرول فيه بعض الأنظمة العربية نحو الهزيمة والاستسلام للتطبيع مع الكيان المحتل.

فرق شاسع بين أن تجلس في غرفة مكيّفة، وفيها الإضاءة الواضحة، وأمامك فنجان قهوتك وأوراقك وعلبة سجائرك، لتكتب عن فلسطين، وأسير في سجون الاحتلال، يكتب وسط ظلام السجن، ومداهمة السجان لسرقة حلم في قصيدة تكتبها للوطن، أو تهريب الأوراق لتكتب عليها أملًا وحلمًا باحتضان ابنة أو زوجة أو أختًا أو أمًّا وعناق أب.

ليس الهدف من الكتابة مغازلة امرأة ما على الطريق، أو المديح لمسؤول كي تنال رضاه، أو مجرد تسويد الأوراق، كما يفعل بعض الآخرين من الكتاب والشعراء والفنانين. بل الهدف تحرير وطن من محتل يمتلك مفتاح السجن، ويمتلك العتاد والأسلحة، لتخرج من بين الرماد لتصرخ بصوت مرتفع: ما زلت حيًّا هنا، ولن أرحل من هنا، فهذا وطني، وهذه فلسطين لي.

نعم فرق كبير وشاسع، حين تكون مناضلًا حقيقيًّا، وليس فقط مناضلًا بالكلمة، بل بدمك الذي سلبه منك سجانك وسلب حريتك ورائحة أمك. وأن تقف أمام المحتل، لتقول له إن كنت سجنت جسدي، فلم تسجن فكرتي، وحريتي، لم تسجن حرفي وكلمتي.

هذا الإحساس بالنصر، تجده في كتابة العديد من الأسرى في سجون الاحتلال الصهيوني ومنهم: الروائي حسام زهدي شاهين، الروائي والشاعر والناقد كميل أبو حنيش. الروائي أسامة الأشقر.

ومما يلفت النظر ويزيدنا فخرًا فوق فخرنا بمبدعينا الأسرى، من حولهم، فللروائي حسام أخت مثقفة وواعية، وتحمل رسالة أخيها، بالعمل على متابعة كتاباته، ونشر إصداراته. ولكميل أبو حنيش الروائي والشاعر أخوه الشاعر كمال أبو حنيش، يقوم بجهد رائع في إيصال رسالة أخيه. وما أبهرني أكثر أنَّ خطيبة أسامة الأشقر، تحمل رسالة خطيبها، وإصرارها أن تبقى خطيبة أسامة، على الرُّغم من

(*) قاص - الأردن

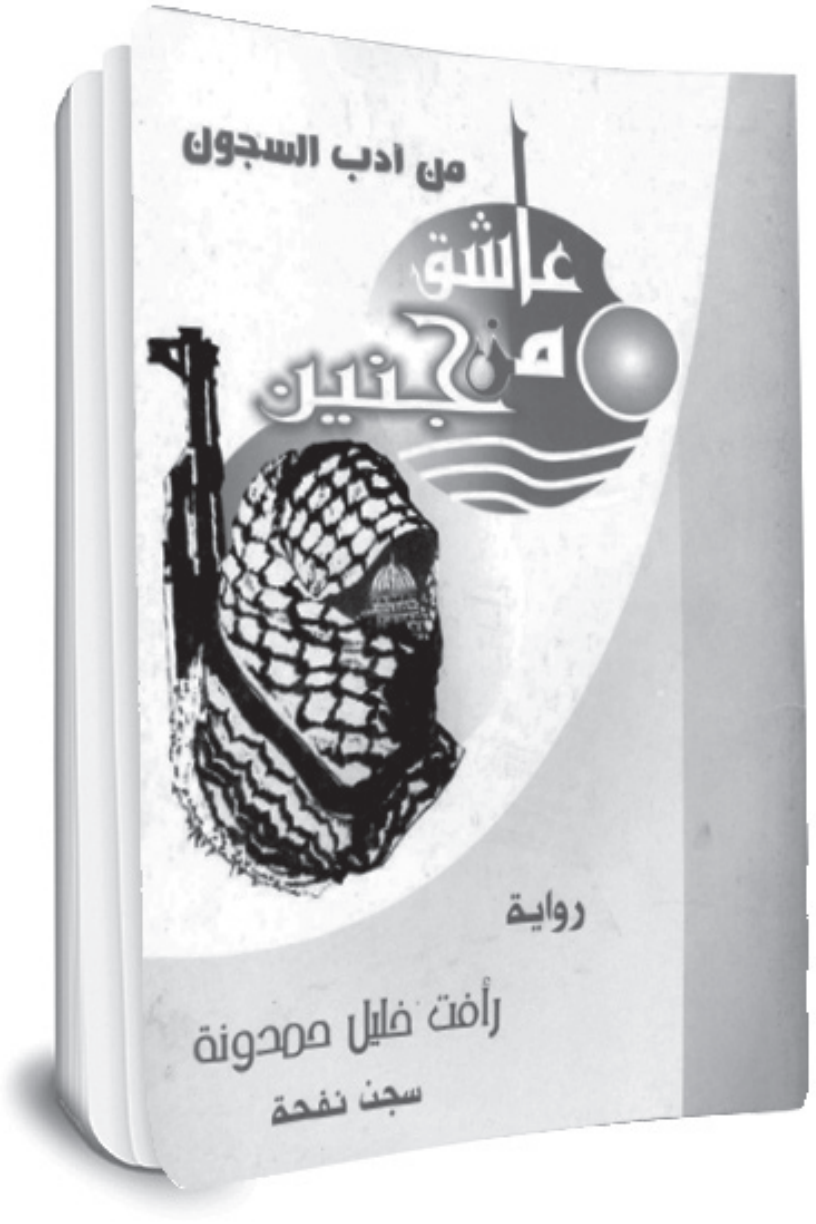

طول فترة الحكم عليه.

كما أن للكُتَّاب الفلسطينيين ولمثقفيهم، الدور المهم في تقديم هذه الإبداعات وإيصالها للقارئ العربي، خارج الوطن المحتل، أمثال الكاتب والأديب الفلسطيني محمود شقير، والناقد والروائي حسن عبادي وغيرهم.

هناك العديد من الروائيين الذين صدرت أعمالهم الروائية، وهم ما زالوا قيد الأسر في سجون الاحتلال الاسرائيلي، وصل مدة الحكم عليهم، بما يقترب من ألف ومئتي عام متواصلة، وعلينا أن نتخيل أسيرًا، قد تم صدور الحكم بحقه ظلمًا، أكثر من ألف ومئتي عام، بلا بصيص أمل لفكِّ أسره، يمتلك هذه الروح من التحدي والإصرار على الانتصار، ليس على السجان فقط، بل الانتصار على نفسه وإحباطاته،

نتيجة قهرها ووسواسها، وتغافل ذوي القربى عنه، بالتطبيع مع العدو حينًا، أو التنصل من القضية الفلسطينية حينًا آخر، من بعض الأنظمة العربية.

فقد صدرت حديثا رواية الأسير1578 للأسير الروائي الفلسطيني هيثم جابر- ما زال الروائي أسيرًا - كما صدرت الروايات الآتية للأسير الروائي الفلسطيني كميل أبو احنيش، وما زال قيد الأسر: (الكبسولة) و(وجع بلا قرار) و(مريم مريام) ومشاركة في رواية حب في زمن الكورونا مع محمد عارف مشّة، إضافة إلى العديد من الدراسات النقدية والمقالات والأشعار منشورة في العديد من الصحف والمواقع الإلكترونية، وللروائي الأسير باسم خندقجي رواية (مسك الكفاية)، ورواية (خسوف بدر الدين)، و(نرجس العزلة). وللأسير الفلسطيني الذي ما زال قيد الأسر الروائي حسام زهدي شاهين كتاب سردي بتقديم من الأديب الفلسطيني محمود شقير (رسائل إلى قمر)، كتاب يستحق فيه الوقوف أمامه لما فيه من مشاعر إنسانية رقيقة، وتصوير للحالات الإنسانية التي يعاني منها الأسير الفلسطيني في سجون الاحتلال، إضافة إلى صدور روايته بعنوان (زغرودة الفنجان).

كما علمت أنَّ الأسير الفلسطيني أسامة الأشقر، قيد الانتهاء من كتابة وإصدار رواية جديدة، أما من كتب مذكرات الأسر بعد قضاء فترة الحكم في زنازين المحتل الصهيوني، سواء أكانت في عمل روائي، أو عمل أدبي سردي، فهم كثر.

وعن المرأة الفلسطينية في سجون الاحتلال، ولظروف المرأة العربية، خارج الأسر بشكل عام، فإنَّ كثيرًا من النساء العربيات يمتنعن عن الكتابة عما يتعلق بأسرارهن بشكل عام، فالقليل من الكاتبات العربيات يصرحن بالحب أو بتجاربهن الخاصة في الحب والمشاعر الانسانية الخاصة بهن مثلًا، حتى لمجرد التصريح بهذا للصحف والمجلات وغيرها، بأنهنَّ عشن تجربة الحب التي كتبت عنها بسبب قيود المجتمع وعادات وتقاليد بعض المجتمعات العربية. فكيف سيكون الحال لنساء عربيات يعشن نفس الظروف في المجتمع العربي الفلسطيني، ويكتبن عما عانين من ظلم السجن والسجّان المحتل في السجون الصهيونية؟ لكن هذا لم يمنع بعض الأسيرات الثائرات، واللاتي تحدَّيْن المحتل الصهيوني، بعنادهن وصبرهن، وتحملهن بما عانين من قهر جسدي ونفسي وسلوكيات غير أخلاقية من المحتل تتنافى مع القوانين الدولية، والمشاعر الإنسانية، ليصل بالمحتل للدرجة الحيوانية من التعامل، مع المرأة الأسيرة الفلسطينية داخل السجون الإسرائيلية، وسيتم بإذن الله التعرض بالتفصيل لهذه الممارسات بشكل تفصيلي، بالقدر الذي نستطيع فيه تسليط الضوء على الممارسات الحيوانية في سجون المحتل مع أسرانا وأسيراتنا، من خلال التعرض في لاحق هذه الدراسة تباعًا، لما ورد في الروايات الأدبية التي صدرت بأقلام الروائيين والكاتبات الأسيرات.

(عاشق من جنين)

رواية من الحجم الصغير، ولربما هي قصة طويلة، أكثر مما تكون رواية، بسبب صغر حجمها، إلَّا أنَّها تعجُّ بالصور، للأسير د. رأفت حمدونة من مواليد عام 1970، تمّ اعتقاله عام 1990 لمدة خمسة عشر عامًا، لغاية عام 2005.

من مؤلفاته داخل الاعتقال: نجوم فوق الجبين –

عاشق من جنين – الشتات – ما بين السجن والمنفى حتى الشهادة – قلبي والمخيم – لن يموت الحلم وصرخة من أعماق الذاكرة وغيرها.

تبدأ الرواية باستعراض مختصر لبدايات ثورة الشعب الفلسطيني، ضد المستعمر البريطاني، بثورة عز الدين القسام، والذي كان صديق خليل الطفل، ثم تتوالى أحداث سرد وباختصار ودلالات الأحداث السياسية ومقاومة احتلال اليهود للأراضي الفلسطينية بدعم من بريطانيا، مرورًا بثورة عام 1936، والتي لم يذكرها بالاسم، إلى أن خرج الفلسطينيون من أراضيهم عام 1948، وفشل قوات الإنقاذ في الحفاظ على الأراضي الفلسطينية.

يسرد الروائي أحداثًا من مقاومة الطفل خليل الذي أصبح شابًا، وعن إصابته من البريطانيين، وقصة تعرُّف خليل على الشابة عائشة التي أنقذته هي وأبوها من مطاردة العسكر، وزواجه منها، لينتقل لوصف معاناة الفلسطيني المهجّر في وطنه، وسكانهم في المخيمات. يواصل بسرده التاريخي، أكثر منه روائيًّا لحرب حزيران عام 1967. يتحدث الروائي في تداعيات أقرب للمشاهد السينمائية والفلاش باك من الذكريات، حتى يكاد القارئ الذي لم يعش تلك المراحل السياسية، أو قرأ عنها، فتختلط على القارئ كثرة الأحداث والشخوص، لكن لم تنفلت خيوط الحكاية من قلم الروائي.

أهم الأحداث التي يرويها الروائي، قصة خليل الحفيد مع ليلى، تلك الفتاة المخلصة لحبيبها الأسير، والتي تمت خطبتهما قبل اعتقاله، وتبقى صامدة صابرة تنتظر خروج خطيبها وحبيبها، والتي يصور فيها الروائي حالات عذاب الأسير اشتياقًا لليلى، وتأتي لزيارته مرات قليلة باسم أخته، لأنَّهما لم يعقدا القران، ولا يُسمح لها بالزيارة.

بدأت ليلى بتخفيف عدد مرات زيارتها لخليل، وبدأت الهواجس في نفس خليل، بعد أن علم بأنَّ ليلى تعمل سكرتيرة لمدير عام، واستبدلت بثيابها ثيابًا عصرية، وبعد خروج خليل الأسير من الأسر، يرى فتور مشاعر ليلى، إلى أن كانت مصارحتها له بطلب الطلاق من زوجها الذي لم يتزوجها، وهنا تكون صدمة الانتظار لمدة خمسة عشر عامًا وهو في أسره، وحين انتهى الحكم للخروج والزواج من حلمه وحبيبة عمره، تطلب منه ليلى الطلاق والانفصال.

تصيب خليل خيبات من الأمل والحزن. يبحث له أهله عن زوجة له، فيرفض أهل خمس فتيات زواج خليل من إحداهن، بحجج واهية وكلام جميل، والسبب الحقيقي هو خوف الأهل على مستقبل بناتهم.

يعرض محمود صديق طفولته، ورفيق نضاله لرفيقه خليل*، ويتم زواجهما. تتوالى الأحداث بدراما مقنعة بعد هذا، بمعارك مخيم جنين بسرد تفصيلي جهادي، واقتحام المخيم من قوات الاحتلال، واستشهاد محمود الذي كان يضع حزامًا ناسفًا، والدمار الذي خلفته الدبابات والطائرات في المخيم من دمار شامل وقتل كبير.

الرواية لم تهتم بالجوانب الفنية، والحداثة في كتابة الرواية، بقدر اهتمامها بتوصيل ما يريد قوله الأسير خليل بطل الرواية. ويبقى أدب السجون في السجون "الإسرائيلية" تأريخًا لمراحل مقاومة الشعب الفلسطيني في سجون الاحتلال، وما يعانيه الأسرى في سجون الاحتلال الصهيوني. وهو جهد يُشكر عليه الأسرى على الرُّغم من معاناة الأسر، لم تنكسر عندهم روح المقاومة والأمل بالحرية ■

"الوطن هو ألَّا يحدث ذلك كله..."
(روايات كنفاني)
بين إدانة القيادات وجلد الذات والنضال لتحرير الأرض

ذكريات حرب(*)

لم يكن كنفاني الذي ولد في عكا 1936، في رحم فلسطين، وأمست وجعه وألمه وقلمه وحرفه، وأُجبر على النزوح مع عائلته إلى لبنان، وسوريا، وتنقلاته بينها والكويت، ثم استقراره في بيروت، واغتياله على يد القوات (الإسرائيلية) في الثامن من تموز 1972 حالة من الثقافة الفلسطينية فحسب، بل رؤية استشرافية لحكاية شعب يعاني من احتلال أرضه، واقتلاعه من جذوره، وحقوق مُغيبة، وقيادات متخاذلة، وخيانات تتوالى في كل حين، متكئًا على ذاكرته الفلسطينية التي عاشت حياة التشرد والعوز، لتصبح مفرداته ولغته معجونة بتفاصيل دالية العنب والأرض والنزوج واللجوء وأطفال المخيم والبندقية والصحراء والمواويل والزغاريد والمدن الفلسطينية والقرى والطريق إلى عكا وحيفا ويافا، والبيارات، والثوب الفلسطيني، وشخصياته التي تتجسد روحًا ودمًا في أعماله، فغدا غسان قضية لا روائيًا أو مناضلًا أو سياسيًا فقط. يقول يوسف إدريس: "الكتابة قضية، وغسان كنفاني أول كاتب في تاريخنا الأدبي العربي يعيش قضيته إلى حدِّ الشهادة، فروايات وقصص غسان ليست مجرد كلمات أو أعمال، فكل كلمة كان لها ثمن، وأغلى أنواع الرصيد، وكان لا بد أن يكون استشهاده عملًا فوق الكتابة وآماد التصوير والخيال، فاستشهاده أعظم قصة في تاريخ الأدب العربي، بل ربما في تاريخ غيره من الآداب، لقد كان يعرف خاتمته منذ أول سطر كتبه". (ص20 – 25)

إدانة للقيادات والشخصية الفلسطينية في تخاذلها واستسلامها

لم تخلُ بعض روايات غسان كنفاني من إدانة القيادات الفلسطينية والأنظمة العربية إزاء الحدث الجلل في 1948، وجلد الذات الفلسطينية التي تقاعست عن استرداد أرضها في وقت ما، لتطهيرها من عجزها وبكائها وعويلها، لا سيما بعد سقوط ورق التوت.

ففي (رجال في الشمس 1963) كانت الإدانة للشعب الفلسطيني من جهة، والقيادات الفلسطينية – العربية من جهة أخرى، من خلال الشخصيات المتمثلة؛ بـ (أبي قيس): "في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئًا سوى أن تنتظر، لقد احتجت إلى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق أنّك فقدت شجراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها، ماذا تراك كنت تنتظر"؟ (ص46)، و(أسعد)

(*) كاتبة - الأردن

و(مروان) ورغبتهم العارمة في تحسين وضعهم المعيشي، فأرادوا الخلاص، ولم يتوانوا في الاتفاق مع سائق الشاحنة (أبو الخيزران) – الذي يعترف ببساطة بينه وبين نفسه: "الوطن؟ وما النفع؟ لقد ضاعت رجولته وضاع الوطن، وتبًا لكل شيء في هذا الكون الملعون". (ص110) - لتهريبهم إلى الكويت مقابل مبالغ من النقود متفق عليها، وعلى الرُّغم من تحذيره لهم بقسوة الصحراء، والرمضاء الشديد، والجراذين، والاختفاء في الخزان عند وقوفهم على الحدود – البصرة – الكويت، إلَّا أنّ كل هذه الأمور لم تمنعهم من الرجوع عن قرارهم، والاستسلام للفردوس المفقود، ليدفعوا حياتهم ثمنًا لأحلامهم، عندما ماتوا داخل الخزان، تاركين خلفهم سؤالًا بحجم الكون: (لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟) بل إنَّ (أبا الخيزران) الذي قادهم إلى حتفهم، لم يكلف نفسه عناء دفنهم، بل سرق الأموال من جيوبهم، وساعة مروان، ونرى أنّ غسان كنفاني جعل موتهم داخل الخزان إدانة لتنصلهم من قضيتهم الأم.

وفي (ما تبقى لكم 1966) باكورة التجارب الحداثية في الرواية العربية التي تميزت بتقنيات جديدة مختلفة؛ الزمكانية والشخصيات، وحواراتها الذاتية والآخر، والتي تزخر بأداء عالٍ، ولغة متقنة، يعيد كنفاني معاناة الأسرة الفلسطينية وتفككها إثر الاحتلال (الاسرائيلي)، و(زكريا) - إدانة للعملاء الفلسطينيين - الذي يشي بـ (سالم) ليُغتال على يد جندي (إسرائيلي)، ويعتدي على (مريم) أخت (حامد) الذي يقرر مغادرة الوطن ميممًا وجهته إلى الأردن، هي إدانة لمن يترك وطنه لعجزه أمام ما يحدث.

يقول (كنفاني) لقد سألت نفسي: لمن أكتب أنا؟ هل أكتب من أجل النقاد، أم أكتب لأجل أن أصل إلى الناس، لا شك أنّ (ما تبقى لكم) شكل من أشكال الثقافة الموجودة، وهي رواية مهمة في حياتي الأدبية، فقد طرحت علي هذا السؤال، وقد أجبت عليه في روايتين صدرتا بعدها (عائد إلى حيفا) و(أم سعد)، ونهجت نحو التبسيط على اعتبار أنّه يهمني قبل تحقيق انجازات في الشكل، الوصول للقارئ، وإذا استطعت أنْ أقول الأشياء العميقة ببساطة، أكون في الواقع راضيًا عن تطوري، والإنجاز هو أن يقول الإنسان الشيء العميق ببساطة."(ص86)

وإذا كانت الإدانة واضحة في الروايات السابقة، ففي (عائد إلى حيفا 1969) مكاشفة، ومحاكمة الذات، والتكفير عن الذنب، والقصور التاريخي في القضية الفلسطينية، يقول (سعيد): "إنَّني أعرفها، حيفا هذه، ولكنها تنكرني". (ص343)، كأنّه يحاول أنّ يُذكرها بنفسه، وهي الإدانة الأولى، فقد تنكر البلاد أهلها إذا أطالوا الغياب، وعلى الرُّغم من تردُّدهما إلَّا أنّهما يقرران في آخر الأمر الذهاب إلى (حيفا) لرؤية بيتهما وابنهما (خلدون) الذي تركاه رضيعًا في سريره إبان نكبة 48، ليكتشفا أنّ البيت كما هو سوى بعض التغيرات البسيطة؛ الجرس، والاسم، ومقاعد جديدة، لون الستائر، وعدد ريشات الطاوس في المزهرية الجديدة عوضًا عن القديمة. تاتي الإدانة الثانية عندما تستقبلهم الأم البولونية (ميريام) قائلة: "أنتما أصحاب هذا البيت، أعرف ذلك. كنت أقول كل يوم إنكما ستأتيان، منذ زمن طويل وأنا أتوقعكما". (ص366)، هي إدانة لتأخير الفعل، وبعد حوار قصير، يشعر (سعيد) أنّ الأمر مستحيل، لا سيما بعد أنّ تخبره (ميريام)

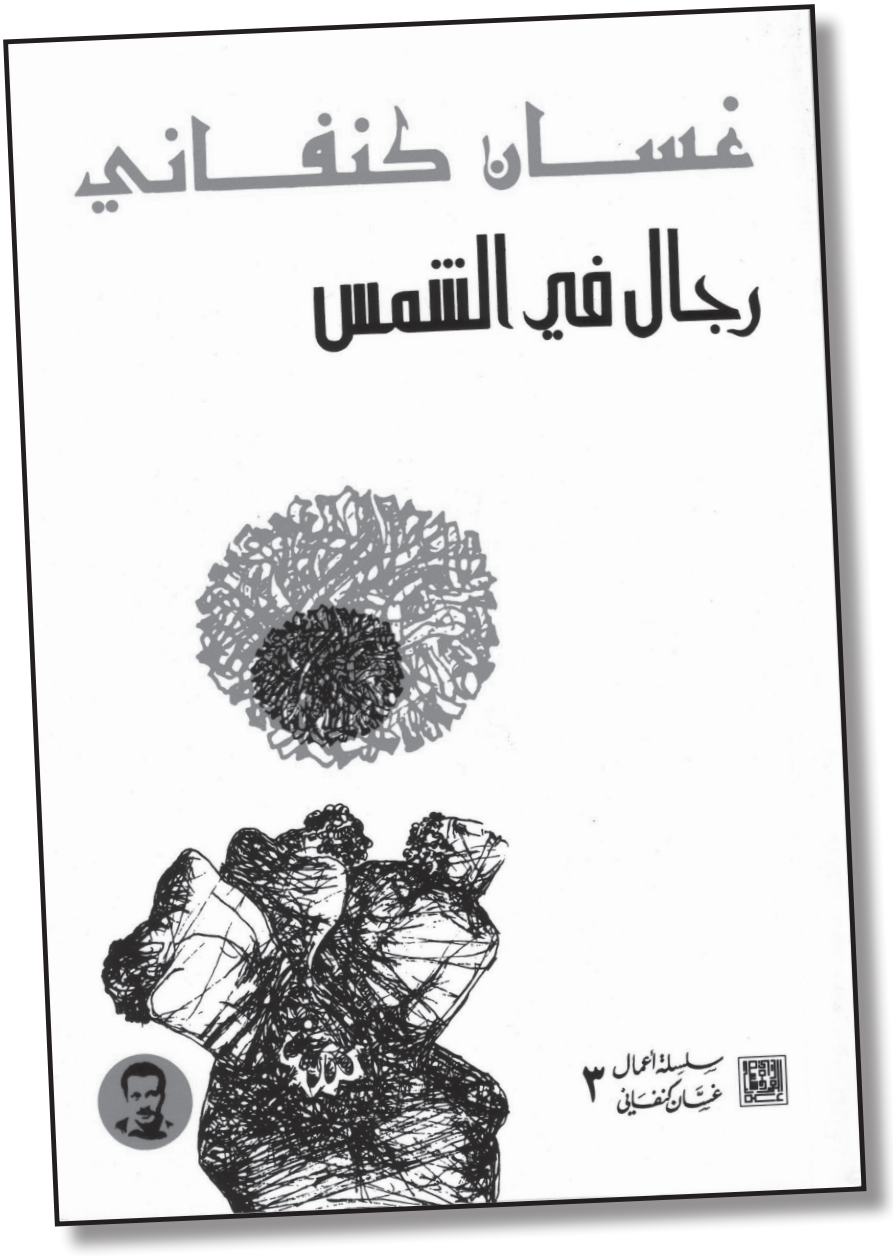

أنّ (دوف) صاحب القرار: "أي خيار عادل؟ عشرون عامًا، كيف يكون، يومًا يومًا.. ساعة ساعة، مع الأكل، والشراب، والفراش، ثم تقولين: خيار عادل، إنّ خلدون أو دوف، أو الشيطان إنّ شئت، لا يعرفنا، أتريدين رأيي؟ لنخرج من هنا ولنعد إلى الماضي. انتهى الأمر، لقد سرقوه." (ص384)، روح اليأس والتقصير والاستسلام والهزيمة.

في المواجهة بينه و(دوف) المجند في جيش الاحتياط، مرتديًا البزة العسكرية، يقول (سعيد): "الذنب ليس ذنبك وحدك.. أليس الإنسان هو ما يحقن فيه ساعة وراء ساعة، ويومًا وراء يوم، وسنة وراء سنة؟ إذا كنتُ نادمًا على شيء فهو أنّني اعتقدت عكس ذلك طوال عشرين سنة." (ص404)، إذًا هي لحظة الحساب، واعتقاده طوال السنوات

الماضية لن يشفع له رفض (دوف): "كان عليكم ألا تخرجوا من حيفا، وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فقد كان عليكم ألا تتركوا طفلًا رضيعًا في السرير، كان عليكم ألا تكفوا عن محاولة العودة.. أتقولون إنّ ذلك أيضًا كان مستحيلًا؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي! عشرون سنة! ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا.. أيوجد سبب أكثر قوة؟ عاجزون! عاجزون! مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف والشلل! الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ولا تجترح المعجزات! كل دموع الأرض لا تستطيع أنّ تحمل زورقًا صغيرًا يتسع لأبوين يبحثان عن طفلهما المفقود.. ولقد أمضيت عشرين سنة تبكي.. أهذا ما تقوله لي الآن؟" (ص408)، ليدرك (سعيد): "الوطن هو ألا يحدث ذلك كله". (ص411). مواجهة كفيلة بانقشاع روح الاستسلام واليأس. ولتخفيف الإدانة عن روحه يقول: "لو كان الأمر كذلك لكان ما حدث لايفرات ولميريام في أوشفيتز صوابًا، متى تكفون عن اعتبار ضعف الآخرين وأخطائهم مجيرة لحساب ميزاتكم؟ أكبر جريمة أنّ يعتقد أي كان أنّ ضعف الآخرين وأخطاءهم هي التي تشكل حقه في الوجود على حسابهم، وتبرر أخطاءه وجرائمه." (ص410). (إشارة إلى الشخصية اليهودية المعذبة على يد النازيين)، وعند خروجهما من البيت، يأمل (سعيد) أنّ يكون ابنه (خالد) قد خالف رأيه، والتحق بالفدائيين، فهو الجيل القادم لتصحيح أخطاء آبائهم وأجدادهم.

على نقيض الحدث السابق، قصة (فارس اللبدة) الذي يعود إلى (حيفا) بعد عشرين عامًا أيضًا، يطالب بصورة أخيه الشهيد المعلقة في منزلهم المستأجر من قبل رجل ما: "بعد أن خرجت من السجن، استأجرت هذا البيت، ربما لأجل الصورة، فقد وجدت فيها سلوى، يبدو لي أنّ يكون الإنسان مع رفيق له حمل السلاح ومات في سبيل الوطن شيئًا ثمينًا لا يمكن الاستغناء عنه، ربما كان نوعًا من الوفاء للذين قاتلوا، الصورة جزءٌ من حياتنا، عشنا عشرين سنة معًا " (ص391)، وفي منتصف الطريق، شيء ما، يجبر (فارس) ليعيد الصورة إلى مكانها: "لقد كان يتعين عليكم إنّ أردتم استرداده أن تستردوا البيت ويافا ونحن.. الصورة لا تحل مشكلتكم، ولكنها بالنسبة لنا جسركم إلينا وجسرنا إليكم." (ص393)، ومن ثم يلتحق (فارس) مع الفدائيين، وهي رؤية استشرافية لنضال عرب 48.

البندقية والنضال المسلح
في رواياته التي لم تكتمل

في المقابل فإنَّ غسان كنفاني لم يغفل حكايات المقاومة مثل (أم سعد 1969)، الأم الفلسطينية التي تحمل هم الوطن، والأرض، والزوج والبيت بعد أن أصبح خيمة من جهة، وتنفخ في قلوب أبنائها روح النضال من جهة أخرى: "هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين، هي تخلف وفلسطين تاخذ." (ص334)، هي الروح المتقدة بعشق الأرض، الدالية التي تفوح منها رائحة النعناع والمخيم، تشد العزم، وتشحذ الهمة، نخلة في عزها وإبائها، وسنديانة في عطائها وصبرها،: "فجأة رأيتها قادمة من رأس الطريق المحاط بأشجار الزيتون، وبدت أمام تلك الخلفية من الفراغ والصمت والأسى مثل شيء ينبثق من رحم الأرض، قمت ووقفت أمام النافذة المشرعة، واخذت أنظر إليها تمشي بقامتها

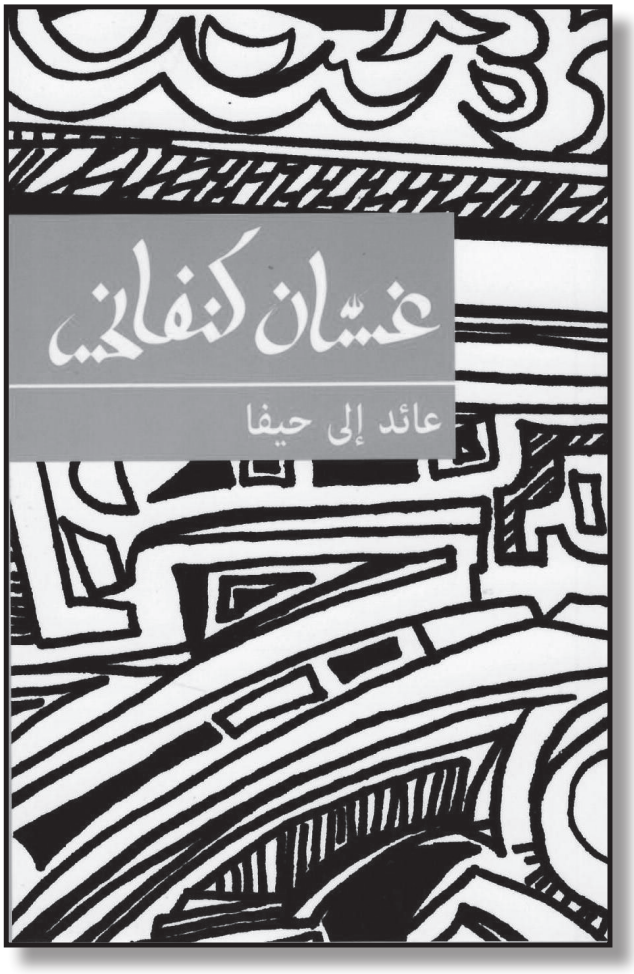

العالية كرمح يحمله قدرٌ خفي.“ (ص245).

وفي رواياته الثلاث (العاشق، الأعمى والأطرش، برقوق نيسان) التي لم تكتمل، يدق (كنفاني) باب المقاومة والاحتكام إلى إرادة شعب تاه بين القيادات العربية والمنظمات الدولية، مُعلنًا حمل السلاح والتحرير، لتكون أنموذجًا للرواية العربية التي بدأ ظهورها في منتصف القرن المنصرم.

في ملحمة (العاشق)، يؤرّخ (كنفاني) حكاية شعب، حكاية (قاسم، أو السجين رقم (362).. أو عبد الكريم..أو العاشق..)، وتذهب الرواية الكنفانية لفعل واحد، النضال الذي بدأ ظهوره تدريجيًا في (ما تبقى لكم) و (أم سعد). ينقلنا من الوعي الثابت إلى الفعل، والانتظار القاتل إلى الحركة في الزمكان، ليصبح الفعل جماعيًا، والانعتاق من حالة الطاعة إلى خلق إرادة تتحدى الواقع الصعب:“دخلها ذات يوم كما تدخلها الريح القادمة من الجبل، وصار لتوه من أشيائها الصغيرة، لكنه أبدًا لم يستطع أن يكون من ناسها.. تسلل إليها بلا صوت، لأول مرة صار موجودًا فجأة.“ (ص421)، العاشق استثنائي، مرتبط بالأرض، تأتينا صورته في كل القرى ووراء قلعة الحجار وتحت العتبة، وفي غرفة أضيق من رئتيه اللتين تنفستا، أقلق مضجع الكابتن (بلاك)، وتحدث عنه مركز البوليس في عكا، وارتجف منه (أحمد) القاضي، وتذكره الحج (سالم) يوم تصدى له مُلثمًا، ورجال كثيرون لمحوه هنا وهناك. العاشق الذي يفهم الخيل ويحادثه: ”صار موجودًا فجأة لحمًا ودمًا حين غاب... كان هو ذاته وراء قلعة الحجار، تحت العتبة“ (ص439) بهذا الوصف، قدم غسان العاشق الذي حركه العمل النضالي، فجعله - عمل المقاومة – أمرًا لا مناص منه.

تطورت أدوات كنفاني اللغوية والفنية باتجاه تعميق الحدث المتواتر من خلال استحداث إشكالية جديدة، وتأسيس لغة روائية تتصف بقدرتها على التأويل واختزال المعنى الملامس للواقع من دون إسهاب في الحالة التوصيفية، متضمنًا الحوارات التي صاغها بحرفية.

وفي (الأعمى والأطرش) - عنوان يحمل دلالاته الرمزية في الحال العربي والعالم – انتهج (كنفاني) تقنية جديدة في ذاك الوقت؛ (تعدد الأصوات)، مُتخذًا من عاهتهما الحالة التي أراد كشف الايديولوجية السياسية والاجتماعية فيها، يقول الأعمى: ”لقد

قادني المبصرون خارج طيرة حيفا، وآن للعمي أن يتحركوا. إنّ الأشياء التي ترونها ليست هي.. وأنا الأعمى الذي أعرف أنّ المعجزة إنما تُجترح من القاع". (ص506). الأطرش: "لم يكن من الممكن لأي رجل آخر أنّ يحتمل ذلك الطوفان من الغضب الكسيح عشرين سنة متواصلة". (ص481)

هو الشعور بالقهر في دواخلهما، مستخدمَيْن المعنى المجازي في المفردات المتقابلة، لغة تنويرية لرسم الذات بالصور اللاحسية ليسقطه على الحالة العامة، لكنهما على الرُّغم من معاناتهما الحسية يكشفان العجز العربي والعالمي المتمثل في (عبد العاطي – الوالي) صاحب الكرامات الذي يتبعه كثيرون دون وعي، ويتباركون فيه ليُفرج عن كربهم، وهو في الحقيقة (فطر)، لم يكشفه إلَّا الأعمى والأطرش، ليكون النص في اتجاه الخلاص، وهي الثورة على كل المعتقدات والتخاريف والعجز السائد: "المعجزة إنما تُجترح من القاع". (ص506).

في (برقوق نيسان)، وثّق (كنفاني) شخصياته بتفاصيلها الحقيقية بهوامش الرواية غير المكتملة، وجاءت مستشهدة بأحداث واقعية ليرسخ المفاهيم الانسانية والقضية والعمل الفدائي، بدءًا بـ (قاسم خليل) الشهيد مرورًا بوالده العجوز الذي لم يفصح عن علاقته بابنه أمام الشرطة خوفًا عليه، و(سعاد وقاد) التي يتوسط شعرها بقرص أحمر من زهر البرقوق، ووليد الطفل ووالده (زياد حسين) و(طلال)، وصحن الكنافة، والرسالة التي كان يبعثها (حسين) بعينيه لـ (أبي قاسم) أثناء احتجازهم جميعًا في منزل (وقاد) المختفية عن الأنظار. وفيها اعتراف حقيقي أنّ حرية الفرد من الجماعة، والعمل الفدائي لا يأتي من عمل فردي، وإذا كان النزوح على الرغم منه وأُرغم على التكدس فيه لبعض الوقت، فإنَّ من الطبيعي أن يسعى مع من حوله للتخلص من الاحتلال عبر التحاقه الشرعي في صفوف الفدائيين.

(برقوق نيسان) محصلة حتمية للوضع الاجتماعي المؤلم وثمرة العمل السياسي المنظم، ولغة حاكت البعد النفسي، بين الحركة الخارجية المتمثلة في الشخوص، والزمكان، والإيماء مثل؛ نظرة العين التي اختزلت المعنى السياسي والنضالي، وأصابع الشهيد، فجاءت ناطقة للحالة الجماعية الاستشهادية.

وإذا كان رحيل (غسان كنفاني) عاصفًا، كما كان في حياته السياسية والأدبية، فالمؤكد أنَّه على الرُّغم من إنتاجه الكبير المتعدد الأنواع لم يُخرج كل ما في جعبته، ألم يقل يومًا: "إنَّ أمامي عمرًا أريد أن أدركه قبل أن يطير، فهو لا يكفيني لإخراج كل ما يموج في الداخل." ■

المراجع

الآثار الكاملة، الروايات، المجلد الأول، غسان كنفاني، مؤسسة الأبحاث العربية، مؤسسة غسان كنفاني الثقافية،
الطبعة الثالثة 1986، بيروت.

الآثار الكاملة، القصص القصيرة، المجلد الثاني، غسان كنفاني، مؤسسة الأبحاث العربية، مؤسسة غسان كنفاني الثقافية، الطبعة الثالثة 1987، بيروت.

الطريق إلى الخيمة الأخرى، دراسة في أعمال غسان كنفاني، رضوى عاشور، منشورات دار الآداب، الطبعة الثانية 1981، بيروت.

إبداع

- حميد سعيد
- أديب ناصر
- محمد سمحان
- هشام عودة
- خالد أبو حمدية
- عيسى حمّاد
- دينا بدر علاء الدين

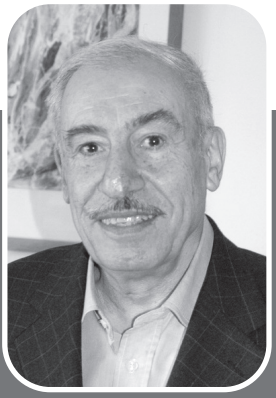

القصيدة المقدسيَّة

حميد سعيد(*)

لحجارتها لغةٌ
وُلدت في ظلال النبوّاتِ
واكتهلتْ في نصوص السماءْ
فإن فَتَرَ الوحيُ .. نادتْهُ
أقبِل .. ومدَّتهُ بالعنفوانْ
هي أوَّلُ معجزةٍ .. وحدَّت بينَ طيف القراءاتِ
ثُمَّ تكونُ ..
آخرَ معجزةٍ .. تتنازعُ فيها القراءاتُ
في كلِّ منعطفٍ موكبٌ .. يتغنى بما قيلَ فيها
وفي كلِّ معترَكٍ كوكبٌ .. يتعَثَّرُ بالشكِّ ..
في مايقول الرواةْ
للمليكة بين المدائن .. أو للرسولةِ بين البلادْ
ولروحٍ بها ..
والذي كان فيها ..
يُصلّي العُفاةْ

. . . . . .
. . . . . .

إنَّها ..
النجمةُ المضيئةُ حيث يكون الأُفولْ
الحَصانُ الرَزانُ البتولْ
أُمُّنا ..
بِكْرُ ملاحِمنا .. وقصيدتنا والنشيدُ الجليلْ
لأريج البيوتِ العتيقةِ فيها ..
أناشيدُ محفورةٌ في البيانْ
وملحمَةٌ ..
بدأت منذُ كانَ الزمانْ
وتبقى مباركةً .. تتجلى على عرشها الأرجوانْ
حيثُ كنّا .. تكونُ
وحيثُ تكونُ .. نكونْ
إنَّ الذين يرَونَ مفاتِنها .. في البياناتِ ..
لايفقهونْ
ومَن يدَّعون إنَّ الأساطيرَ مهرُ بكارتِها ..
كاذبونْ
إنَّها لحظةٌ .. أبدَعتها العروبةُ ..
فابتعدَتْ في السُرى ..عن ممالكَ موهومَةٍ ..

(*) شاعر عربي - العراق

وتواريخَ غائبةٍ ..لن تكونْ
إنَّها لحظَةٌ ..أبدعتْها العروبةُ واستوطَنَتْها . .
فَعنْ أيِّ أسطورةٍ يبحثونْ؟
أيُّها المسجدُ الذي كان قبل الزمانِ ..
تراءى لمن سيكونْ
وصلّى على أرضه الأنبياءُ ..من قبل ما يولدونْ
وكانت فلسطينُ .. سجّادةً في السماوات
والأرضينْ
من عبيرٍ وطينْ
ليس هذا الذي في الجرائدِ .. أو في القصائد ..
أو في الخطاب السياسيِّ .. مما يَمُتُّ إليها
وليس الذي في الكتابِ اليهوديِّ ..
أو في الكتاب اليهوديِّ .. مما يدلُّ عليها

. . . . . .
. . . . . .
أيُّهذا الذي كان يرجمها في المساءِ ..
ويبكي صباحًا عليها
تتوارى الحدائقُ خلفَ شبابيكِها وتطلُّ الحرائقُ
لا في الحدائقِ كنتَ ولا في الحرائقِ..
إنَّكَ ..
مما تُفَزَّعُ منه طيورُ الحقولِ ..
خَرّاعةٌ رثَّةٌ ..
تتهاوى وتبقى الطيورْ

* * *

في كتابٍ مضيءٍ ..قرأنا وصيَّة أشجارِها
وأناشيدَ أحجارِها
والمراثي التي خطَّها الظاعنون . .
وتبقى ..
كما أبدعتها العروبةُ .. من لغةٍ أودعتْها
القصيدةُ ..
بعضَ شمائِلها ..
لا أخالُكِ إلاّ كما أنتِ .. من صلواتٍ ونورْ
وما ترَكَ الغاصبونَ على صفحات كتابِكِ ما
يَسطرونْ
انتظري ..
ويكون النشورْ
أنتِ عَلَّمتِنا ..أن يكون الحوارْ
بينَ جارٍ وجارْ
وليس مع المُفترينَ على وردِنا والذمارْ
لا أخالُكِ إلاّ كما كنتِ ..
من جنَّتين اثنتين .. تُقبلينْ
السُرى والقيامة ..
أما الذين .. يُريدونَ أنْ توغلي في الكهانةِ ..
أو توغلي في المهانةِ ..
فانتبذي دونهم .. وطنًا ساحرًا ..
واصعدي في معارجكِ ..اقترني باليقينْ
لا أخالُكِ ..إلاّ كما ستكونين ..
هادئةً ..
بانتظار الرياح التي لم تَعُد في الجوارْ
إنَّ هذا الوقارْ
من سجايا الكبارْ

* * *

بعدَ حين ..
نعوذُ بما أنتِ فيه ..
من كهنوت السُعارْ ■

قصيدتان

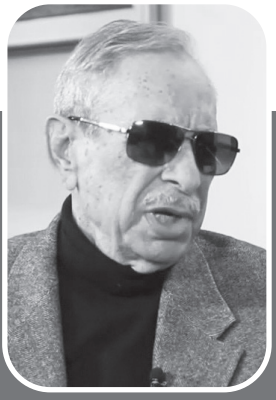

أديب ناصر(*)

(1)

ها نحن في العناء قرية صغيرة
على شعيرة نقف
ها نحن في القارات كلنا في الذعر نرتجف
كبيرنا .. صغيرنا
حتى الذي في بطن أمه وليس يدري يرتجف
فقيرنا والأغنياء
هل تدرون أنَّ صاحب المليار يزدري أمواله
ويعتكف؟
ماذا جرى؟
وكيف يفتك الذي كما الهواء لا يرى بمن يرى؟

قتالنا وما عليه نختلف
قتالنا...كأنَّ الأرض بعد برهة ستنخسف

وهي السماء باقيه
شموسنا أقمارنا غيومنا أمطارنا
هي السماء لم يعد لنا سوى السماء
إنَّنا برحمة السماء نلتحف

(2)

ما لا يرى هزم الورى
دك الحصون ودمَّرا
رج الجبال وعفَّرا
وبكل موت أنذرا
وبكل سوء خبَّرا
فالخوف يرجف أصفرا
أين المدائن هل ترى؟
والصمت يطمس والعرى؟
إنَّ الجبابرة الذرى
القوتين وقيصرا
الراجعين القهقرى
لوح زجاجي همو
ولقد هوى وتكسَّرا ■

(*) شاعر عربي - الأردن

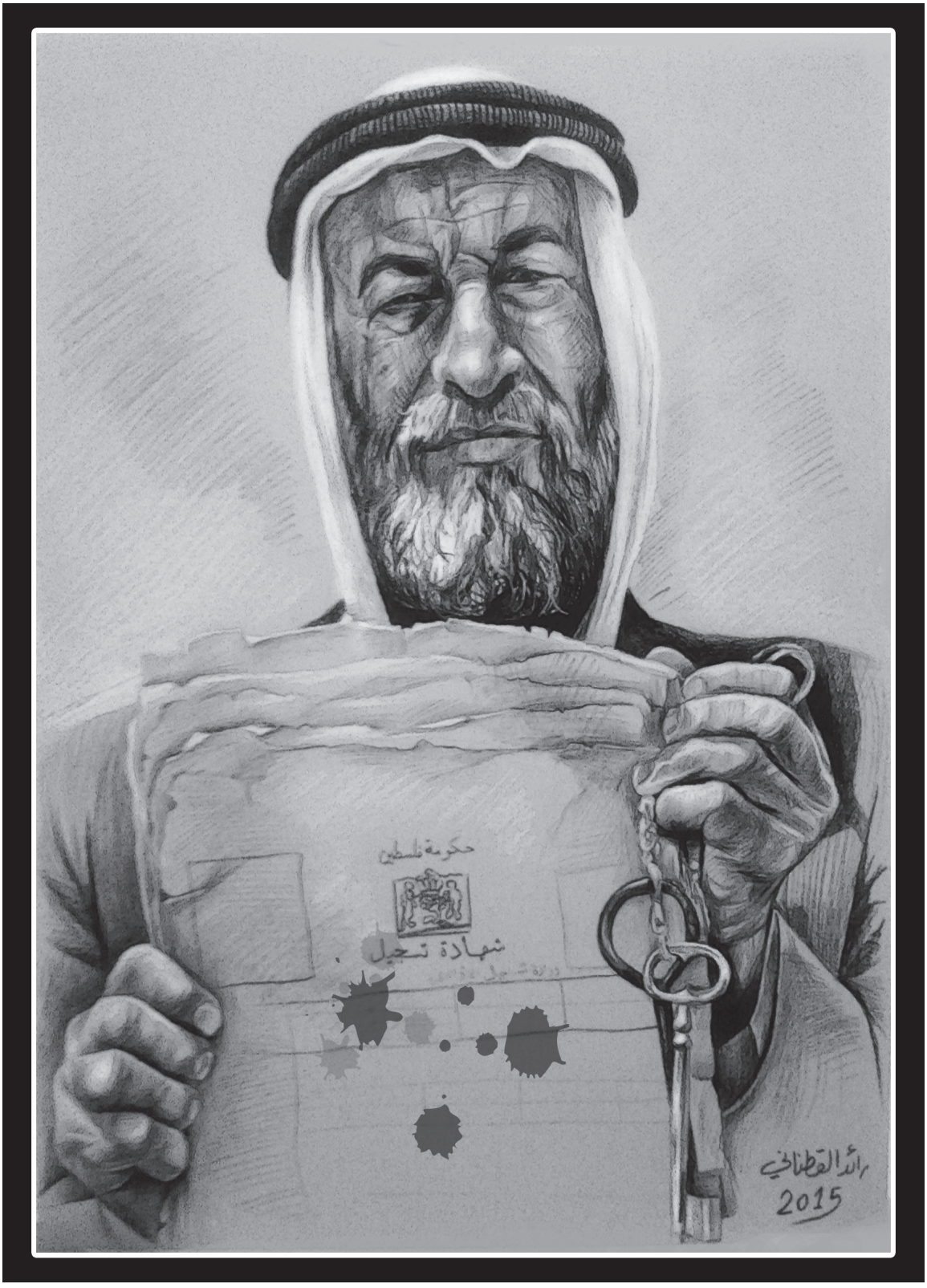
حكومة فلسطين
شهادة تحيل
رائد القطناني
2015

على أبواب حزيران

كتبت هذه القصيدة
في العاشر من حزيران عام 1967

محمد سمحان (*)

يا شُؤْمَ مَا صَنعَتْ بنا الأقْدارُ ... سَاءَ النَّذِيرُ وَسَاءَتْ الأخْبارُ
لـمَّـا نعَى ناعِـي الدِّيـارِ سُقوطَها ... هَوَتْ القلوبُ وَزَاغَتْ الأبْصَارُ
سَقَطَتْ قِـلاعُ المَجْدِ وَهيَ مَنيعَـةٌ ... وَتحَطَّمَتْ مِنْ حَوْلِهَـا الأسْـوَارُ
وَأُبيحَتْ الحُرُمـاتُ وَهيَ حَصِينةٌ ... وَسَطا عَلى أقدَاسِهَـا الأشْرَارُ
وَاجْتُثَّ شَعْبٌ آمِـنٌ مِن أرْضِهِ ... فتـلاعَبَتْ بمَـصِيرِهِ الأخـطـارُ
فكأنَّـهُ بيـَدِ المَهـالِـكِ نَبْتـةٌ ... مَخلوعَـةٌ يلهُـو بـهَـا إعْصَـارُ
اللهُ أكبَرُ كيْفَ تُهْزَمُ أمَّةٌ ... سَقَطَتْ أمامَ فُتوحِها الأمْصَارُ
سَطَعَتْ كنورِ الشّمسِ في حَلَكِ الدُّجى ... فخَبَتْ حِيـالَ ضِيائِهـا الأنـوارُ
طَلَعَتْ على الدُّنيا بشَعْبٍ ماجدٍ ... فَلّ المَمـالِكَ بَأسُـهُ الجَبَّـارُ
لمْ يشْـهـدِ التَّاريخُ مِثْـلَ بُناتِها ... عَزْمًا ولـمْ تتحدَّث الأسْفـارُ
كانَ الجِهادُ طريقَها لِمَرامِها ... والحَزْمُ والتَّصْميمُ والإصْرارُ
والتَّضْحِياتُ وإنْ غَلَتْ فَرخِيصَةٌ ... والبَـذْلُ مهْمـا عَـزَّ والإيثارُ
لهْفِي عَلى الأقصَى تـئِنُّ رحَابُهُ ... وَمَعالِمٌ مِـنْ حَوْلـه تنهـارُ
وَالقدْسُ أُولى القِبْلتينِ أسِيرَةٌ ... ووَتَظلُّ تشغلُ بَالنَـا الأوْطارُ
والمُسْلِمونَ كأنَّ في آذانِهِمْ ... وَقْرًا فلَمْ يُوقِظْهُمُ الإنْذارُ

(*) شاعر عربي - الأردن

حَرْبيْن خُـضْنا لمْ نـفُزْ بـنِتيـجَةٍ لا زَالَ عُـــدْوَانٌ وَلا آثـارُ
فإذا حَزيرَانُ الـمَقِيتُ يُذِيقُنا ذلَّ الـنـُّزُوحِ وَقبْلـهُ أيَّـارُ
وَإذا بآمـــالِ العُـرُوبةِ فِرْيَـةٌ وَإذا بـأحْلامِ الـرُّجُوعِ غُبارُ
يَا أُمَّتِي لوْلا القطِيعَةُ بَـيْننا لمْ يَـنمُ إلا فِـي حِمَانا الغارُ
عَبَثٌ بُلوغُ النـَّصْرِ فِي حَرْبٍ إذا سُلَّ اللـِّسانُ وَأغمِدَ البتَّارُ

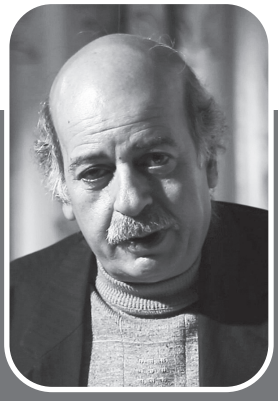

قرن من الشهداء

هشام عودة (*)

هي ثورة الآتين
من لغة الرياح
وثورة الوطن المقيم
على حدود القلب
تعلن ردّها وجوابها
وتجيئ مثل الموج
طافحة الرؤى
مسكونة ببراءة التاريخ
مشرعة النوافذ والدروب
لكي تمدّ ركابها
وتقول للدنيا انظري
وتقول للدنيا اقرأي
وتقول بالدم والرصاص
نشيدها وكتابها
وطن يؤذن للصلاة
ويقرع الناقوس
حيّ على الجهاد
فينفرون مع الحجارة

يحملون الليل في أوراقهم
وتقدم الأرض النديّة
شيبها وشبابها
هذا اقتراح القابضين
على بساط الوقت
في الجبل القريب
هذي جموع الشعب تخرج
والشوارع تلتقي فرسانها
وتعيد للدنيا ضميرًا غائبًا
وتعيد للأرض الحبيسة
رشدها وصوابها
يا أيها الوطن الملثم
والمخبأ في دفاترنا
تقدم نحو أضلعنا
تقدم عند سور المسجد الأقصى
لتقرأ ما تيسر من نشيد الأرض
تعلن أنَّ وجه الله فينا
وتعلن أنَّ أسئلة الحقول

(*) شاعر عربي - الأردن

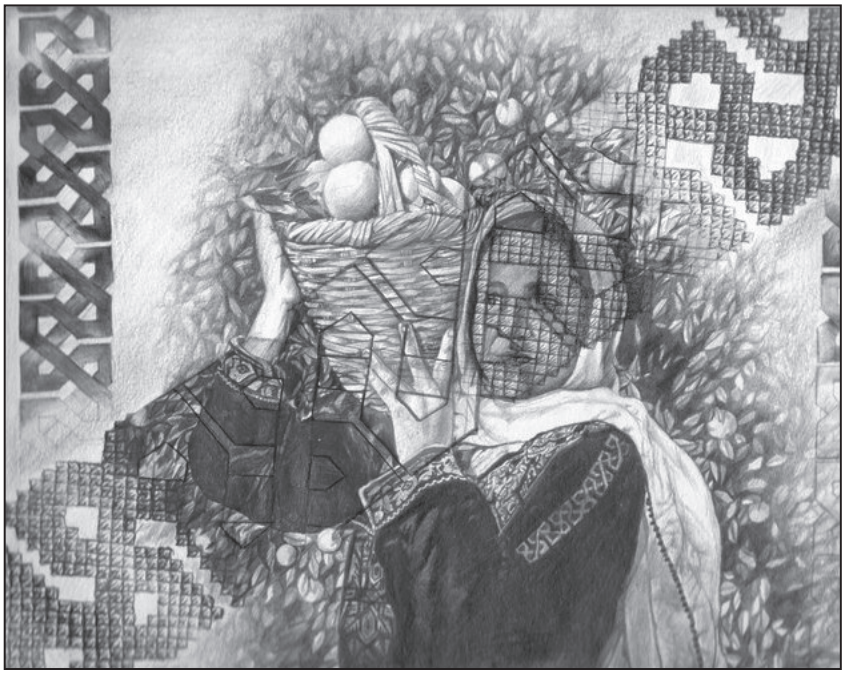

تجمعت في كف عاشقة
لتطلق في فضاءات الشوارع
نسرها وعقابها
قرن من الشهداء
والزمن الفلسطينيُّ
يعطي الأرض
شيئًا من هبوب الريح
بعضًا من دم العشاق
كي تأوي إلى جبل عتيق
في رواق دم القبيلة
أو يعيد نصابها
قرن من الشهداء
والحجر الفلسطيني
غطى بعد طول الإنتظار غيابها
يا أيها الشهداء
قوموا كي نوزع
ما رمته الريح فوق جباهنا
وتدثروا بتمائم الأجداد
فالتاريخ محض حكاية
والأرض ثكلى
يا أيها الشهداء
لا تتأخروا
الليل يكمن في شوارعنا
ليصطاد النجوم
وخوذة الجندي
فانتظروا على الركن القصيّ
لتستفيق الشمس
واحتفلوا بنا
الليل يأتي خلسة
وسماؤنا اكتملت
فغطوا عورة التاريخ من دمكم
وأعطوا للسماء ثيابها ■

سَكّنْ تسْلم... وخيمة

خالد أبو حمديّة(*)

سَكّنْ...

كان الشاعرُ
أستاذي

علمّني
أنْ حين تمرّ الكلماتُ
على سِيَرِ الشهداءِ
تلـيـنْ

من حدّ الحرف الأوّل
في النزف الأوّل
ولِحَدّ الطلقةِ
والسكينْ

فـتَـعلّمْ
ذلكَ حدّك
وحدودُك
لو منفاك الكونُ
تصيبُ فلسطينْ

كان الشاعر
سلطان الله بأوردتي
علّمني أوّل ماعلمني
ألاّ أخلط
بين الحرف الميّت في دفق الكلمات
وبين ضرورات
التسكينْ.

خيمة...

خيمةٌ في المخيم تكفي،
ليسمع أبنائي البائسون حديث السماء طريّا
كأجسادهم،
لا سقوف تردّ الكلام حزينًا،

(*) شاعر عربي - الأردن

وما من نوافذ تفشي بأسرارهم للّصوصْ

خيمة في المخيّم تكفي'
لنعبرَ خطّ الحياة ' بعيدا عن الشّعرِ،
عن أحجيات المجاز، وظلّ البلاغة في
المفرداتِ،
بعيدًا بعيدًا عن الغيبِ،
والشجن المستريح على حرْفِهِ في عرايا النّصوصْ

خيمةٌ في المخيّم تـَشْفي،
ليكبر أبنائي العاطشونَ على وطنٍ،
لا تحدّ الخريطةُ أطرافَهُ والعيونُ،
ولا يختفي وجهُهُ في التجاعيدِ،
تكفي،
وتنفي ارتعاشتَهم في الصقيع،
لأحكي لهم كلّ شيءٍ،
بهذا الخصوصْ ■

حَرائر

عيسى حمّاد(*)

للقدسِ سيّدتي
فيما تبقّى مِن مَلامحِ حِنقنا
وغزا طلاسِمَ صَمْتِنا
بلْ طوّعَ الشّجَنَ الّذي في وعينا
للقدسِ سيّدتي حَرائرْ ...
وعلى أُوارِ الظّلمِ جِئْنَ بهيبةٍ
عشّقْنَ رَوْنقها بكلِّ براعةٍ
ولها امتشقْنَ ضَراوَةً سُبُلَ الإيابْ ...
كُنَّ التقيْنَ هنا..
رتّلْنَ أُغنيةَ النّوى في الصبحِ
هِمْنَ بشَجْوِها ..
قطّعْنَ من وَجَعِ البلاد عروقَهُنّ
ضَفَرنَها أيقونَةً لخَلاصِها ...
للقدسِ سيّدتي تُراقُ الرّوحُ طوْعًا
كيْ نُحلِّقَ لحظةً في العُمْرِ في زَمَنٍ
الشّتاتِ بلا قيود ...
للقدسِ تَقْتربُ المَسافةَ
رَغمَ تزاحُمِ الوَجَعِ المعتّقِ
في خَوابي قهرِنا ...
للقدسِ سيّدتي
طقوسٌ وابتهالاتٌ تُقاربُ بينَنا
لمّا ذَرَتْنا الرّيحُ ذاتَ شتاتْ...
فالقدسُ سيّدتي هيَ بَعْثُنا
هيّ حِضنُنا
هيَ ظلُّنا المَمدودُ حينَ تلْفِظُنا الجِهاتُ إلى
الجِهاتْ...
هيَ آنسَتْ مِعراجَنا للأمْنياتْ...
هيَ ما تبقّى مِنْ وَقارٍ في الفُتاتْ ...
للقدسِ سيّدتي حرائرُ ما طُمِثْنَ مِنَ الخَنا
في شرعِهِنَّ القدسُ فِرْدوسُ الحياةْ...
للقدسِ سيّدتي نساءٌ
ينْتسبْنَ إلى الثّباتْ...
كُنَّ التقينَ هُنا
صَلّيْنَ نافلةَ الوَقارِ برِهْبةٍ
عبّأنَ من شَغَفِ الحنين صُدورَهُنّ ..
أشرقْنَ في دَيْجورِها

(*) شاعر عربي - الأردن

وعَزَفْنَ لحنَ رجوعِنا ..
أجْمعنَ أنْ يأتي الحَمامُ بِلا حِمامْ...
لكنَّ نشْجَ لُهاثِنا وصُراخِنا
أضفى على سَمْعِ النّداءِ عَويلْ
فأثرْنَ أن يأتي الحِمام ...

فلا صلاح الدّين يُصغي للنداءْ
وسَمْعُ مُعتصمٍ هباءْ
وشَهامةُ الأعرابِ تَهْجرُها الضّمائِرْ
للقدسِ
سيّدتي حَرائرْ ..... ■

الصّيّاد

دينا بدر علاء الدين(*)

قُرِعَ الجرسُ معلنًا انتهاء الدّوام المدرسيّ، حَمَلَ الحنينُ الأستاذ نضال إلى منزله الذي دمّرت الحرب الإسرائيليّة الثّانية في عام ألفين واثني عشرَ نصفه، توسّد حجارته، شعرَ بحنان الطّوب يغمره ويُواسيه، وقضبان الحديد المعوجّة أصابع أمّ حانية تتحسّس خدّيه، وجرّاء توكُّئه تحركت بعض الحجارة، لاحت له صورة قبّة الصّخرة التي رسمها والده الشّهيد، أخرج الصّورة من بين الحُطام، ذهب بها مهرولًا إلى أمّه، وما أن رأتها حتى امتزجت دموعها بالتّراب الذي غطّاها، فثارت رائحة الحنين، احتضن امتداد الأب نبع الحنان، ففاضت كلماتها طالبة الرّحمة لشهداء الحريّة والكرامة.

: كانت ليلة ليلاء أصرّ والدك أن يوزّع كلّ ما أنعمت به شباك الصّيد بين المعوزين، متجاهلًا جبروت قنابل العدو التي التهمته؛ لتستقبله السّماء بذراعيها، لقد رأيته أكثر من مرّة جالسًا تحت شجرة ظليلة مناديًا: إنّني انتظركِ يا فوزيّة فلا تتأخّري.

وبينما كانا يتحدّثان دخل صالح البيت، وكالزّوبعة توسّط الغرفة، فغر فاه مستغربًا: أين وجدتَها؟

نضال: بين الحطام بينما كنتُ يائسًا من واقع مرير فجاءت لتبدّد عتمة اليأس، أخبرني كيف الصّيد؟

صالح: كم تمنيتُ لو اهتزّت الشّباك لو كذبًا، ومِن نافذته رأى رسميّة، فاقترب من النّافذة هامسًا: كيف حالكِ؟

بادرته بسمفونيتها المعتادة: متى ستنتهي معاناتنا يا صالح؟

صالح: إن البطالة والحصار يفتكان بالشّباب، ووالدكِ يطلب مهرًا مرتفعًا، كأنّه لا يعيش في غزّة، إنّني أحبكِ... أحبك.

تورّد خداها، أغلقت نافذتها تاركة إياه في بركان حيرته، توجّه إلى المقهى علّه يجد بين أقرانه المواساة، رَحَّبَ به محمود قائلًا: لقد مضى

(*) قاصّة من الأردن

قطار العمر ونحن نعاني العزوبيّة.
أحمد: هذا ما تسعى إليه "إسرائيل"، لا تريد لأبناء غزّة أن يتكاثروا.
صالح: الحصار يُطبق علينا فلا من داخل، ولا من خارج، منذ الصّباح وأنا أصارع البحر، ولم أحظَ بسمكة.
أدهم: يُشاع أنّ وكالة التعاون والتنمية التركيّة (تيكا) ستُقيم عرسًا جماعيًّا، فما رأيكم لو سجّلنا أسماءنا؟
صالح: أحقًّا تقول؟ سأكون قبالة باب الجمعيّة قبل صياح الديك.
في صبيحة اليوم التالي، حيّا رفاق الصّيد، ثُمّ اعتلى مركبه قائلًا: اللعنة عليكِ يا "إسرائيل"، البحر أمامي ولا أستطيع أن أتعدّى أكثر من ستة أميال.
أبو محمد: إياكَ أن تغامر، الموت سيكون مصيركَ يا ولدي.
صالح: إن نفسي تراودني، انظر يا عمّاه حولكَ، إنّ التّلوّث يحيط البحر من كلّ الجهات، إنّنا نقتات على أسماك مسمومة.
أبحرَ صالح بمركبه، وكاد أن يقترب من منطقة الممنوع، ولكنّ وجود أبي محمد بالقرب منه حال بينه وبين ذلك، وقد توعّده إن فعلها ثانية، فلن يخاطبه أبدًا.
عاد صالح إلى بيته صفر اليدين، وأمضوا المساء على أضواء الشّموع؛ فالتّيار الكهربائيّ قلّما يصل، أحضرت جارتهم أم أنور طعام العَشاء؛ صَدَقَة عن روح ابنها الشّاب الذي استشهد في الحرب.
كان أحدهم ينادي الأستاذ نضال؛ فخرج إليه، إنّه الأستاذ حاتم: أتيتُكَ هاربًا من نار (الكارفان)؛ إنّه جهنّم على الأرض، ويزداد الأمر سوءًا بانقطاع التّيّار الكهربائيّ.
نضال: أضحت (الكارفانات) هَمًّا لا بدّ منه، جاءتني فكرة، وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث، في اليوم التّالي التفّ التّلاميذ حول الأستاذ نضال يحملون الشّموع مضاءة، ويسيرون بانتظام في الشّوارع، ويرفعون لافتات كُتب عليها(غزّة صديقة الشّموع)، وكاميرات المصوّرين تلتقط لهم الصُور، ومندوبي القنوات الفضائيّة يتحدّثون مع الطّلاب والأساتذة الصّامدين، كان المعلم نضال يهتف والجميع يردّد خلفه: لن تنطفئ أنوار غزّة، ولو كلّف الأمر أن نجعل دماءنا وقودًا لها.
سمعت رسميّة الهتاف؛ فانضمّت إليهم، لَمَحَهَا نضال بين الزّحام، فعادت ذاكرته إلى ما قبل سنوات عندما رآها تخيط دُمى من قماش، فسألها لمن كلّ هذه الدّمَى؟ فأجابت: إنّني أوزّعها يوم العيد بين أطفال الشّهداء والأسرى. كبُرت رسميّة في نظره، فأحبّها، ولكنّه عندما علمَ بالحب الذي يربطها بأخيه، مسح رسمها من مخيّلته.
وعلى غير موعد رأت رسميّة صالحًا، فأخبرها أنّه سجّل في وكالة التعاون والتنمية التركية (تيكا)، وسَيُزفّان في العرس الجماعيّ بعد عدّة أشهر، فطارت من الفرح، ولكن سرعان ما هبطت أجنحتها: كم تمنّيتُ لو كان يوم زفافنا يخصّنا وحدنا، اللعنة عليكِ يا إسرائيل.
سامي: يومان وأخي ينتظر على معبر رفح؛ كي يسمحوا له بدخول الأراضي المصريّة؛

لمتابعة دراسته الجامعيّة، أليس هذا حرام؟! ما ذَنْب الطّلبة المساكين يقفون أمام المعبر كالمتسوّلين؟ ثُمّ لا يُسمح لهم بالدّخول.

البقّال: إنّ لي قصّة مع المعبر لا تُنسى، فقد

مرضتُ في...

كان صالح يسمع حديثهما فيزداد حنقه على العدو الذي يحارب المواطنين العُزّل حتى في علبة الدّواء. عاد الأستاذ نضال إلى بيته، ليجد أمّه تخيط الأعلام، وهي تغني أغنية البحريّة التي كان ينشدها زوجها، وهو يصطاد سمك البوري، وعندما أنجزتْ مهمّتها، ذهبت إلى الجمعيّة تحملُ بين ذراعيها أعلامًا مقدّسة نزلت من السّماء، وكأنّ السّيّدة العذراء لفّت بها المسيح فور ولادته.

الأسماك تملأ الشّباك، تتراقص أمام صالح كعرائس البحر، كان يأخذ ثمنها وضميره يعذّبه، إنّ السّمك ملوّث، وجميع أهل غزّة يعرفون هذه الحقيقة، ولكن ماذا سيفعلون؟ إنّهم محاصرون برًّا وبحرًا وجوًّا، وحتى خيالًا وحلمًا.

قال لأبي محمد: ليخسأ العدو، سأبحرُ بمركبي حتى أبلغ نهاية البحر.

أبو محمد: هل جُننت؟ عدْ إلى بيتكَ وزوجتكَ، وسآتي عندكم لتناول الشّاي، ماذا دهاك؟ قُلْ: تفضّلْ.

أثناء تناوله الشّاي همس أبو محمد لنضال: إنّنا لم نعد قادرين على كبح جماح صالح، أكثر من مرّة حاول أن يجتاز المنطقة المسموح بها في الصّيد، وأنتَ تعرف عاقبة من يجتاز تلك المنطقة.

في اليوم التالي توجّه نضال إلى مدرسته، وباله مشغول على صالح، وشرع في شرح الدّرس، فقاطعه عُبادة متسائلًا: متى سيأتي الصّبح يا أستاذ؟ الصّبح الذي سنجد فيه الإسمنت؛ لبناء بيوتنا التي دُمّرت؟ والذي سنشرب فيه كوب ماء عذب.

نضال: لقد أتى الصّبح، إنّه أنتم، فأنتم من سيكسر الحصار، ستكونون المفاتيح لأبواب المستقبل، فما زال على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

رجع نضال إلى البيت مشتعلًا حماسة، كانت والدته تعبّئ "بابور الكاز" بالوقود، اقترب من رسميّة وسألها: ألم يخبركِ صالح عن ساعة عودته؟

فأجابت: لا، مضى اليوم وصالح لم يعد، فانشغل نضال، وفجأة وصلت مجموعة من الصّيادين أمام البيت، ولكنّ صالح لم يكن بينهم، أخبرته دموعهم: لقد اجتاز المنطقة المسموح بها، سمعنا أصوات تحذير من الجهة المُعادية، لكنّه لم يرضخ لها، فما كان منهم إلا أن أطلقوا النّار عليه؛ ليعود معنا شهيدًا.

زغردت أمّ نضال وتبعتها رسميّة، ردد معهما ماء البحر، ورمال الشّاطئ، وقفت الأسماك تُحيي الشّهيد، وتهتف لروحه بالخلود، أقسمَ البحر أن يهدي صالحًا كلّ ليلة محارة من لؤلؤ.

كانت طيور النّورس كلّ صباح تجتاز الحدود المسموح بها، تحمل الأسماك بمناقيرها، ثُمّ تُحلّقُ فوق مركب الشّهيد، وتَرْمي بها داخل المركب، ليأتي من لم يجد قوت يومه ويأخذ ما أودعته طيور النّورس.

ما زال مركب الشّهيد راسيًا، وما زالت طيور النّورس على عهدها تتحدّى الحصار بأجنحتها، وتنطلق إلى فضاء دفع من أجله صالح حياته وشبابه ■

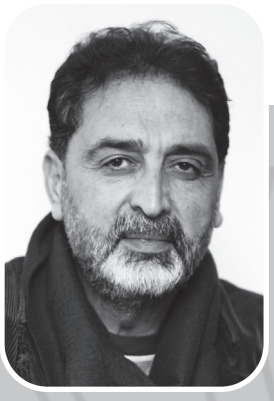

كلمة أخيرة

قُدْسُنا

القدس قدسنا... قدسُ مَن يملكون الوقت رغم النّهايات الضّيّقة، وقدسُ مَن يملكون الكلام رغم ألسنة مطويّـة على حلقها؛ تهوى الخَرَس، وقدسُ مَن يكتبون لأجلها بالدّمِ الأرجوانيّ وألوانٍ أخرى مشتهاة، قدسُ مَن يُجيدون البقاء فوق رغبة المقصلة والموت المفرط... هي قدسُ من يحملون نعوشهم على أكتاف التّعبِ بانتظار صلاةٍ هناك، ومَن هم قادرون على تجاوز محنة هدوئنا الطويل! فكيف تَعمى البصيرة عن أولائك الماضين إلى مجدهم دوننا؟

ما زالت هي سِدرةُ المُبتدأ، وما زالت معراجنا إلى النّصر، فمن يحملون السكّين للنّيل مِن ضفائرها؛ هُم بالكاد يدركون سلَّمَ المُنتهى! ومَن يتاجرون بحجارة جدرانها وأزقّتها؛ هُم لا يعقلون النّجاة!

القُدسُ لها فوارسها، ولها مَن يحملون على عاتقهم زَهْوَها ونَضْرَتها، فما زالَت قدسُ الرَّسول ولا سَلولٌ يستهوي أزقّـتها، ولن يضيرها حمّالةُ الحطب مهما استنفَدت الأشجار، ومهما أَمعن مقاولوها بالتّرف على حساب قيافتها، فهي رهان النَّصر على أنفسنا، ورهان كشف المستور بما تُواري (البدلات الرّسميّة)، هي عروس العروبة ملء الفم وملء العين، وهي البقيّة الباقية من حلم العيش قبل النّفخ بالبوق، ومهما ساقوها عروسًا إلى مهودهم؛ تعرفُ كيف تحفظ عذريّتها، وكيف تصير إلى إله توّجها قِبلةً أولى، فسرَج قناديلها زيتًا ربّانيًا يضيء حلكتنا، وقرأ علينا أنْ لا تاريخ لهم مهما استوطنوا، وأنّ عزّتها معقودة بنواصي؛ مَن إذا صمتْنا تكلَّموا... قدسُنا قِبلةُ اللّه الأولى، وقِبلتُنا الأخيرة نحو الحياة.

...

غابَ السؤالُ عن الشفاهْ
وتلعثَمت في الحلق زيفًا... أجوبةْ
مُذ أَقبل الموت الرّجيم مناديًا:
افتحْ كتابكَ، قد علوت المقصلةْ
فهمستُ في وجهِ الوداعْ:
لا ضيرَ
في سير الحَمام مواكبًا
للذبح قربانًا لأوهام السّلامْ!
لا ضيرَ في موت الرِّفاقْ
إنْ عانقَ الجلاَّد وَهْم حياتنا!
لا ضيرَ في موت الجـميعْ
إنْ باغت الحكَّام صمت الأُغنياتْ
لا ضيرَ في موتي أنا
إنْ صار قلبي خاويًا
أو صار عمري
أُمنياتْ! ■

محمد خضير
مدير التحرير